سلسلة المشاريع الوطنية للبحث



طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

مساهمة الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية



منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث
في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954



سلسلة المشاريع الوطنية للبحث

طبعة خاصة
وزارة المجاهدين

مساهمـــة الجزائـــر
في
الحضارة العربية الإسلامية

رئيس المشروع: *د.عبد العزيز لعرج*

الأعضاء : د. علي حملاوي

د. عبد الكريم عزوق

هذا الكتاب هدية من وزارة المجاهدين

بمناسبة الذكرى 45 لعيد الاستقلال و الشباب



منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث
في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954

تصدير بقلم معالي وزير المجاهدين

السيد : محمد الشريف عباس

كثيرا ما عادت إلى ذهني عبارة قالها المؤرخ الشاعر الموسوعي الدكتور أبو القاسم سعد الله حفظه الله، مفادها أننا شعب يحسن صناعة التاريخ ولكنه لا يجيد روايته والتاريخ لما يصنعه.

وإذا كان هذا الإستنتاج المشحون بغصة أكيدة هو وليد معاناة البحث والإستقصاء التي تحمّلها هذا العالم الفاضل، وهو يقلب دفاتر الماضي ويدقق ويغوص بخبرته وعلميته وسعة اطلاعه في ثنايا تاريخنا الوطني ويرى بأم عينيه كم هو قليل عدد الذين يخوضون معه غمار هذا اليم الواسع المليء بالأسرار والمكنونات، والمليء أيضا بالبحارة المزيفين أو المناوئين الذين لم ولن يدخروا ما في وسعهم للمضي في تزوير الحقيقة التاريخية أو تزييفها أو تغليفها بما يخدم الأهداف المعلنة وغير المعلنة للعدو، والتي ما اتسع حقلها و علا صوتها إلا بسبب ما بدر من المؤرخ الوطني من انسحاب وغياب وما ظهر فينا من سلوك غالب لا يعير التاريخ الأهمية التي تستحق والأولوية التي يجب أن يتبوأها .

ولله الحمد إذ وقعت همسة الدكتور أبو القاسم سعد الله الهادفة ومعها كثير من الدعوات الواعية في سمع راعية أمينة حملت همسة الاستغاثة هذه على محمل الجد وقالت معه ومع غيره من الغيورين على التاريخ الوطني، أنه حان الوقت لعمل جاد لاستغلال هذا الفضاء الحيوي وإعادة ترتيبه ليكون من بين أهم الاهتمامات الأولوية

والفضل في هذا المنحى يعود بالدرجة الأولى إلى فخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة الذي ما كان ليفوت مناسبة وطنية أو محلية إلا وقد حث الهمم ونبّه إلى الآثار السيئة والثقوب الخطيرة التي بدأت تبدو على هذا المستوى أو ذاك من الأعطاب التي تصيب الذاكرة الوطنية، والتي بدأت نتائجها السلبية واضحة في وعي الأجيال الجديدة وتصرفاتها .

قالها فخامته بلغة واضحة أننا وإن كنا مجبرين على التكيف مع المستجدات الحاصلة من حولنا والمشاركة كطرف فاعل في الفضاء الإنساني

الجديد، إلا أن نوعية مشاركتنا وحماية مصالحنا مرهونتان بنجاحنا في تغذية الأجيال الجديدة بالمرجعيات الذاتية ومرتكزات القوة التي تجعلهم يشاركون ولا يذوبون يتصدرون ولا يكونون تبعا لغيرهم، وليس لبلوغ هذه الغاية من خيار غير العناية بالتاريخ وتطعيم هذه الأجيال بخلاصاته.

وقد تمّ الحرص في كل هذا الجهد المتكامل على وضع الأسس لمدرسة تاريخية وطنية لا تستغني عن المناهج العلمية الموضوعية والائتمان على الحقيقة، ولا تسعى في محصلتها إلى زرع الأحقاد كما تفعل المدرسة التاريخية الكولونيالية، ولكنها مع ذلك لا تنسى أنها إزاء بحث علمي إنساني اجتماعي في المقام الأول، وأنها تخوض غمار العمل في حقل ظل مسكونا بالمغالطات والتعصب في الكثير من المؤلفات التي صدرت عن المؤرخين الإستعماريين، وإنه من حقها أن تعيد ترتيب الحقائق كما وقعت بالفعل وبالصورة التي تبين للأجيال كفاح آبائهم، وكما قال الإمام الشافعي رحمه الله (من حفظ التاريخ زاد عقله).

في سياق هذا الجهد الذي ابتدأ منذ بضع سنوات و احتفاء بالذكرى الخامسة والأربعين لاستعادة السيادة الوطنية يقدم المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 مجموعة جديدة من البحوث العلمية التاريخية قامت بإعدادها بالتعاون مع المركز، كوكبة من الباحثين والمؤرخين والأساتذة، المعروفين بقدراتهم العلمية، وبمساهماتهم المتخصصة في هذا المجال.

واني لأغتنم هذه الفرصة لأوجه إلى هؤلاء الأساتذة جزيل التقدير على ما تحملوه من عناء البحث والتنقيب والتدقيق ليقدموا هذا الإنتاج الذي سيكون خير عون للطلبة والباحثين والراغبين في التعرف على التاريخ الوطني من منابعه الصافية.

كما أعبر عن بالغ التقدير والشكر لجميع القطاعات التي ساهمت إلى جانب وزارة المجاهدين، في إنجاز هذا المشروع وأخص بالذكر وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والوزارة المنتدبة للبحث العلمي اللذين وجدنا فيهما خير مساند في هذا المسعى الوطني الرفيع.

وفق الله الجميع في خدمة التاريخ الوطني، وتخليد مآثر الأمة الأزلية، ومن سار على الدرب وصل.

محمد الشريف عباس

تقديم بقلم مدير المركز

يتشرف المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 بإصدار ثلاثين دراسة علمية، هي ثمرة عمل مشاريع البحث المنجزة في إطار البرنامج الوطني للبحث العلمي، والتي نال المركز شرف تأطيرها منذ انطلاقها إلى اليوم.

وإذ تتناول هذه الدراسات تاريخ الجزائر بكل مراحله، فإن ذلك يعتبر تأكيدا لفكرة: أن التاريخ الوطني كل لا يتجزأ على اختلاف العصور والأحداث والأزمنة التي عرفتها بلادنا، وأن هذا المكنون التاريخي، مترابطة مراحله ومتواصلة من القديم إلى الوسيط إلى الحديث والمعاصر، بما في ذلك فترتي المقاومة والثورة التحريرية.

وإذا كان الهدف البعيد في طبع ونشر هذه الأعمال هو إبراز دور المركز ومساهمته الفعالة في كتابة تاريخ الجزائر، في إطار الدور المنوط به منذ نشأته سنة 1995، فإن الهدف القريب و المباشر يتمثل في تدعيم المكتبة الوطنية بعصارة جهد ثلة من خيرة الأساتذة الجامعيين والباحثين الجزائريين المشهود لهم بالخبرة والكفاءة والاختصاص، وإثراء الرصيد العلمي والمعرفي للطلبة والمهتمين والباحثين.

ولا يفوتنا بمناسبة نشر هذه الأعمال أن نهنئ أنفسنا وشعبنا وأن نشكر وزارة المجاهدين وعلى رأسها معالي الوزير السيد **محمد الشريف عباس**، على رعايته واهتمامه البالغ بهذا المشروع، كما نثني على الدور الكبير الذي لعبته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الوزارة المنتدبة للبحث العلمي، الأساتذة والباحثون ،وكل الذين حرصوا وساهموا في إخراج هذا المشروع إلى النور.

د: جمال يحياوي

الفصل الأول

عمران مدينة تلمسان وعمارتها الدينية والمدنية

مساهمات الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية :

مدينة تلمسان : عمرانها وعمارتها الدينية والمدنية

أولا / عمران تلمسان

موقع تلمسان : تقع تلمسان غرب المغرب الأوسط أو الجزائر حاليا بالقرب من الحدود الشرقية للمغرب الأقصى،وهي من المدن القديمة ،تشرف شمالا على منبسط سهلي واسع مفتوح يتصل بالبحر غربا عبر سهل لالا مغنية، وتتصل بالبحر شرقا عبر وادي التافنة وسهله، وجبال السبع شيوخ [1].

يتميز موقعها الجغرافي بتوفر كمية هامة من المياه السطحية، وتكوينها الجيولوجي يحفظ مخزون كبير من المياه الجوفية تتفجر على شكل عيون ووديان صالحة للشرب وسقي الأجنة والحقول والبساتين فتنشر الخصب، ويكثر فيها الزرع والضرع [2].

التطور التاريخي والعمراني لمدينة تلمسان :وتلمسان مدينة موغلة في القدم، فيها للأول آثار قديمة باقية إلى اليوم،يقول عنها أبو عبيد البكري : « أنها قاعدة المغرب الأوسط ودار مملكة زناته ومتوسطة قبا ئل البربر ومقصد لتجار الآفاق »[3]، يتركب إسمها حسب ابن خلدون من « تلم « و « سين . أو . سان « وهي كلمة بربرية معناها عنده تجمع بين إثنين : البر والبحر، أو الصحراء والتل

، ويذكرها الجغرافي الزهري بقوله : » أنها مدينة عظيمة فيها عيون كثيرة ومياه غزيرة،وهي مملكة يعمل فيها من الصوف كل شيء بديع من المحرَّرات والأبدان وأحاريم الصوف والسفاسير والحنابل المكللة وغير ذلك،ولقد يوجد فيها كساء كامل وزنه تسع أواق ونحوه وهذا من بديع ما خص به أهلها من جميل صنعهم «[5]، وفوق ذلك فهي تتوسط طرق التجارة والإتصالات الكبرى الممتدة من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، حيث كانت تستحوذ على النصيب الأكبر من تجارة الذهب بين الصحراء الكبرى والشمال وقارة أوربا،وبفضل موقعها وما توفر فيه من شروط طبيعية وجغرافية تبوأت تلمسان مكانة تاريخية وحضارية مرموقة منذ عصورها الموغلة في القدم،وأثرت تأثيرا بليغا في المغربين الأوسط والأقصى وهي باب إفريقية، ومن ملك الباب دخل الدار على حد تعبير هارون الرشيد الخليفة العباسي وقد تناهى إلية تأسيس الإمارة الإدريسية واستيلائها على تلمسان[6].

وقد مرت تلمسان بجميع الفترات والمراحل التاريخية التي مرت بها منطقة المغرب بصفة عامة والمغرب الأوسط بصفة خاصة، وساهمت في جميع الأحداث السياسية والتاريجية والحضارية للمنطقة، إذ يرجح بدءا أنها كانت محطة تجارية أو مستوطنة فينيقية تطورت تدريجيا لتتحول في العهد الروماني إلى مدينة صغيرة تدعى بوماريا أو قيصرية،وكانت النواة الأولى لتطور مدينة تلمسان، استقرت

بها حامية عسكرية رومانية لتأمين طرق الإتصالات الكبرى الرئيسية الرابطة بين الشرق والغرب أو بين موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية وحمايتها [7]، وقد واصلت المدينة تطورها تدريجيا لتتحول إلى مركز حضاري بنى فيه البيزنطيون كنيسة ظلت قائمة معمورة إلى وقت متأخر من العصر الإسلامي[8].

وعند بداية الفتح الإسلامي اقتصرت جهود الفاتحين الأولى على المناطق الشرقية للمغرب ولم تصل الطلائع الأولى إلى تلمسان إلا في عهد أبي المهاجر دينار،وذلك في حدود سنة 55هـ/ 674م في حملته العسكرية على المغربين الأوسط والأقصى لفض التحالف البربري ضد الفاتحين[9]، غير أن كثيرا من المؤرخين يشككون في ذلك ويرون أن فتح المغرب الأوسط والأقصى لم يتم إلا في عهد موسى بن نصير،الذي وصل إلى طنجة وما والاها وعين عليها طارق بن زياد فاتح الأندلس[10].

ورضيت تلمسان بالإسلام بعد الفتح العربي للمغرب والأندلس رافضة السلطة السياسية للعرب وخاصة أيام عبدالملك بن مروان، وعملت على مواجهة سياسة الحجاج بن يوسف الثقفي المطبقة، فانضوت تحت حكم أمراء محليين من أسرة بني يفرن الزناتية تحت زعامة أبي قرة ،وظلت كذلك حتى قامت الدولة الأدريسية (172 .

296هـ/788 ـ 908م)، وتوسعها في المغرب الأوسط وحلولها بتلمسان سنة 173هـ/789م[11].

وتلمسان في إسلامها كانت تسمى بأجادير، كلمة بربرية تعني الصخرة [12]،والمتمعن في موقعها يدرك أصل التسمية،فمحيطها كتل حجرية ومنشآتها تقوم على كتلة صخرية.

وعدت تلمسان من المدن الهامة في الدولة الفاطمية (296 . 362هـ/ 908 . 972م)باعتبارها معبرا جليلا لهم إلى المغرب الأقصى،وجرى صراع مرير على المنطقة بينهم وبين أمويي الأندلس،وذلك بواسطة قبائل المغربين الأوسط والأقصى [13].وتصارع من أجلها الحماديون(398 . 547هـ/ 1007 . 1152م) حكام القلعة وبجاية بني عمومة زيريي إفريقة مع المرابطين[14]، وتبادلت الدولتان النصر والهزيمة حتى تمكن يوسف بن تاشفين نفسه من ضمها إلى أملاكه سنة 472هـ /1079م)[15]،، وبنى فيها مدينة جديدة إلى الغرب من أغادير القديمة ومجاورة لها سماها تاكرارت أو تاجرارت بمعنى المحلة أو المعسكر بلسان زناتة البربرية [16]،وأحاط المدينتين بسور واحد،وظلت كذلك حتى استولى عليها الموحدون (547 . 668هـ/1152 . 1269م) [17] بقيادة عبدالمؤمن بن علي بن المنطقة من المرابطين سنة 547هـ/ 1152م،فأولوها أهمية كبيرة، وحصنوها تحصينات شديدة،

وخاصة أيام محنة بن غانية، التي كان لها الفضل في مواجهة جحافله ورده عن أعقابه [18].

تلمسان عاصمة للدولة الزيانية : واستمرت تلمسان بوضعها الجديد وما تطورت إليه عمرانيا وسكانيا على يد المرابطين كعاصمة للمغرب الأوسط خلال العهد الموحدي (548 . 668هـ/ 1153 . 1269م)، وبعد ضعف الموحدين على إثر هزيمتهم بالأندلس أمام النصارى في معركة العقاب سنة 609هـ/ 1212م، انقسمت منطقة المغرب من جديد إلى ثلاث دويلات متصارعة فيما بينها، على السيطرة والنفوذ،وهي على التوالي : الدولة الحفصية وعاصمتها إفريقية . تونس(625 . 982هـ/1227 . 1574م)، والدولة الزيانية بتلمسان بالمغرب الأوسط (633 . 962هـ/ 1235 . 1554م)، والدولة المرينية أو بنو مرين(668 . 869هـ/1267. 1465م)،بالغرب الأقصى وعاصمتهم فاس[19].

وبذلك تحولت تلمسان مع مطلع الربع الثاني من القرن 7هـ/13م إلى عاصمة دولة، هي الدولة الزيانية نسبة لوالد مؤسسها يغمراسن بن زيان، او دولة بني عبد الواد نسبة لقبيلة مؤسس الدولة، وذلك منذ 633هـ/ 1235م[20]، لتستمر في حكم المغرب الأوسط إلى انضواء الجزائر تحت الحكم العثماني طوعا.

الصراع المريني الزياني :وقد اشتد الصراع بين الدويلات الثلاثة، وانحصر أخيرا بين الزيانيين والمرينيين الذين تسلحوا بالقوة التي ورثوها عن الموحدين، مدعين في نفس الوقت الوراثة الشرعية لهم بحق تلك القوة، مما يعني تأسيس لمشروع إعادة توحيد المغرب تحت رايتهم بمحو الدولتين الزيانية والحفصية، فرددوا الغزو والحصار لتلمسان لمرات كثيرة، كانت أسوار المدينة لقوتها ومناعتها تصدهم المرة تلو الأخرى، ومند سنة 695هـ/1295م أصبح غزوها سنويا، بل وكانت توجه إليها أكثر من غزوة في السنة الواحدة،واستمر ذلك حتى سنة 699هـ/1299م، عند ما حطت حملة عسكرية جديدة غرب المدينة بقيادة السلطان المريني نفسه أبو يوسف يعقوب، وضربت حصارا شديدا على المدينة، ولجأ أبو يوسف وهو محاصر لتلمسان إلى تأسيس مدينة، عزما منه على عدم رفع الحصار ومغادرة المنطقة إلا بعد سقوط العاصمة الزيانية، وسماها المنصورة تيمنا بالنصر،وشيد فيها قصرا لسكناه وجامعا لصلاته ومؤسسات أخرى دينية ومدنية وصحية، وتبعه علية القوم وبقية الناس بالبناء والتشييد. فتحولت مدينة المنصورة في وقت قصير إلىقوة اقتصادية ومالية كبيرة مستحوذة على مكانة تلمسان، خاصة وأنها عاصمة للمغربين الأوسط والأقصى معا [21] وظلت تلمسان تعاني الام الحصار والجوع حتى أشرفت على الهلاك لولا وفاة السلطان فجأة

اغتيالا، فرُفع الحصار عن تلمسان وعقدت اتفاقية بين الزيانيين والمرينيي، أخلوا على إثرها المدينة وغادروا المغرب الأوسط إلى بلدهم المغرب الأقصى [22].

السلطان أبي الحسن وتجدد الصراع المريني الزياني :وبالرغم من أن المرينيين رفعوا الحصار ورجعوا إلى فاس سنة 708هـ/ 1308م، فإنهم عادوا مرة أخرى سنة 735هـ/1334م لغزو تلمسان على يد السلطان أبي الحسن علي بن سعيد، وكان أبو الحسن ذا طموح سياسي واسع، وشخصية قوية وعزيمة جبارة، وكانت له من الصفات الجسدية والنفسية ما جعل أعداؤه يحبونه احتراما، ويحذرونه خوفا، وفي عهده اشتد الصراع بينه وبين بني عبد الواد حكام تلمسان بسبب سياسة التوسع الزياني على حساب أصهاره الحفصيين التي اعتمدها أبي تاشفين عبدالرحمن وترديده الغزو لمتلكاتهم وخاصة بجاية،وتدخله في البلاط الحفصي تنصيبا وعزلا لسلاطينه، وقد انتهى الغزو هذه المرة باحتلال أبي الحسن للعاصمة الزيانية بعد سنتين من الحصار (735 _ 737هـ/1334 ـ 1336م) [23]، والإستيلاء بعدها على تونس، ليحقق بذلك مشروع إعادة الوحدة إلى المغرب الإسلامي تحت رايته مثلما كانت عليه أيام والموحدين .تلمسان عاصمة المرينين : وقد نزل السلطان أبي الحسن علي في المنصورة مدينة جده أبي يوسف، وقام بإعادة إصلاح ما تهدم

منها إصلاحا شاملا ورممها وحلاها بمنشآت جديدة ،واتخذها عاصمة له للمرة الثانية، واتصل منها بمعظم الدول الإسلامية في المشرق والمغرب والأندلس،خاطبا ودها رابطا صلته بها [24]، وهو صاحب مآثر كبرى في مجال التعمير،فقد قام بحركة تعمير واسعة في تلمسان مثلما كان قد قام بها في مدن المغرب الأقصى،وإليه يرجع الفضل في تأسيس وتعمير حي العباد العلوي وتشييده لمجموعة معمارية دينية ومدنية ومرافق عامة [25]، تعد من أجمل وأفخم ما عرفته تلمسان من المنشآت.

وظلت مدينة المنصورة عامرة كعاصمة للمرينيين حتى 22 جمادى الأخرى سنة 749هـ/1348م، عند ما أخلتها الحامية المرينية تحت ضغط الأميرين الزيانيين أبي سعيد وأبي ثابت[26] مستغلين نكبة السلطان المريني أبي الحسن في القيروان بإفريقية [27]، والصراع بينه وبين ولده أبي عنان فارس[28]،فأعادا إحياء الدولة الزيانية لمدة قصيرة وللمرة الثانية ،وبعد استتباب الأمور للسلطان أبي عنان بهزيمة والده ووفاته عاد للإستيلاء عليها سنة 752هـ/ 1351م من يد الأميرين الزيانيين،وتستمر تحت حكمه إلى سنة 758هـ/ 1356م[29]، ليستخلصها من المرينيين مرة أخرى أبي حمو موسى الثاني(723 . 791هـ/1323 . 1388م) بوفاة أبي عنان، ويعيد إحياء الدولة الزيانية للمرة الثالثة سنة 760هـ/1358م [30].

وتبوأت تلمسان مكانة مرموقة خلال التواجد المريني بها كعاصمة للمغربين الأوسط الأقصى مدة تقرب من نصف قرن متقطعة، ذلك أن المرينيين اعتبروها جزءا من ممتلكاتهم، يجري عليها ما يجري على مدنهم بالمغرب الأقصى، وخاصة في عهد السلطان أبي الحسن، وتعد المنصورة هي المدينة الثالثة التي تتشكل منها تلمسان بعد أغادير وتاكرارتعلى التوالي.

احتوت هذه المدن الثلاثة المكونة لتلمسان على نسيج عمراني دقيق، كانت فيه أغادير وتاكرارت مدينة واحدة يحيطها سور، هو السور الذي شيده يوسف بن تاشفين لهما بعد أن سقطت أغادير في يده وهدم سورها لمقاومتها له ،ثم ضمها إلى مدينته الجديدة تاكرارت وأحاطهما بسور واحد، فصارت مدينة واحدة [31].أما المنصورة فهي لاتبعد عن الأسوار الغربية لتلمسان إلا باقل من 2000م، وأسوارهما متقابلة والباب الغربي لتلمسان يكاد يكون على محور مع الباب الشرقي للمنصورة.

التوسع العمراني لتلمسان وامتدادها خارج أسوارها :أخذت مدينة تلمسان تتحول تدريجيا إلى مركز حضاري وثقافي منذ حلول الأدارسة بها،وازدادت تطورا وتوسعا مع المرابطين،وتغير مركزها من أغادير الإدريسية إلى تاكرارت المرابطية التي صارت في عهدهم عاصمة المغرب الأوسط، يعين لها العمال والجباة،وقدرها الموحدون حق

قدرها، خصوصا أن عبدالمؤمن نفسه، وهو المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية، ابن المنطقة وقبيلته كومية تنتشر في نواحيها، كان قد تلقى قسطا من علومه بها،ولم يكن يولى عليها من الولاة الموحدين إلا من كان منهم من أسرة عبدالمؤمن نفسه [32]،وتعاظمت أهميتها العلمية والثقافية في هذه الفترة، بما كان يفد عليها من طلاب العلم والمعرفة.

وظلت تلمسان على ذلك حتى حولها بنو عبد الوادي من مركز حضاري إقليمي إلى عاصمة دولة، تبارى حكامها منذ أول سلاطينها في تعميرها وإعادة إصلاح ما تهدم منها،وترميم ما كان آيلا للسقوط فيها، وتشييد المؤسسات والمرافق العامة والخاصة بها، كإصلاح وترميم السلطان يغمراسن نفسه لجامعي تلمسان المرابطي وأغادير الإدريسي ،وبتحول تلمسان إلى عاصمة دولة شهدت زيادة سكانية جديدة وازداد معها امتداد نطاقها واتسعت خطتها وضاقت بسكانها حتى بلغ عدد منازلها في عهد السلطان أبي تاشفين عبد الرحمان حسب رواية حسن الوزان ستة عشرة ألف منزل[33] فاتسعت إلى ظاهرها ونشأت أرباض(احياء) لها بحكم تطورها العمراني الطبيعي، ومن تلك الأرباض أو الأحياء الجديدة،ربض العباد أو سيدي أبي مدين إلى الشرق منها وربض سيدي الحلوي إلى الشمال الشرقي وغيرها من الأرباض الأخرى.

ولكن بعد هذا كيف يمكن تشخيص الخريطة المورفولوجية لمدينة تلمسان ،وكيف يمكن تحليل مخططها العمراني على ضوء هذه الخريطة وذلك المخطط ؟

التركيب العمراني لمدينة تلمسان :ليس من السهل القيام بتشخيص دقيق لمدينة تلمسان،باعتبارها مدينة جمعت إرثا عمرانيا ومعماريا زاخرا،تراكم عبر الأزمنة والعصور منذ عهود موغلة في القدم، امتدت من المستوطنة الفنيقية، إلى بوماريا الرومانية، فأجادير أو أغادير الزناتية . اليفرنية إلى تاكرارت المرابطية ثم الموحدية فالزيانية وأخيرا العثمانية.

هذه المدة الزمنية الطويلة وما اعتراها من تراكم عمراني ومعماري،وما دخل عليها من تطور وتغير لأسباب عديدة طبيعية وبشرية، تجعل الباحث يتجه إلى النصوص التاريخية والمعطيات الأثرية ونتائج الأبحاث والدراسات الميدانية يستغلها في محاولة منه إعادة تصور بناء الكيان العمراني للمدينة مع ما يكتنف ذلك من مظاهر الغموض والإحتمال والشك ولإكتفاء إلى حد كبير بالمقاربات حيث أعوزت المعلومات، غير أن السمات العامة التي تشترك فيها بناء المدن الإسلامية في المغرب والمشرق على السواء تجعلنا نفيد منها في إعادة تصور مورفولوجية المدينة بغض النظر على اختلاف البيئات الطبيعية والقوالب المحلية .

إن بناء المدن الإسلامية يخضع في معظمه لتصور فكري وفلسفي يمتزج بروح العقيدة الإسلامية والموروث الحضاري الإنساني القديم،ويرتبط بضوابط محددة وشروط معينة تحقيقا لضرورات الحياة وتوفيرا للأمن والراحة .

ومدينة تلمسان لاتختلف في تركيبها العمراني عن المدن الأخرى، واستقراء لما توفر لها من نصوص وخرائط ومخططات يمكن استنتاج معايير عمرانها كالتالي :فالمدينة تتألف من قسمين يشير إليهما العبدري في رحلته في حدود 688هـ/ بقوله : « وتلمسان مدينة كبيرة سهلية جبلية جميلة المنظر مقسومة بإثنتين بينهما سور... » (34) ويقصد بإثنتين أغادير وتاكرارت المرابطية، وقد فرضت تاكرارت نفسها كمدينة رسمية إدارية، تضم المؤسسات الحكومية والدواوين،وتحولت مع تطور المدينة عمرانيا إلى مركز لها يتوسطه جامعها الكبير.

مركز المدينة ووسطها :شكل(1- 2- 3) ويمثل الحي الإداري والسياسي والديني والثقافي والإقتصادي،وذلك وفقا للنشاطات التي تضطلع بها المؤسسات المنتمية لهذا الحي الذي تعد مدينة تاكرارت المرابطية أساسا لها،وأهم مؤسساتها المسجد الجامع ويلتصق به غربا دار الإمارة مستقر الولاة المرابطين وبعدهم الموحدين، وتغير إسمها إلى القصر القديم أو البالي بعد تحول تلمسان إلى

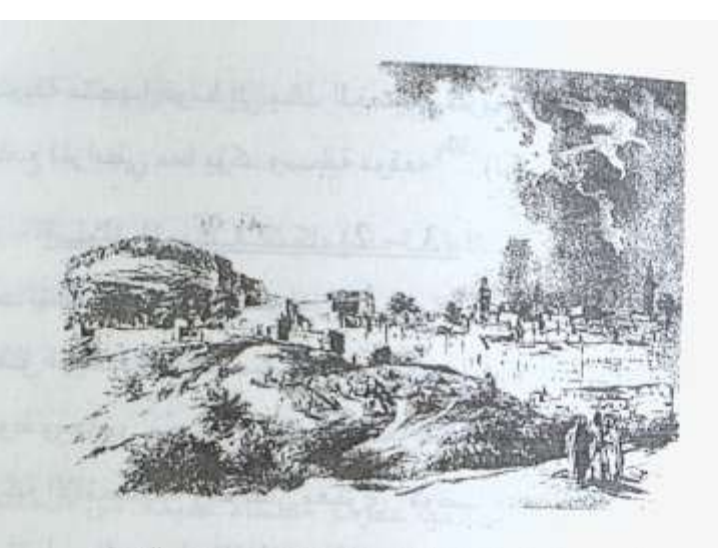
عاصمة دولة مع قيام الدولة الزيانيين وقد أدى تطلب تحول تلمسان إلى عاصمة استقطاب عددا كبيرا من السكان وفدوا عليها استقرارا بها وانتفاعا بخدماتها مما تطلب توسيعها وبناء مؤسسات جديدة،وقد شرع في القيام بتلك المهمة مند عهد مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان فقد قام ببناء قصر المشور أو قلعة المشور في الناحية الجنوبية من المسجد ليكون سكنا له ولأهله ومقرا لدواوينه وأمواله خصوصا وأن دار الإمارة المرابطية التي استقر بها في بداية الأمر ضاقت به وبأسرته وحاشيته وخزائنه ولم تعد قادرة على أن توفر له الهدوء والأمن والراحة لازدياد أعباء الدولة والمقبلين عليها ❖❖❖.

شكل (**1** لوحة **1**- **5**)

ولا شك أن هذا الحي المركزي شهد توسعا عمرانيا ومعماريا كبيرا خلال العهد الزياني تدل عليه تلك المؤسسات التي ورد إسمها في النصوص التاريخية وبعضها ما يزال قائما إلى اليوم مثل قلعة المشور جنوب تاكرارت محادية لسور المدينة ومواجهة للمسجد الجامع، ثم مسجد أبي الحسن(بلحسن) الذي يحد هذا الحي المركزي في زاويته الشمالية بالناحية الغربية، وإلى الجنوب من مسجد سيدي بلحسن يقوم مركب سيدي ابراهيم المصمودي الذي يتألف من جامع وضريح يجاورهما المرسة اليعقوبية، وإلى الشمال الغربي منه يمتد مسجد ومدرسة أولاد الإمام،وفي الجانب الشرقي من من وسط

تاكرارت ومواجهة للجامع تقوم المدرسة التاشفينية التي شيدها السلطان الزياني أبي تاشفين عبدالرحمن وإلى الجنوب الشرقي منها المحكمة ودار الحسبة [35]

وقد اشار إلى ذلك التوسع العمراني والمعماري لمدينة تلمسان الزيانية المؤرخ بن خلدون ولخصه في قوله : «ولم يزل عمران تلمسان يتزايد (إشارة إلى الفترات السابقة لبموحدية والمرابطية) وخطتها تتسع، والصروح بها لالآجر والقرميد تعالى وتشاد إلى أن نزل بها آل زيان واتخدوها دارا لملكهم وكرسيا لسلطانهم، فاختطوا بها القصور المونقة والمنازل الحافلة واغترسوا الرياض والبساتين وأجروا خلالها المياه،فأصبحت أعظم أمصار المغرب ورحل إليها الناس من القاصية ونفقت بها أسواق العلوم والصنائع،فنشأبها العلماء، واشتهر فيها العلام،وضاهت أمصارالدول الإسلامية والقواعد الخلافية... » [36]



(I) منظر عام لعمران مدينة تلمسان :قلعة المشور والحي الشرقي

للمدينة أيام الإحتلال

لقد كان مركز المدينة في المدن الإسلامية يتصل بمنافذها الرئيسية اتصالا مباشرا مستقيما أو مائلا أو منحرفا حسب الموقع التضاريسي للمدينة وطبوغرافيتها وذلك عن طريق شوارع رئيسية تمتد من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، وهي سمة تشترك فيها معظم المدن الإسلامية مشرقا ومغربا، وقد خضعت تلمسان لهذه الضوبط من حيث اتصال مركزها بمنافذها تبعا لوضعها من حيث تطورها واتساها ،وأحدها الطريق شرق - غرب المتد من باب العقبة بأغادير شرقا مارا بمحاذات مؤخر مسجدها عابرا باب

السويقة متجها غربا إلى باب الخميس مرورا بالساحة التي تتقدم الجامع المرابطي مما يؤكد وسطية موقعه [37] (لوحة 1- 5)

أسواق المدينة :شكل (2 - 3) لاشك أن الحركة التجارية كانت تتطلب إنشاء الأسواق العامة والمتخصصة ، والأسواق من المرافق العامة والأساسية في المدن الإسلامية، لذلك كانت تخضع لشروط ومعايير محددة في إقامتها تبعا لتطور النظم التجارية واتساع الحركة الإقتصادية وما كان يعتري الأوضاع السياسية من عوامل الإستقرار والهدوء أو القلاقل والإضطرابات، مما كان ينعكس على حياة المدينة وسكانها وحكامها ثراءا أوفقرا [38].

وكانت تلمسان بماضيها وبموقعها ومحتواها البشري وتراكماتها الحضارية مؤهلة لأن تلعب دورا رياديا في الحركة الإقتصادية للمغرب الأوسط بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة،فهي على ما يذكر الإدريسي : «حسنة لرخص أسعارها ونفاق أشغالها ومرابح تجارتها... » [39] ،وكانت الأسواق تنتظم في محيط القسم المركزي للمدينة،وتتصل مباشرة بالجزء الحرفي في تلك المدن لأهميته الإنتاجية لما تتطلبه الشؤون العامة والحياة اليومية لسكان المدن والأرياف، ولا يستثنى في إنتاج القسم الحرفي إلا ما تعارض مع الصحة العامة من المواد التي قد تثير الغبار أو الدخان أو الروائح

الكريهة، فإنها جميعا تبعد خارج أسوار المدينة وتقام في أمكنة تساعد الرياح على إبعاد ضررها [40].

وكانت الأسواق العامة مفتوحة لكل السلع وكل الأقوام والأجناس يفدون عليها من القرى والأرياف ومن المدن البعيدة والبلاد الأجنبية،يروجون السلع ويتاجرون في معظم المواد التجارية إلا ما تعارض منها مع الصحة العامة .

وعرفت المدن الإسلامية عموما أشكالا عديدة من المعاملات التجارية إنتظمت في أماكن عديدة،فهناك تجارة التصدير والإستيراد،تخص فئة محددة ومحصورة في التجار الكبار أجانب ومحليين،الأجانب يجلبون السلع والمواد فيبيعون كما يمكنهم أن يشتروا من الأسواق التي يبيعون فيها، ويمكن في الوقت نفسه أن يكون التجار المحليين تجار مجلبين للسلع لمدنهم، وفي كل الأحوال فإن هذا النوع من التجارة تختص بها طبقة ميسورة ومهنية من التجار، إما توظف أموالها في التجارة أو تقوم هي بنفسها على تجارتها،وتوجه السلع في هذا النوع من التجارة إلى الفنادق والخانات فتعرض وتباع لكبار التجار الذين يصرفونها لتجار التجزئة [41] لتباع في الدكاكين والأسواق المعروفة بالقيصريات، وكان لتلمسان سوقها المعروف بالقيصرية والقيصرية أو القيسرة كلمة تعني القيصر،وهولقب الأباطرة الرومان،ربما يقصد به اهمية السلع المباعة فيه وقيمتها

وفخامتها ،وكانت قيصيرة تلمسان تقع إلى الجنوب الشرقي من الجامع الكبير ،وهو عبارة عن مساحة واسعة يحيطها سور دليل على اتساع تجارة المدينة وكثرة أموالها ،وكان أكثره تخصصا في الأقمشة والمنسوجات، وقد نصب له أبو تاشفين عبدالرحمن(718 . 760هـ / 1318 . 1358م)في حائط من حوائطه ذراعا مغربيا مثبتا تلافيا للغش والمنازعات بين التجار والزبائن[42] إيفاء بالكيل لقوله تعالى : " وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان " . وكان بجوار سوق القيصرية فنادق وخانات عديدة تستقطب التجار الوافدين على المدينة من خارج المنطقة أو من المناطق المجاورة، ومنهم التجار الأوروبيون من بلاد عديدة وخاصة التجار الأسبان من أهل أراغون،الذين كانت التجارة رائجة بينهم وبين تلمسان لدرجة أن خصص لهم فنادق خاصة في وهران وربما في تلمسان أيضا ، كما كانت هذه التجارة تذر أرباحا وفيرة على تلمسان وعلى خزينة الدولة بما كانت تحصله من هؤلاء التجار من ضرائب جمركية قدرت بعشر الواردات، لدرجة أن رضيت تلمسان بتقديم نصف مداخيلها الجمركية للأراغونيين الأسبان [43]، وما يزال كثير من هذه المؤسسات قائما إلى اليوم في حالة من الإهمال مع تخليها عن وظيفتها الأصلية، أو تحولها عنها لوظائف أخرى.

وكان سوق القيصرية يشغل فراغا يمتد اليوم من السوق المغطى للخضر والفواكه شرق الجامع الكبير ،إلى الملحق البلدي لبلدية

تلمسان اليوم المقابلة للجدار الجنوبي الشرقي للجامع والتي كانت تشغلها المدرسة التاشفينية، وقد هدمتها السلطات الإستعمارية في نهاية الربع الثالث من القرن 19م، ومن هناك إلىالحد الشمالي الغربي لفندق المغرب اليوم،ليلتف إلى نهج السلام ومنه إلى مسجد درب مسوفة (الخريط ....).

يلي هذا المركز الكبير للتبادل التجاري،أسواق أخرى مجاورة له في موقع يمتد بين الأحياء السكنية ومركز التبادل الرئيسي،وهو أقل شأنا واتساعا مهمته إعادة توزيع السلع والمواد وزبائنه الرئيسيون سكان الأحياء ثم الغرباء عن المدينة أو القادمون من خارجها من القرى والأرياف، تزودهم بما يحتاجون إليه، وتعرف هذه الأسواق الصغيرة باسم السويقات مفردها سويقة [44] وكان لتلمسان سويقاتها، بل كان لكل حي سويقة خاصة به ودكاكين وحوانيت، إضافة إلى ورش صغيرة تنتشر على مشارف الأحياء تقوم بإنتاج ماتحتاجه المدينة وما تتطلبه القرى والأرياف من مواد مصنعة، ومنها المنسوجات، والأحذية والأحزمة والأثاث وتجهيزات الخيل والنجارة الخفيفة، فضلا عن المواد الغدائية، وكان لأغادير سويقتها [44*]



(2) مخطط مدينة تلمسان: النسيج العمراني والمرافق العام

أسوار تلمسان وأبوابها :تمثل الحماية والأمن هاجسا دائما ومستمرا منذ وجد الإنسان على هذه البسيطة،وكان الإنسان في معرفتة للفلاحة وتزايد المال والثروة

لديه وإنشائه للمدن قد فرض ذلك عليه حماية السكان وممتلكاتهم إحاطة تلك المدن بأسوار دفاعية لرد غائلة المهاجمين وتسهيل عملية الدفاع.

وكانت فكرة حفظ النفس والحياة تسبق الإرتزاق مثلما تشير إليه الآية الكريمة على لسان سيدنا إبراهيم : «رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات » [45] لذلك اعتبر الإسلام بناء الأسوار

وتحصيناتها للمساعدة على حفظ المال والنفس والعرض من مقاصده الكبرى، وأولاها الفقهاء تبعا لذلك اهتماما خاصاوجعلوا بنائها واجبا،ومشاركة سكان المدينة في ذلك لازما باعتبارها تحقق الصالح العام وتدخل في باب الإرتفاق الذي يستفيد منه عامة الشعب،وأوجب ذلك حمايتها والمحافظة عليها وعدم التعرض لها بالهدم والتخريب حتى لو انتفت الحاجة إليها [46].

وعليه فقد أحيطت مدينة تلمسان بأسوار، لاشك أنها بدأت مع اغادير الزناتية أو قبلها مع بوماريا الرومانية،واستمر ذلك مع الأدارسة مثلما توضحه النصوص التي تشير إلى تهديم يوسف بن تاشفين لسورها ثم ندبه الناس إلى إعادة بنائها لاستحالة استغناء مدينة من المدن في العصور القديمة والوسطى عن مثل هذه الأسوار،ونفس التحصين والتسوير الذي حل بمدنة تاكرارت المرابطية الجديدة ليحتضن سورها مدينة أغادير القديمة، وظل الحال على ذلك إلى أن حل الموحدون بالمدينة فازدادت عنايتهم بها وخاصة على إثر محنة بن غانية وما أصاب كثير من أمصار المغرب ومدنه من تهديم وتخريب، فقام الموحدون بكثير من أعمال الترميم والإصلاح والتقوية للمدينة وبنائهم لأسوار جديدة باعتبارها قفل المغرب على حدتعبير الإدريسي [47] وكان ذلك بصفة خاصة في عهد المنصور والناصر على يد الولاة من الأسرة الموحدية مثل :أبو عمران موسى،وأبو الحسن بن

أبي حفص وأبو زيد بن أبي حفص، حتى غدت مدينة تلمسان من أحصن المدن وأعقلها وهذا بن خلدون يذكر ذلك بهذه العبارات : .« وصـــرف ولاة الموحـــدين بتلمـــسان نظـــرهم واهتمـــامهم إلى تحصينهاوتشييد أسوارها،وحشد الناس إلى عمرانها ....ووليها أبي عمران موسى ...فشيد بناءها وأوسع خطتها وأدار سياج الأسوار عليها... ولما كان م نأمر بني غانية وخروجهم من مايورقة ...وكبسوا بجاية فملكوها،وتخطوا إلى الجزائر زمليانة فغلبوا عليهما،تلافى اليد أبو الـسن أمرهبإمعـان النظـر في تـشييد أسوارها،والإسـتبلا غ في تحصينها،وسد فروجها،وأعماق الحفائر نطاقا عليها حتى صيرها أمنع معاقل المغرب، وأحصن أمصاره (48).

وعند ما تحولت تلمسان إلى عاصمة للدولة الزيانية استدعت وظيفتها الجديدة زيادة الإهتمام بها والعناية بتحصينها وتقوية أسوارها، خصوصا وأن الدولة الزيانية في تأسيسها وفي تطورها كانت ملازمة لكثير من التحديات السياسية والعسكرية، وكانت جميع تلك التحديات تستهدف الدولة وترمي إلى القضاء عليها سواء مع الموحدين أو الحفصيين أو المرينيين على السواء، وكان الإهتمام بتلك التحصينات منذ عهد مؤسس الدولة واستمر الأمر مع من خلفه من السلاطين الزيانين(49).

فقد ساهم يغمراسن في تحصين المدينة وتعميرها، إذ ابتنى أجزاء مهمة من الأسوار الغربية،وهي الأسوار التي كانت تتلقى المزيد منضربات المنجنيقات المرينية خلال غزواتهم لها، وإلى ذلك يشير يحي بن خلدون في قوله : « ...أنه في سنة 665هـ/......م أمر رحمه الله(يقصد يغمراسن)بابتناء الأسوار الشاهقة بباب كشوطة»[50] لدرجة أن تواتر في الروايات الشعبية أن تلمسان كانت تحيطها سبعة أسوار، كناية على منهتها وحصانتها،وكانت تلك الأسوار تتخللها أبراج للمراقبة في الأماكن الحساسة من المدينة ومنها :برج الكشاكش على بعد عدة أمتار من وداي متشكانا،وعلى الطريق الموصل إلى هضبة لالا ستي يقوم البرج الذي أطلق عليه في الفترة الإستعمارية برج الأرحاء أو الطاحونة،وإلى الغرب من ذلك وهي منطقة هامة واستراتيجية ويمكن طرقها لإنفتاحها على المدينة، يقوم برج إمامة أو حصن إمامة.

إن متانة هذه التحصينات هي التي منعت أو صعبت في مرات كثيرة إمكانية طرق المدينة أو دخولها وبصفة خاصة على يد المرينين[51].

<u>أبواب المدينة</u> : كانت الأبواب في المدن تفتح بطريقة تحقق مجموعة من الشروط : منها شرط الحماية والأمن بحيث يُجعل لها عوائق

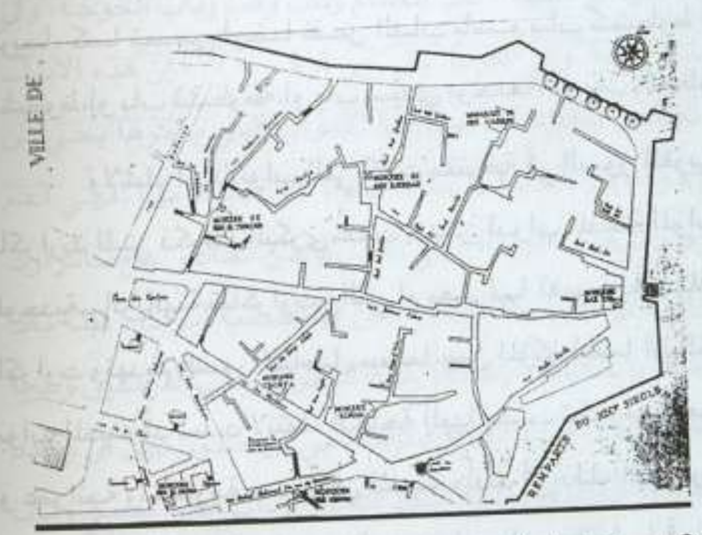
وحواجز تصعب عملية الإقتحام، فضلا عن تمكينها من الحراسة والمراقبة واستخلاص الإتاوات والضرائب على التجارة الداخلة إليها،ويزداد عددها أو ينقص حسب كبر المدينة وكثافة سكانها فيزداد عددها بزيادة كثافته سكان المدينة تجنبا للإزدحام عليها من الخارج والداخل وخاصة الصباح وعند المخاطر.

وقد فتحت في أسوار مدينة تلمسان أبواب كثيرة، أهمها الأبواب الرئيسية، وعددها خمسة أبواب، ذكرها البكري بقوله : «وهي (أي مدينة تلمسان ويقصد بها أغادير) مدينة مسورة... ولها خمسة أبواب،ثلاثة منها في القبلة : باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة، وفي الشرق :باب العقبة، وفي الغرب :باب أبي قرة... »[52].إن هذه الأبواب الخمسة تختص بمدينة أغادير، أما الأبواب التي يذكرها يحي بن خلدون، وهوأعرف بالمدينة لقضائه جزءا من حياته بها، فهي أعم وأشمل وهو يقصد المدينة التي تطورت عن أغادير مع تاكرارت المرابطية والموحدية الزيانية، فيذكر : «أن لها خمسة أبواب : قبلة باب الجياد،وشرقا باب العقبة، وشمالا باب الحلوي وباب القرمدين،وغربا باب كشوطة، وهناك أبواب أخرى ذكرها يحي بن خلدون دون أن يحدد موقعها بالنسبة للمدينة، ومنها :باب اللعب ،وباب أيمن تجمي وباب علي وباب زيري، [53]،وقد ذكر أبو الفدا ثم القلقشندي أكثر من ثلاثة عشر بابا لتلمسان مثلما يذكر ذلك إسماعيل العربي [54] بينما يتعدى

عددها أكثر من ذلك بكثير عند بعض الدارسين ليتجاوز الثلاثين، ولاشك أن ذلك مبالغ فيه لأسباب موضوعية عند من يجهل طبيعة المدينة وشكلها ومساحتها وعدد سكانها قبل الفترة العثمانية وخلالها،ويكفي أن نذكر أن كثيرا من تلك الأبواب تسمت بأكثر من إسم وربما بإسمين أو ثلاثة في عصر واحد أو في عصور متتالية،ويكفي للتدليل على ذلك أن باب كشوط أو كشوطة التي بناها مؤسس الدولة الزيانية يغمراسن بن زيان [55] اتخذت أكثر من إسم فهي نفسها باب فاس التي تقع في مواجهة الباب الشرقي لمدينة المنصورة على مرمى حجر منها والتي لا تبعد عنها إلا بأقل من 300م تقريبا، كما تسمى أيضا نفس الباب باسم باب كشطوط أو باب جشطوط،أو باب قشطوطة،أو باب سيدي بوجمعة، أو باب الجُغليلة [56].

ولاشك أن الأبواب التي كانت مفتوحة في السور الغربي لمدينة تاكرارت التي ذكرها البكري،عدت ضمن أبواب المدينة المرابطية - الموحدية- الزيانية تاكرارت،والتي لم يعد لها أهمية بعد تلأسيس تاكرارت وتهديم السور الفاصل بينهما،ومن المؤكد أيضا أن كثيرا من أبواب المدينة قد سدت لإنتفاء الحاجة إليها بسبب تطورات ديموغرافية أو عمرانية ومعمارية حدثت في المدينة وأدت إلى ذلك التغيير ولكنها ظلت متداولة في الأفواه دون أن يصاحبها حذف لها في الذاكرة الشعبية،مما أدى إلى ذلك الخلط في عدد الأبواب.

وإذا ما حاولنا تحديد أبواب تلمسان تحديدا دقيقا، يمكننا الرجوع لبعض الدراسات أو الرحلات المتأخرة التي عاينت المدينة ووصفتها، ويأتي في مقدمة ذلك القس بارجيس الذي زار المدينة في حدود 1840م، وهي الفترة التي تمكنت فيها فرنسا من التوغل في مناطق تلمسان والإستيلاء على المدينة التي لم تكن قد تعرضت بعد للتهديم والتغيير على يد الإدارة الإستعمارية [57]، وأشار إلى عدد مماثل من أبواب المدينة يكاد يطابق العدد الذي ذكره يحي بن خلدون، وهو ما يؤكد صحة معلومات بن خلدون ودقتها.



(3) عمران تلمسان الحي الشمالي الشرقي القديم من المدينة وسوره

أحياء تلمسان ودروبها :شكل 1- 5)

من الميزات الأساسية للتنظيم في أي مدينة إسلامية هي تقسيمها إلى أحياء سكنية تشغل حيزا محصورا ومحددا في المحاور المخصصة للسكان فيها، وتتكون هذه الأحياء من وحدات سكنية متلاصقة ومتجاورة على شكل منازل تختلف في حجمها واتساعها باختلاف عدد شاغليها.

وكان التخطيط المادي للمدينة يتكيف مع توزيع سكانها من حيث القرابة والتجانس أو العصبية،وذلك تسهيلا لعملية التكيف الإجتماعي وسرعته وسهولته ويسر إدارة الحياة بين السكان والتقليل من النزاعات بينهم، وقد تطور هذا المفهوم مع تطور المجتمع الإسلامي وتعدد أجناسة وأقوامه، فإذا كان الأمر يتعلق في عهد الرسول الكريم بالتخطيط وفقا للعصبية القبلية ومحاولة تفتيت الروح القومية وإذابة العصبية القبلية ليحل محلها العصبية للدين وللإسلام فقط، فإن العصر العباسي على سبيل المثال،إعتمد التوزيع فيه على التباين بين القوميات لكثرة الشعوب التي كان يتألف منها المجتمع الإسلامي وما تبع ذلك من صراع القوميات لجأت الخلافة العباسية فيه في عهد المعتصم إلى إقصاء العنصر العربي والفارسي لإحلال العنصر التركي محله، وهو سبب أدى إلى تأسيس مدينة سامرا لتكون مدينة بمثابة حي كبير للخليفة وأتباعه من الترك .[58]

وقد احتفظت المدن الإسلامية في المشرق والمغرب بهذه المبادىء في التخطيط المادي للمدينة وفي التوزيع السكاني لأحيائها، وهو ما يتضح في أسماء بعض أحياء مدينة تلمسان، كحي مسوفة في الجزء الشمالي الشرقي من مركز المدنة المرابطية تاكرارت، والمعروف أن مسوفة هو إسم لإحدى القبائل الرئيسية التي كانت تشكل القوى المرابطية (59) والتي لعبت دورا مهما في التاريخ المرابطي .

وتشغل الأحياء السكنية في مدينة تلمسان المساحة المحصورة بين حي الإنتاج الحرفي والأسوار الخارجية للمدينة، ويحتل أكبر مساحة فيها،وقسم إلى حارات أو حومات بالتعبير الشعبي، وتسمت بأسماء مختلفة إما نسبة لحرفة كحارة باب الحديد أو حارة باب الصباغين،أو لجهة كباب سيدي أبي مدين أو باب سيدي الحلوي،أو تسمت الحارة باسم عالم أو فقيه كحارة باب علي وحارة باب سيدي اليدون أو سيدي الجبار أو أولاد الإمام أو سيدي زكري أو الوزان، أو لقبيلة كحي مسوفة وحي ملالة،أو لفئة من المجتمع كحارة اليهود.(60)

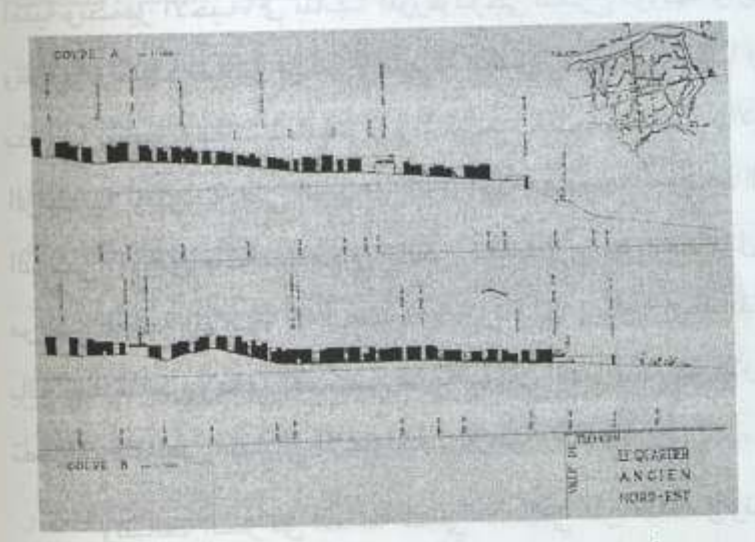
ويطلق إسم الدرب في الأحياء السكنية على على الشوارع الواقعة بين الوحدات السكنية، وعادة ما يقطع الدربَ أزقةٌ تغلقها أبواب عند غروب الشمس وتفتح عليها أبواب المساكن الكتقابلة أو المنحرفة عن بعضها.كما كان الدرب في أوله يغطى بغطاء أو سقف خشبي من خشب صلب متين يقوى على حمل مايعلوه من بناء بحيث

بشكل سقيفة يمكن العبور من أعلاها والإحتماء تحتها من تغيرات الطقس صيفا وشتاء.[61]

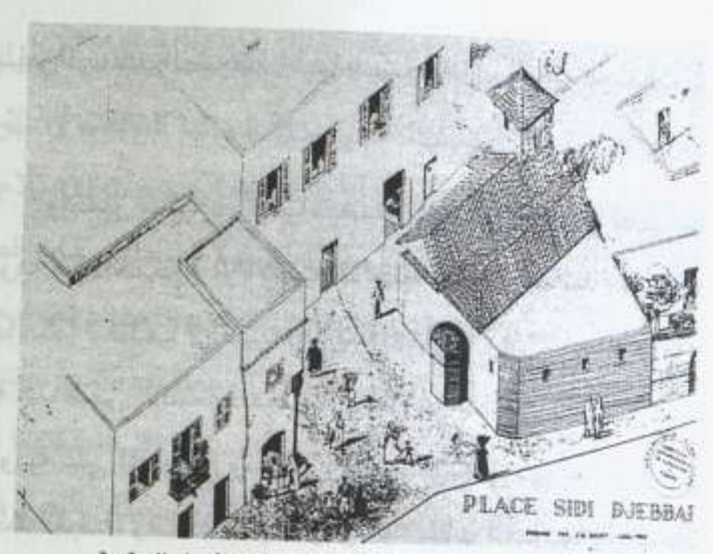
اما من حيث البناء الهيكلي لهذه الأحياء فهي تختلف من حي إلى آخر،وتتخذ شكلا أشبه بخلية النحل على هيئات عديدة،كهيئة العمود الفقري أو النوع الهامشي منها،أو الخلية الحدية، وهي أشكال لأحياء تتكرر خصائصها في المدن الإسلامية بصفة عامة، ولها مثيلاتها في مدينة تونس الحفصية، وللغلم فإن حيز الأحياء السكنية يتصل بحيز الأسواق بواسطة أبواب تغلق في الليل لأسباب أمنية،وتتميز الأحياء في بنائها المورفولوجي بتعرج دروبها وأزقتها وطرقها،ولكنها تتصل بيسر وسهولة بالطرق الرئيسية فيها وهي بدورها تتصل مباشرة بالشوارع الرئيسية للمدية المتصلة بالأبواب الرئيسية المفتوحة على الجهات الجغرافية الأربعة.[62] رتبط الحي السكني بمرافق عامة تشخص مجاله الحضاري ،بل نجد لكل حي مرافقه العامة المتصلة به مباشرة والملازمة له، ولكنها أيضا تتصل بالحي الإنتاجي وهفها الأساسي خدمة سكان الحي بالدرجة الأولى ثم تصريف الفائض منها إلى الإحتياجات الريفية والقروية.

وتتألف المرافق العامة للحي السكني من عناصر رئيسية أربعة كلها في خدمة سكان الحي، وهي وقفا عليهم :

ساحة عامة :وهي مربعة أو مستطيلة أو شبه منحرفة،يوصل إليها من الشارع الرئيسي الذي يشق مجموع الأحياء في قسم أو جهة من المدينة، وتستغل هذ الساحات في إتصال السكان ببعضهم لأسباب مختلفة واجتماعهم فيما بينهم، فهي صلة الوصل بين السكان في مجال الأخبار والمعلومات والتداول في القضايا المتعلقة بالحي والسكان، وبقدر ما تبدو الأحياء مستقلة بذاتها في مجال مؤسساتها فهي متصلة بببعضها بواسطة أبواب مفتوحة مما يجعل اللاحم بين السكان قويا سواء كان هؤلاء السكان ينتمون إلى قبيلة واحدة لأو فئة واحدة.



(4) مدينة تلمسان : مقطع للحي الشمالي الشرقي القديم

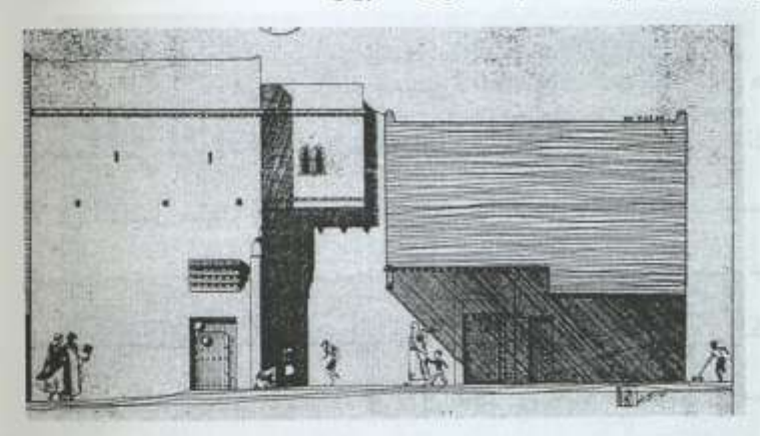


(5) ساحة حي سيدي الجبار نموذج لساحلا الأحياء السكنية

مسجد الحي: وهي مساجد صغيرة للصلوات الخمسة دون صلاة الجمعة التي تجرى في المساجد الجامعة، وهي لذلك تخلو من الوآذن إلا في القليل منها كمسجد سيدي السنوسي بحي درب مسوفة، ومسجد درب باب زير، ومسجد حي أولاد الإمام ومسجد حي سيدي اليدون،ويختلف موقع المسجد في الحي من حي إلى آخر، ولكن في معظم الأحيان يتخذ موقعا له في أول الحي وبدايته ملاصقا أو مجاورا لساحة الحي كمسجد حي باب زير ومسجد حي سيدي الجبار ومسجد حي سيدي اليدون، أو على مسافة منها إلى الداخل كمسجد درب مسوفة، ومسجد حي القران الكبير ومسجد حي القران الصغير

المجـاور لـمسجد الـشرفاء ، أمـا مـسجد درب الـصباغين فيقـع وسـط الدرب.

وتتميز مساجد الأحياء بصغر حجمها وعدم إنتظامها أحيانا وخلوها من الصحون أو الأفنية الداخلية إذا ما استثنينا مسجد سيدي البنـاء،كما تختلف في تصميماتها المعماريـة،وهي تخضع في ذلك إلى ثلاثة أنماط من الأنظمة المعمارية : الأول/ النمـط المديني ذي البلاطات العمودية على المحراب، والثاني/ النمط الشامي ذي البلاطات الموازية لحـائط القبلـة، والثالـث/ يخلومن البلاطـات العموديـة والأفقـية، فهو مغطى بقـبة أو أقبية كمسجد القران الكبير .



(6) كتل وواجهات منازل الأحياء السكنية

حمام الـحي : وهو من المرافق العامة للحي، لا يكاد يخلو حي من حمام لأهميته في الـصحة العامـة والنظافـة اليوميـة والأسـبوعية، وقد

أورد بعض المؤرخين أعدادا ضخمة من الحمامات في المدينة الواحدة، ولكن تلك المبالغة إن كانت كذلك فهي تدل على ما للنظافة في الإسلام وعند المسلمين من قيمة ،ويبدو الأمر طبيعيا مع حث الإسلام على النظافة والطهارة التي لا تجوز الصلاة إلا بها ،وبالتالي فإن الطهارة والوضوء، الأكبر والأصغرأساسيان في إتمامها حتى أصبح ذلك سلوكا عاما لدى المسلمين يقبلون على الحمامات بكثرة ويترددون عليها باستمرار لا لوظيفتها الدينية والصحية فقط ولكنها أيضا باعتبارها مكان التلاقي والإتصال بين الناس وسكان الحي الواحد إضافة إلى نقاط التجمعات الأخرى.

وحمامات الأحياء صورة مصغرة للحمامات الكبرى الرئيسية في المدينة، وكانت تلمسان تشتمل على حمامات كثيرة ذكر أحدها لبكري في معرض حديثه عن أبواب المدينة، بقوله محددا موقعها : « ولها (أي لمدينة تلمسان) خمسة أبواب، ثلاثة منها في القبلة : باب الحمام وباب وهب وباب الخوخة... » [63] وفي العهد الزياني يشير العبدري إلى أهم الحمامات فيقوله : « ...وبه حمامات نظيفة ومن أحسنها وأوسعها وأنظفها حمام العالية وهو مشهور قل أن يرى له نظير... » [64] كما يشير حسن الوزان إلى أنه بمدينة تلمسان عدة حمامات، غبر أنه لم يورد تفاصيل حولها [65] ولا شك أن الحمامات التي ذكرها هؤلاء الرحالة هي الحمامات العامة في الشوارع الرئيسية

والساحات العامة في القسم المركزي من المدينة أو على حوافه ، وهي المؤسسات الصحية التي يتمكن الغرباء وأبناء السبيل من ارتيادها دون حرج ، أما حمامات الأحياء لفإن ارتياد الغرباء لها يكون برفقة من أهلها.

ولم تكن المنازل تحتوي على حمامات إلا في القليل النادر وإن وجدت فهي في منازل الأثرياء من الدور والقصور لأنفة هذه الطبقة من الإختلاط بعامة الشعب لإخلالهم بشروط الحياء [66].

أما من حيث التصميم العام للحمامات فيكاد يكون متطابقا، فالتصميم يتكون من من مدخل وقاعة انتظار هي الحجرة الباردة أو حجرة خلع الملابس والراحة في آن واحد قبل الإستحمام وبعده، و بعد ذلك تأتي الحجرة الدافئة التي تصطف حول جدرانها جلسات تتوسطها أحيانا نافورة، وتكمن أهمية هذه الحجرة في الحفاظ على صحة المستحم من حيث تدرج جسمه في تلقي موجة البرودة والحرارة حفاظا على صحته،وبعد الحجرة الدافئة تأتي الحجرة الحارة أو الساخنة ،حيث يتعرق فيها المستحمون ويغتسلون.

وما تزال إلى اليوم تلك الحمامات المجاورة أو الملاصق للأحياء السكنية تقوم بوظيفتها، مع تغير في الوسائل والتجهيزات حيث أُدخل عليها الحديث منها تبعا لتطور الحياة وتجددها، إذ نجد ذلك في

الحمام المقابل لمسجد سيدي السنوسي والمواجه لمدخل درب مسوفة الذي يتخذه المسجد قاعدة له.

وهو نفس ما يقال بالنسبة لحمام درب باب زير، فهو يقع إلى الجنوب الشرق من مسجد الحي خلف مقهى النخيل اليوم، وكذلك حمام درب سيدي الجبار المتفرع منطريق أو شارع بني زيان، فحمامه يتخذ مكانا له بجوار المسجد، أما في حي أغادير فإن حمامع يقع خلف الجامع ويرجح أن من الحمامات الرئيسية للحي حين كانت أغادير هي عاصمة تلمسان، وهو في ذلك أشبه بحمام الصباغين أو حمام العالية الذي ذكره العبدري أو حمام سيدي لحسن.

مرافق الإنتاج والتوزيع: ونقصد بها الحوانيت والدكاكين، ويختلف كل منها عن الآخر في الحجم والتصميم والوظيفة .فالحوانيت أكبر حجما من الدكاكين وأبوابه تنفتح نحو الخارج عكس الدكاكين الأكثر صغرا وأبوابها تنفتح إلى الداخل أو إلى الأعلى لتتحول إلى شبه ظلة يستفاد منها في الوقاية من الأمطار شتاء والحر صيفا، ومن حيث التعامل، يتم ذلك في الداخل بالنسبة للحانوت ،وأمام العتبة بالنسبة للدكان.

أما من حيث الوظيفة فإن الحانوت يشترك بين الإنتاج والبيع أو تصريف السلع، أما الدكان فيقتصر على عرض السلع وبيعها فقط

ولذلك فإن الحوانيت يمكن أن تطل أو تشرف على الدروب النافذة أما الدكاكين فلا يشترط فيها ذلك.

ومهما يكن فإن الصميم العام لهما يتخذ الشكل المربع أو المستطيل، ولا تتجاز مقاسات واجهة الحوانيت 2م إلى م2.5م طولا × 3م إلى 4م عمقا بينما تقل مقاسات الدكاكين عن ذلك قليلا ولم يكن التجار والحرفيين يتخذون من هذه الحوانيت والدكاكين سكنا لهم،فقد كانت تغلق ليلا ويتداول العسس على حراستها.[67]

فرن الخبز أو الكوشة : وهو من المرافق العامة التي لا تخلو منها سويقة أو ساحات الأحياء السكنية لأهميتها في تلبية المتطلبات اليومية لسكان الحي من حيث إعداد الأسر للخبز والأرغفة والعجائن في البيوت وحمله للطهي في فرن أو مخبز الحي وهي ظاهرة حضرية عامة في المدن الإسلامية، فتونس الحفصية كانت تزخر كتلمسان وفاس بأفران الخبز [68] والفرن أو المخبز من المعايير الحضرية للمجتمع الحضري ، فلم تكن مدينة من المدن الإسلامية تخلو من عدد مناسب منها، يتوافق مع عدد سكانها، وتتوزع الأفران على أحياء المدينة بما يتفق مع عدد الأحياء وكثافتها السكانية.

مساكن تلمسان :شكل6- 9)

يحيط الغموض بطبيعة العمارة المدنية من دور وقصور فمصطلح المسكن أو الدار اوالقصر : مصطلح يختلف في لفظه

واشتقاقه اللغوي ولكنه يتشابه ويتطابق في نظامه المعماري ونمطه التخطيطي،وإن اختلف هذا عن ذاك فذلك في التفاصيل والحجم والمستوى لفني والزخرفي، بناء على ثراء صاحب المبنى أو قلة ثرائه ببلاد المغرب قبل القرن 10هـ/ 16م، بما فيها عمارة مدينة تلمسان. والواقع أن لفظ الدار يطغى في الإستخدام حتى على القصور أحيانا،فالسلطانين الزياني أبي تاشفين عبدالرحمن، والمريني أبي الحسن كلاهما ابتنى قصورا في تلمسان سميت دورا، فيحي بن خلدون يتحدث في ذلك عن أبي تاشفين عبدالرحن بقوله : « أنه كان مولع ببناء الدور وتحبير القصور وتشييد المصانع واغتراس المنتزهات مستظهرا على ذلك بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم... » [69]،وهو ماتميز به أبي الحسن في تلمسان وتفوق فيه في مدن المغرب الأقصى وخاصة مدينة فاس، إذ يشير بن مرزوق إلى بعض الأعمال التي قام بها السلطان المريني في تلمسان خلال احتلاله لها بقوله : «...وأما قصرها (أي منصورة تلمسان) ومسكن الإمام بها ...فقد أجمعمن رىهما :أن الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره...وأما دار الفتح والبستنة وما اتصل بهما والمشور فما أظن المعمور اشتملعلى مثلها... » ويواصل بن مرزوق على لسانه في موضع أخر قوله في اختيار مسكن لزوجته الحفصية المنتظر وصولها إلى منصورة تلمسان وقد أزفت إليه : « ... دخل ودخلت معه نتمشى لينظر لها في دار

تختص بها فلما تطوف على الدور قال لي : » والله ما هم من النظر ...بهذه الواردة أن تسكن في دار سكنها غيرها ...) [70]

غير أن الظواهر العامة التي تتحكم في طبيعة الدور وكيانها متشابهة في العالم الإسلامي لخضوعها لنفس القيم الدينية والمعايير الإجتماعية والأخلاقية والتي انعكست انعكاسا طبيعيا على نمط المساكن من حيث تخطيطها وتركيبها المعماري وإن اختلفت في التفاصيل بين منطقة وأخرى، وهوما يمكّن البحث من المقاربة مع الإطار العام للموضوع.

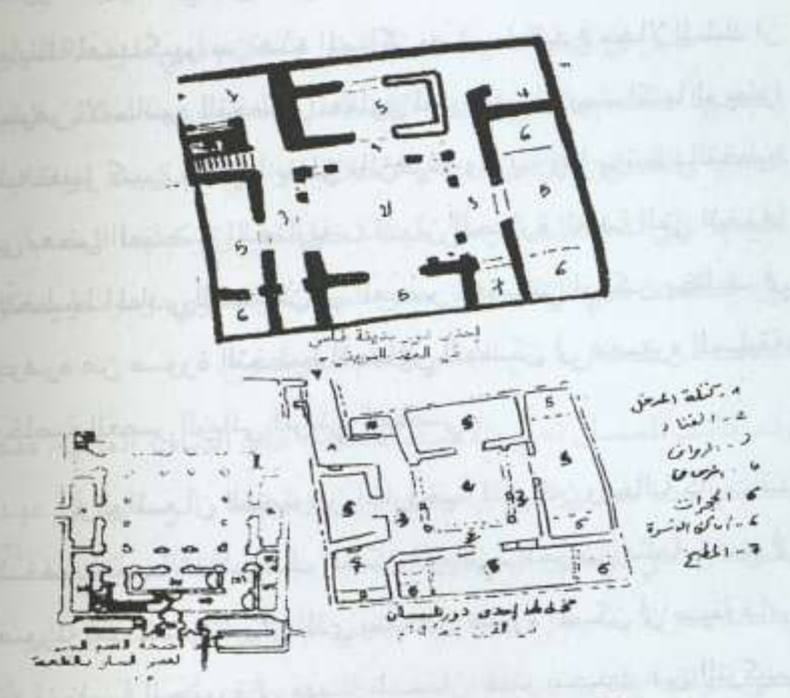
وقد كانت تلمسان تعج بالأحياء السكنية ذات الكثافة العالية، فقد أحصى بها حسن الوزان، وهي في أوج قوتها واتساعها في عهد السلطان أبي تاشفين عبدالرحمن، ما يربو عن 16 ألف كانونا [71] ويقصد منزلا، بما يعني عددا من الأنفس القاطنة داخل أسوار المدينة وعلى حوافها يقترب من المائة ألف نسمة ،وهو عدد كبير في مدينة لا يتجاوز سور محيطها أربعة كيلومترات،مما يدل على مكانتها وأهميتها وازدحامها .

غير أن مساكن هذه الأحياء يشوبها الغموض من حيث تصميمها المعماري وتخطيطها المادي،ذلك أن المدينة جرى عليها من عوائد الزمن، واعتداءات الإنسان وجوره وتدخله لتطوير والتغيير بما يتفق وتطور الحياة الإجتماعية والأسرية من حيث تجدد المواد وازدياد

عدد سكان الأسرة الواحدة، وبالتالي فإن المساكن الحالية هي صورة التطور الكبير الذي أتى على مظاهر الحياة وتجددها، ومع ذلك فإن معاينتنا لعدد كبير من هذه المساكن بين بما لايدع مجالا للشك أن الجوهر الأساسي للتخطيط المعماري لدور تلمسان ومساكنها لم يطرأ عليه تغيير كبير، إلا فيما يتعلق بالزخرفة والزينة وما يرتبط بالتخطيط من بعض العناصر المعمارية، ذلك أن الصورة العامة التي اتخذها التخطيط المادي للمساكن في العصر العثماني لم يكن يختلف في جوهره عن صورة التخطيط المعماري للمسكن في عصوره السابقة، وخاصة العصر الزياني المريني الحفصي.

والواقع أن النصوص التاريخية لمؤرخين ورحالة كانت قد شخصت طبيعة تخطيط ذلك المسكن الزياني. المريني مثلما يتضح في صورته عند حسن الوزان الذي يشخص صورة المسكن في مدينة فاس وهي نفس الصورة في مدينة تلمسان، فهو يتحدث عن التركيب العمودي للدار فهي: «...تتألف كلها تقريبا من طابقين وفي كثير منها ثلاث طبقات في كل طبقة شرفات...»،وتنتهي هذه الطبقات في أعلاها بغرف للراحة وتغيير الجو مثلما يذكر: «... ومن عادتهم أن يبنوا على سطوح المنازل متنزها يشتمل على عدة حجرات فسيحة ومزخرفة جدا... تتسلى فيه النساء عندما يتعبهن العمل،

إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها... ».[72] شكل (7- 8)



(7) نماذج لمخططات معمارية لدور فاس وتلمسان

أما التكوين الأفقي لها عنده فيظهر في تخطيطها المعماري وهي تتكون من «...ساحة مكشوفة والحجرات قائمة في كل جوانبها...»«ويحيط بالساحة المكشوفة أروقة، » وجميع الأروقة في هذه الدور قائمة على أعمدة من الآجر...وترى في البيوت أعمدة

من رخام... » وتشرف الأروقة في هذه الدور على الصحن بعقود محمولة على أعمدة » ...والعناصر [العقود] الموضوعة بين الأعمدة لتحمل الطبقات العليا مصنوعة من خشب... » و »...يوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة... في كل جانب [منه] سقايات منخفضة... ويعتنى بالصهاريج دائما لتبقى في غاية الصفاء والنقاء ولا تستعمل إلا في الصيف حيث يستحمون فيها رجالا ونساء وأطفالا... » .[73]

أما صورة الدار المغربية عند العمري فهي صورة عامة غير مفصلة مثلما هي عليه عند حسن الوزان، بل هي مكملة لها، وخاصة فيما يتعلق بزينتها وزخارفها [74].

هذه هي الصورة التي تركها حسن الوزان عن المنازل الفاسية في أوائل القرن 10هـ/ 16م، وهي في الواقع صورة تتفق مع صورة المنزل الفاسي والتلمساني في أوائل القرن 8هـ/ 14م والتي يمكن استخلاصها من مختلف النصوص التي استعرضناها، وهي صورة تتألف من مخطط موحد، عبارة عن صحن حوله حجرات تشرف عليه، وأمامها فسقيات فيها مياه تجري بحوض يحتل وسط الصحن هو الصهريج، وهذه الصورة هي صورة عامة للمنزل الفاسي والتلمساني، تضاف لها ملحقات وتفاصيل معمارية وفنية زخرفية وفقا للمكانة الإقتصادية الإجتماعية والثقافية للفرد

وهـو الإخـتلاف الأساسـي بـين منـازل البـسطاء و منـازل الحكـام والأثريـاء من أهل المدينة.

ويـمكن مقارنـة هـذه الـصورة للمنـزل الفاسـي والتلمساني الـتي أوردتـها هـذه المـصادر مـع مـا تمدنـا بـه الـشواهد الأثـرية، والدراسـات المعمـارية القائـمة فيـها علـى التـشخيص الميدانـي والدراسـة العملـية وخاصـة مـا يتعـلق بالمـنازل الزيانيـة في مدينـة تلمسان.

وبداية فإن منازل تلمسان في أحيائها،تنتظم في حائطي الدرب بطريقـة تتـوزع فيهـا علـى هيئـة ثـلاث أو خمـس وحـدات : وحـدتان متتاليتان فوحدة بالحائط المقابل، أو ثلاث وحدات فوحدتان، ثلاثة منها متتاليـة ووحدتين تواجههـا في الحـائط المقابل.هـذا النظام في توزيـع المساكن يعدُ مظهرا عاما، ولكنـه ليس قاعدة ثابتـة فالتوزيع يخضع لإمتداد الدرب أو قلة امتداده ، وقد شهدت المساكن كثيرا من التغيير والتشويه على امتداد الزمن ،فعملية التأهيل الوظيفي للمسكن بسبب التطور المستمر للحيـاة جعـل كـثير مـن العـائلات تلجـأ أمـام الفقـر وصـعوبة البنـاء ومـشقة الحـصول علـى شقـة إلى التغيير في المسكن ليتلاءم مع أفراد العائلةالجدد، وهـو مـا أدى إلى تغيير شـامل وخاصـة التغيير الداخلي في كثير من المساكن في جل الأحياء.

تتشابه معظم دور تلمسان في مظهرها الخارجي من حيث ظهورها ككتلة صماء لا أثر لعلامات التقسيم الداخلي، كما تبدو بسيطة عادية لا أثر للفن والزخرفة فيها .وتشترك في ذلك دور الأثرياء والفقراء على السواء،إلا من بعض العناصر المعمارية البسيطة، كبروز طنف الداخل على شكل ظلة،أو وضع ظلة خشبية تمتد مع امتداد عتب الباب العلوي.ويمكن أن يلاحظ ذلك في بعض المساكن بدرب مسوفة.

إن التشخيص الذي سوف نتناوله في هذه الدراسة يُعدُ تشخيصا عاما تتفق معه معظم دور تلمسان، ولم نلتفت للإستثناءات التي يمكن العثور عليها في قلة من الدور الأخرى.

فالدار التلمسانية هي دار إسلامية الجوهر والمعيار،نجد مثيلاتها في جميع المد ن الإسلامية القديمة وفي كل مساكنها ما لم تتعرض الدار للتغيير والتشويه.

ومن المساكن التي عايناها في هذه الدراسة مسكن بدرب مسوفة ودار غانم فيه، ومجموعة من المساكن في حي باب زير مشرفة على طريق بني زيان الذي هدم عمدا في سنوات الألم الذي أصاب أمتنا في عشرية الدماء والدموع، فضلا عن أمثلة أُخرى في درب سيدي الجبار وأخرى في درب القران الكبير والقران الصغير.

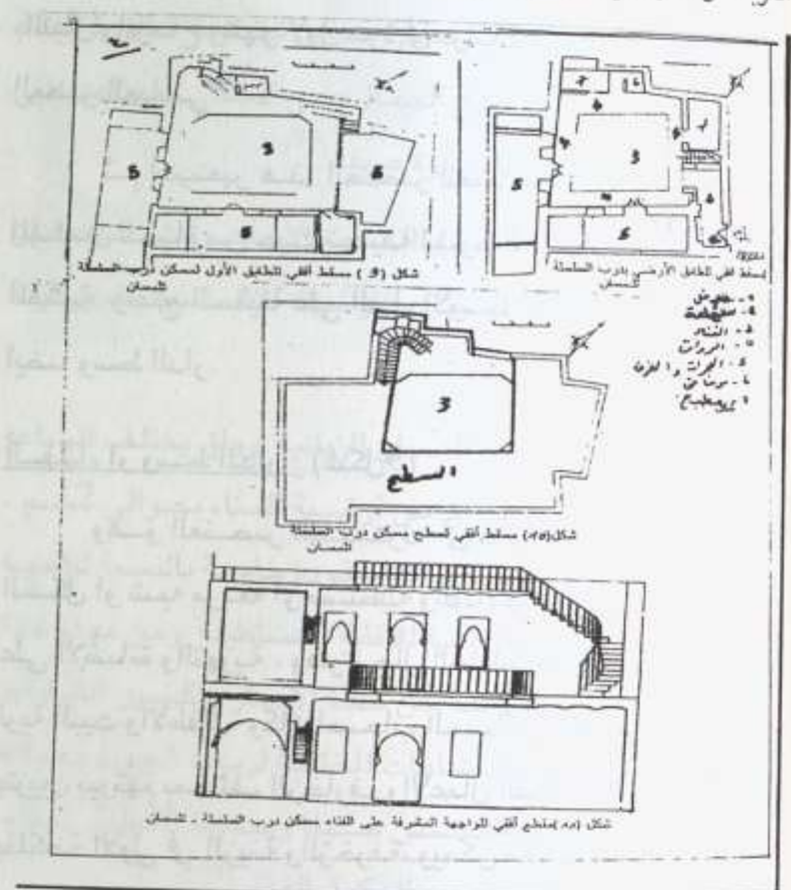
ويمكن تقسيم المسكن عموما في تصميمه الأفقي إلى ثلاثة أقسام، يتألف كل قسم من عناصر ذات وظيفة محددة،ويمكن إجمالها

في : كتلة المدخل و الفناء الأوسط و وحدات التوزيع الداخلي حوله ، أما تركيبه عموديا ، فإن معظم هذه البيوت تتألف من طابق أرضي يليه طابق علوي.

كتلة المدخل : يفتح المسكن التلمساني على الدرب أو الزقاق بمدخل بسيط عبارة عن فتحة معقودة بعقد حدوي أو منفرج بارز عن إطار الباب الخشبي أو متراجع عنه أو من غير عقد، وشكل الباب من خشب صلب يتألف من ضلفة واحدة أو ضلفتين،فإن كان من ضلفة واحد فتحت فيها خوخة ، وهي عبارة عن باب صغيرة يولج منها شخص واحد في وضع منحني،وقد أُلصقت بمنتصف ضلفة الباب مطرقة أو مطرقتين إحداهما كبيرة والأخرى أقل حجما من الأولى.ويعلو الباب عتب خشبي أو حجري أورخامي، وينتهي الباب في أعلاه بطنف بارز يقوم بحماية المدخل من عوامل الطقس.

يؤدي المدخل إلى ردهة مربعة أو مستطيلة تستقبل ضلفتي الباب في انفتاحها،يلي ذلك ممرا منكسرا عبارة عن سقيفة تتألف من انعطافين يمتد الأول من الباب مباشرة ويمتد الثاني من انكسار العطفة الأولى إلى باب الولوج إلى الفناء الأوسط.وتقوم جلسة أو أكثر في السقيفة في الإنعطاف الأول،وذلك بالحائط المعاكس(المقابل) لضلفة الباب.إن هذا النوع من المداخل هو المعروف في العمران الإسلامي بالمدخل المنكسرة ويسميه المؤرخون العرب الباشورة، [75] وقد فرضته

طبيعة المجتمع الإسلامي وقيمه الدينية من حيث احترام حرية الأفراد، وتقديس أسرار الأسرة بإخفائها عن العيون المتطفلة، وعن عيون الغرباء من المارة في الأزقة والدروب



(8) مخططات عامة ومقاطع لدر مدينة تلمسان

وقد استخدم هذا النوع من المداخل في بداية الأمر في العمارة العسكرية بهدف إعاقة المهاجمين من الوصول بسهولة ويسر وفي وقت قصير إلى الداخل وتمكين المدافعين من جانب آخر من التعرض لهم بالنبال والرماح وظهر لأول مرة في بوابات مدينة بغداد المستديرة في العصر العباسي [76].

ثم استعير هذا العنصر للعمارة السكنية لمواءمته لرؤية المسلمين للحياة من حيث تحقيقه لشرط الحفاظ على أسرار الأسرة المسلمة. وتفتح السقيفة على الفناء الأوسط أو الصحن، كما يطلق عليه أيضا وسط الدار.

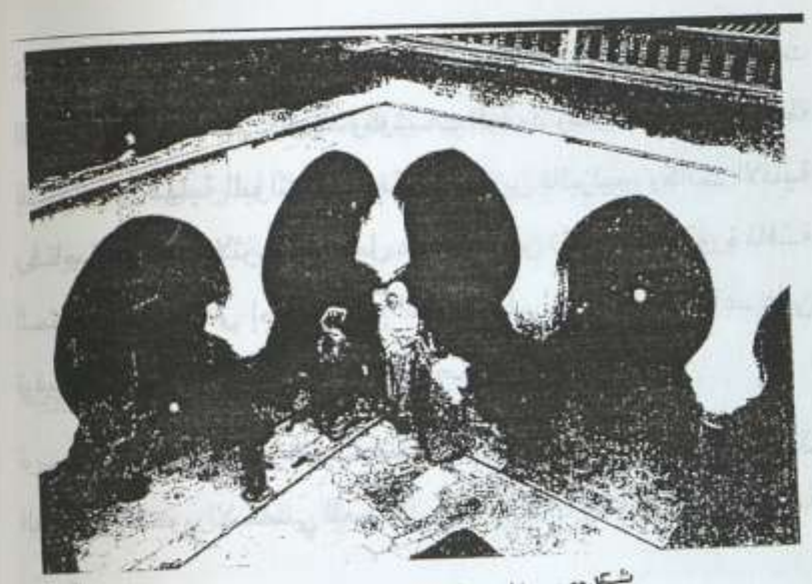
الفناء أو وسط الدار : (شكل**9**)

وهو العنصر المشترك في هذه الدور،وأفنيتها مربعة الشكل أو شبه مربعة أو مستطيلة والفناء مفتوح على الفضاء يساعد على الإضاءة والتهوية ، وهو مجال النشاط العائلي وخاصة بالنسبة لربة البيت والأطفال، وكان أصحاب المساكن التقليدية قديما يهتمون بتزيين بيوتهم بمختلف الزخارف والأعمال الفنية، وكان الفناء يحضى بالمكانة الأولى في الزينة والزخرفة، ويمكن ملاحظة خلو المساكن من الخارج من أي مظهر من مظاهر الزينة والزخرفة بحيث يبدو بائسا، ولكن ما إن تتخطى قدم الإنسان عتبة الباب حتى يُفاجأ بمدى الرونق والجمال بداخله، فقد كان الإنسان .

في السابق يعيش ويتمتع داخليا وليس للخارج، إذ كانت الحوائط المشرفة على الفناء وكوشات العقود وسوالفها والأشرطة الدائرة حول نهاية البوائك المشرفة عليه تزين بالزليج، وكانت الأفنية وخاصة في دور الأثرياء تشتمل على حوض تتوسطه نافورة نافثة للمياه مما يزيد في إضفاء روح الجمال على المكان ويساعد على توفير الرطوبة وتخفيف حدة الحرارة صيفا [77].

وإذا كان جدارُ القبلة هو المحور الأساسي للمسجد فإن الفناء هو المحور الأساسي للمسكن، فهو نواته الأساسية بناء ووظيفة وزينة.

الرواق: يحيط بالفناء في دور تلمسان الزيانية رواق يختلف اتساعه من دار إلى اخرى،ويرتفع الرواق عن أرضية الفناء بحوالي 2سم ، ويشرف الرواق على الأفنية ببوائك معقودة خاصة بالنسبة للأفنية المربعة وربما تجاوز ذلك بالنسبة للأفنية المستطيلة ،ومن مهام هذا الرواق في المساكن التخفيف من حدة الإبهار وتكسير التيارات الهوائية وتسهيل القيام بالنشاطات المختلفة لربات البيوت وحركة الأطفال بعيدا عن أشعة الشمس صيفا وسقوط الأمطار شتاء، والرواق بهذا يُعدُّ المجال الحيوي المكمل للفناء [78].



شكل-45- فناء مسكن من مدينة تلمسان

(9) منظر مجسم لأحد أفنية دور تلمسان

المستوى بين الطابقين الأرضي والأعلى :ويشغله الدرج الصاعد إلى الطابق الأعلى المتصل بالفناء والرواق المحيط به، ويختلف موقعه، ويصعد لا إلى طابق علوي ولكن لغرفة علوية قد تكون مخزنا للمواد الجافة أو الصلبة أو السائلة، وقد استغلت بعض الفراغات في المساكن الأخرى لوضع المراحيض،ويشغل هذا المستوى عادة فراغات وحجيرات صغيرة لاستخدامات ثانوية [79].

الحجرات : وتحيط الحجرات بالفناء من جهاته الأربعة، وأبوابها مفتوحة على الرواق بمنتصفه وبطريقة محورية مع بعضها، وعقدت الفتحات بعقود حدوية ،وتتخذ الحجرات شكلا مستطيلا تختلف مساحته من دار إلى أخرى مع إدخال بعض التعديلات على بعض الحجرات في معظم المساكن لكي تستجيب لمتطلبات سكانها وحاجتهم إلى مرافق متنوعة.وعموما فإن الحجرات المستطيلة تنقسم إلى ثلاثة أجزاء : جزء أوسط اكثر اتساعا تفتح عليه في منتصفه باب الحجرة يحيط بها نافذتان متوسطتا الحجم معقودتان بعقود حدوية أو مدببة، ويمثل هذا الجزء حوالي ثلاثة أضعاف الجزئين الباقيين وهما الجزآن المتطرفان ويرتفعان قليلا على الجزء الأوسط بـ 1 - 2سم، ومساحتهما حوالي 1/3 الجزء الأوسط.ويستخدم هذان الجزآن للنوم بوضع الأسرة فيهما ،أواستغلال أحدهما للنوم والأخر لوضع أثاث البيت من أغطية وأفرشة.

إن هذا التقسيم يتضح في أرضية الحجرة التي يرتفع فيها الجزءان المتطرفان عن الجزء الأوسط بحوالي 1ـ سم،وبالتالي فهي تخضع لنفس النمط الموحد لتخطيط المسكن المغربي خصوصا وأن دراسة دور تلمسان قد بينت حقيقة تطور المسكن المغربي في القرن 8هـ/14م [80]

وغالبا ما تكون الحجرة الرئيسية أكثر هذه الحجرات رونقا وجمالا بما يضفى عليها من الزينة والزخرفة، وذلك بأساليب فنية عديدة كالحفر على الجص والتلوين والزليج أو الفسيفساء الخزفية ، وفي الفترة العثمانية باستخدام البلاطات الخزفية ، ويتضح من دراسة االحجرات في بعض المساكن أن معظم الحجرات كانت أرضياتها مغطاة بالفسيفساء الخزفية وأن هناك حجرات أخرى كانت جدرانها مكسية بزخارف جصية ملونة قوامها زخارف نباتية وهندسية باللون الأسمر والبني الغامق والأخضر الفاتح، وهو ما أبرزته الدراسة الميدانية، مما يستنتج معه أن معظم دور وقصور الملوك والأعيان وعِلية القوم من ذوي الثروة والجاه كانت على هذا النمط من الزينة والزخرفة [81].

وقد تحتوي الحجرة بأجزائها الثلاثة على إضافات تتطلبها احتياجات صاحب البيت كالدخلات الحائطية للكتب أو علب المجوهرات أو أدوات وحاجيات صغيرة الحجم مثلما يتضح ذلك في كثير من دور تلمسان الزيانية وفاس المرينية بما فيها بعض الدور في درب السلسلة وباب زير.

بعض الملاحق الأساسية للدور الأرضي في المساكن :وقد عدّدها السيد أندري بازانا في دور بلنسية بشرق الأندلس، إذ يمكن أن نلاحظ في المساكن المتكاملة إحتواء الطابق الأرضي علىحجرة صغيرة

تستخدم كقاعة جلوس ونشاط لربة البيت وعادة ماتقع هذه الحجرة الصغيرة نسبيا بالقرب من مخزن المؤونة والمواد الغذائية، والحجرة مستطيلة أو شبه مربعة وهي أقل حجما من حجرات النوم الأخرى وتخلو من الأجزاء الجانبية في الحجرات المجاورة.

المخزن: ويقع في أحد الجهات الرئيسية للمسكن بالقرب من المطبخ وربما اتخذ مكانا له على مستوى أسفل الصحن ينزل إليه بدرج، وهو على هيئة حجرة متوسطة الحجم مستطيلة أو مربعة غالبا ما تكون مفتوحة على الفناء بباب صغير ونوافذ أو كوات نافذة ضيقة مثلما تفتح بنوافذ أو كوات أخرى على الخارج، وذلك للتهوية والإضاءة، وتشغل في حوائط المخزن دخلات مختلفة الحجم تستخدم لوضع المواد الغذائية المختلفة الجافة وشبه الجافة والسائلة، فضلا عن مد حبال بين الحوائط لتعلق عليها مواد أخرى .ويعد المخزن في المساكن االقديمة على درجة كبيرة من الأهمية من حيث تخزين المواد الغذائية وحفظها وخاصة أيام الأزمات والكوارث الطبيعية والحروب الأهلية والغزوات الخارجية وخاصة المنتهية منها بحصار طويل أو قصير للمدن، كالحصار الطويل الفاشل لتلمسان على يد أبي يعقوب يوسف المريني الذي دام سبع سنوات، والحصار الذي ضربه حفيده أبي الحسن على نفس المدينة ولم يدخلها إلا بعد سنتي[82] وكان نظام

تخزين الأقوات الفردي والجماعي أحد العوامل المساعدة على المواجهة والتصدي للحصارات.

المطبخ: وهو أحد مرافق وملاحق المسكن الهامة، ويختلف مكانه من مسكن إلى آخر، ويتخذ في أحد زواياه بالقرب من المخزن وقاعة الجلوس والمرحاض،فهو في الركن الشمالي الشرقي في دار درب باب زير،وفي الركن الشمالي الغربي في دار درب السلسلة، ومساحة المطبخ متوسطة عموما، وشكله مربع أو مستطيل، يفتح بباب على رواق الفناء، وفي أحد جوانبه غير المتجهة إلى باب الدخول المتصل بالفناء، يشغله الموقد أو الكانون بمدخنته المتجهة إلى الخارج، وفي الجهة المقابلة صندوق كبير لوضع الفحم ومواد الإشعال والوقود، بينما يشغل الجهة المقابلة للباب حوض للماء أو مغسل، وكما يعبر المسكن الفخم على المستوى المادي لصاحبه فإن المطبخ بنظامه وحجمه ومحتواه يعبر بدوره على ذلك المستوى المادي [83].

المراحيض :وهي من المرافق الأساسية للدور، وتقع غالبا بعيدا عن البئر في الفناء حماية له، ومنفصلا عن المطبخ، وكثيرا ما يتخذ في الدور المتوسطة في هيكل الدرج الصاعد للطابق الأول كما في إحدى دور درب باب زير المتهدمة أو في ركن جهة من الجهات التي تشغلها المطبخ كما في إحدى دور درب السلسلة ، أو في أحد جوانب رواق الفناء كما في دار العباد،وفي كل الأحوال فإن مدخل المرحاض

منكسر وملتو ذو انكسار واحد أو انكسارين ويؤدي إلى حجيرة ضيقة يشغل عمقها فتحة الكنيف وعلى يمينها حُويض صغير ضيق ملاصق للحائط ومتصل بمجرى مائي جاري صغير .

المظهر العمودي للمسكن/ شكل (7- 8- 9 لوحة 1- 5)

الطابق العلوي : يلاحظ أن الطابق العلوي في أي مسكن قديم في تلمسان و غيرها يُميز من الخارج ببروز عن الحائط بينه وبين الطابق الأرضي أو الأعلى وهو مُشكّل بواسطة تنظيم قطع من الآجر أو مربعات خزفية أو صفائح مربعة أو مستطيلة من حجارة الأردواز، ويساعد في نفس الوقت على حماية الحائط نفسه من التقلبات الجوية والتخفيف من أثر مياه الأمطار، كما تظهر النوافذ بارزة بدورها في الطبقات العلوية ومغطاة بشبكة من المصبعات المعدنية أو الخشبية تضفي على الغرف من الداخل شيئا من الظلال والعتمة تمنع المتطفلين من الطرقات أو المساكن المجاورة من مشاهدة ما بداخلها وربما زيد في النافذة بكسوة صغيرة من خشب الخرط إن كانت النافذة واسعة بعض الشيء، أو قد يُلجأ إلى وضع قطعة قماش مزخرفة تنسدل على الفتحات المطلات [84]. وهي طريقة ما تزال إلى اليوم.

أما التكوين العام للطابق العلوي فهو يتشابه مع تكوين الطابق السفلي إلا ما تعلق فيه بالمرافق الخاصة كالمخزن والمطبخ، ذلك أن هذا

الطابق يخلو من هذه المرافق ويتألف من الرواق المحيط بالفناء والذي يفصله عن فراغ الفناء سياج خشبي من خشب الخرط على شكل شبكة من عناصر شطرنجية أو مربعات أو دوائر ونجوم أشبه بالأطباق النجمية .ويتصل بهذا الرواق أو البوبوز بالمصطلح المحلي كما يسمى الدرج الواصل بين الطابقين الأرضي والذي يعلوه

أما الجهات الأربعة من الرواق المشرف على الفناء فقد شغل بغرف مستطيلة متشابهة فيما بينها ومتطابقة مع حجرات الطابق الأرضي، إلا ما قد يلجأ إليه صاحب المسكن من تكييف يتطلبه الوضع العائلي من حيث إمكانياتها المادية وعدد أفرادها ،وتتكون من نفس الأجزاء التي تكون حجرات ذلك الطابق من حيث انقسام الغرفة إلى ثلاثة أجزاء أوسطها أوسعها للمساعدة على الحركة والنشاط العادي والجانبيين للسريرين والأفرشة والأغطية .

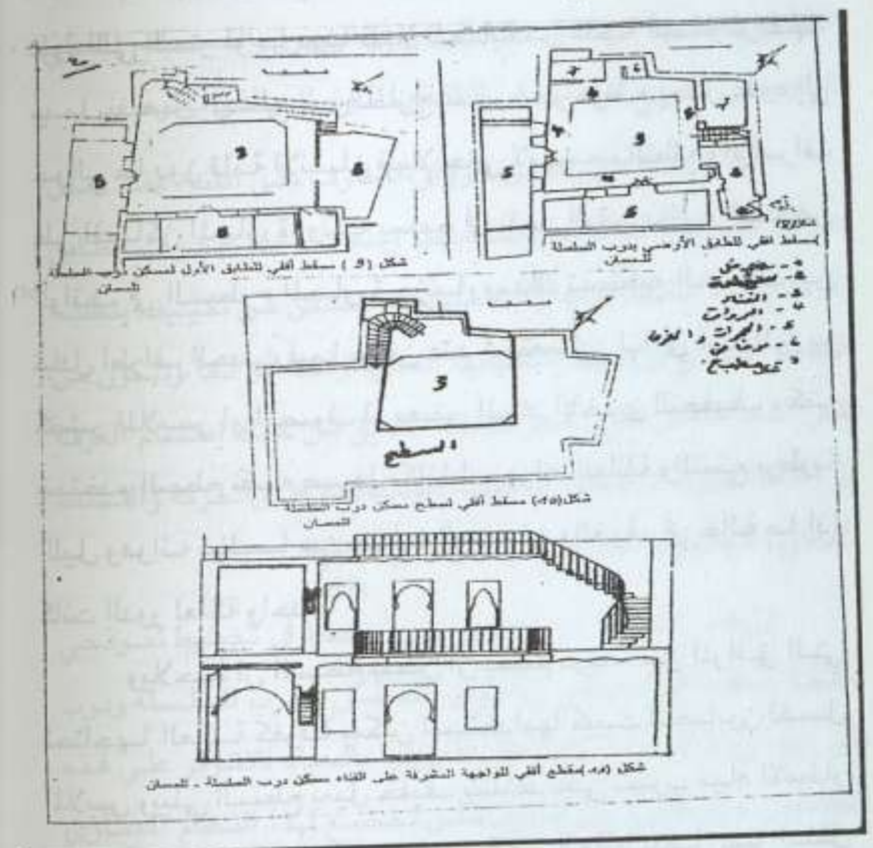
إن هذا التكوين المعماري نجده منمطا في تخطيط نموذجي بصفة خاصة في مسكنين زيانيين بتلمسان بدرب السلسلة ودرب باب زير، وإذا كانت دار السلطان المرينية بالعباد لاتتوفر على هذه العناصر، فإن كثيرا من منازل فاس تخضع لهذا النظام المعماري للقرن 8هـ/14م.

السطح : يوصل إليه عبر درج صاعد بإحدى زوايا الرواق المحيط بفتحة الفناء في الطابق الأول،وعادة ما تتكون دروج الدور من دورتين

تفصل بينهما عتبة وانكسار أمامها ،ويقوم على أعمدة خشبية صلبة أو رخامية أقل حجما في الغالب من أعمدة الطابق الأرضي التي تتخذ قاعدة لها . وينتهي السطح إلى الداخل بسور مرتفع قليلا يصل علوه إلى المتر أو ما دونه قليلا للحماية من فتحة الفناء وفراغها، بينما ينفصل السطح إلى الخارج بسور آخر مرتفع يصل علوه إلى حوالي ما دون قامة الإنسان قليلا حتى لايُسمح بالتطلع والإشراف على المساكن المجاورة، ولكنه يسمح في نفس الوقت برؤية الشخص الواقف في السطوح المجاورة جزئيا ، وبذلك تستطيع السيدات من تبادل أطراف الحديث فيما بينهن عند استعمالهن لها في أشغالهن به كنشر الملابس أو الصوف أو بعض المواد الأخرى للتجفيف ، كما يستخدم السطح نفسه صيفا مكانا لسهرات العائلة والتمتع برطوبة الليل وهوائه تخلصا من حرارة الحجرات والغرف في حالة ما إذا كانت الدور لعائلة واحدة [85] .

ويلاحظ أن السطح يمكن أن يضم مرفقا من المرافق التي تحتاجها العائلة كغرفة يمكن استخدامها كبيت للصابون لغسل الملابس.ويبنى السطح بميل خفيف يساعد على تسرب مياه الأمطار شتاء عبر مجاري فخارية ضيقة مبنية في الحائط تتصل ببئر أسفل الصحن فوهته في زاوية من زواياه، وبذلك فإن مشكلة المياه في مساكن المدن القديمة محلولة بهذه الطريقة وتستخدم على مدار

السنة في جميع الأغراض إلا للشرب، وتغطى فتحة الفناء في السطح قديما بشبكة خشبية أو حديدية في العهد العثماني واستُبدل ذلك حاليا باستخدام غطاء زجاجي .



شكل مكرر

<u>تركيب سقف الحجرات والغرف</u> : مكنتنا الدراسة الميدانية لدار بدرب بـاب زيـر في حالتهـا المتهدمـة مـن فحـص ومعرفـة تركيـب سـقوف

حجراتها وغرفهـا، ويتكـون السـقف عمـوما مـن جـائزات خـشبية أو عـوارض لوضـعها بطريقـة عرضـية منتظمـة واحـدة فواحـدة دون التصاقها ببعضها كما في حجرات دار درب السلسلة، ويبدو أن دار السلطان قد تهدم طابقها الأعلى وبالتالي فلا سقف لهـا، أو تنظم تلك العوارض زوجيا كل إثنتـين متلاصـقتين تفصلهما مسافة مناسـبة ومحددة، ويلي ذلك شبكة من قصب على هيئة شطرنجية أو قصبات منتظمة متلاصقة الواحدة تلو الأخرى وفي كل الأحوال تشد القصّبات إلى بعضها البعض بحبال رفيعة من الحلفاء على شكل ضفيرة تمنـع ، ويوضع فوق هذه الشبكات القصبية مادة طينية على هيئة قطع صغيرة جصية وطينيـة وحصوية،ويصب فـوق ذلـك طبقـة سميكـة مـن المـلاط الصلب القاسي أشبه ما تكون بالطابيـة وذلك منعا لتسرب المياه من السطح إلى ما أسفله أو مياه الحجرات والغرف عند مسح الأرضيات تنظيفا لها ، وفي الفترة العثمانية غُطيت أرضيات السطوح والحجرات والغرف بتبليطـات أرضـية مربعـة أو مـستطيلة مـن الخـزف أو مـادة حجرية.

يتـضـح مـن مقارنـة النـصوص التاريخيـة الـسابقة الـتي شخـصت صـورة المـسكن الـمغربي الإسـلامي، بعـضها بطريقـة تفصيلية كنصوص حسن الوزان مع الشواهد المادية لهذا المسكن والتـي اكتـشف بعـضها في الـحفريات أو مـساكن مـا تـزال قائـمة

بصورة كاملة أوجزئية ، ويتبين من كل ذلك أن المسكن المغربي في العصرين الزياني . المريني تتشابه صورته في النصوص التاريخية إلى حد التطابق مع صورته في الشواهد المادية التي تمت دراستها في أوقات مختلفة، لدرجة أن الباحث يكاد يجزم إجماع المجتمع على نموذج واحد للتخطيط ونظام معماري متشابه يشترك فيه الغني والفقير على حد سواء إلا ما تعلق فيه بالتفاصيل والمستوى المادي، ولا شك أن مرد ذلك يعود لطبيعة المجتمع الإسلامي، ومفهومه للحياة الأسرية من حيث حريتها واستقلاليتها إنطلاقا من روح العقيدة والمنظومة القيمية، التي الزمت المعمار أن يترجم ذلك عمليا في شكل نموذج لمخطط معماري موحد، هو هذا المخطط الذي تحدثت عنه النصوص التاريخية وشخصته الشواهد المادية التي أشرنا إليها سابقا.

والخلاصة: أن عمران مدينة تلمسان تطور تطورا كبيرا خلال العصور التاريخية التي مرت بها المدينة، حين كانت نواة أولى في العهد الروماني معروفة ببوماريا ، ثم تطورت في الفترة الممتدة من الفتح الإسلاميإلى قيام الإمارة الإدريسية التي شيدت جامعا لها ما كان لتشيده لو لم تكن المدينة قد بلغت مستوى عاليا في الكثافة السكانية،وفي خلال القرن الـ5هـ/11م إزداد تطورها مع مجيء المرابطين وتمدينهم للمدينة من جديد، ببناء مدينة تاكرارت وجامعها

الكبير ،وتولت المدينة إلى عاصمة دولة بقيام الزيانيين الذي جعلوا منها عاصمة دولة بعد أن كانت قبلهم عاصمة إقليم،وشهدت خلال ذلك تطورا مذهلا توسعت فيه حتى فاضت عن أسوارها فشيدت أرباض وأحياء خارجها كربض سيدي أبي مدين وربض سيدي الحلوي،ولكن المدينة اخذت في الضعف مع قيام الحكم العثماني في الجزائر وتتحول معه المدينة إلىمدينة ثانوية لا أهمية لها ولا قيمة لتحول العاصمة إلى معسكر فوهان بعدها .

ثانيا / عمارة تلمسان الدينية

شهدت تلمسان بمدينتيها القديمة والجديدة أو مدينة أغادير وتاكرارت، تطورا عمرانيا كبيرا ، كانت العمارة الدينية فيهما من أجل الأعمال الحضارية التي أقبل أمراؤها وحكامها وسكانها على إقامة دورها وتشييد صروحها ،وإذا كان كثير من تلك المؤسسات قد اندثرت بسبب الحروب والكوارث الطبيعية والتغييرات المستمرة والتحويل والتجديد الدائم الذي لجأ إليه الإنسان مع تطور الحياة وتعقدها ،وكذلك بفعل التطور الديمغرافي والتوسعات العمرانية، فإن كثيرا من تلك المؤسسات والعمائر التي ترجع لما قبل الإسلام وخلاله ورد ذكرها في متون المصادر القديمة والإسلامية، وهي بعددها المذكور يدل على زخم عمراني ومعماري كبير ، كما يدل على مكانة المدينة ،وما

يحيط بها من أقاليم تعد عمقا لها في البناء الحضاري والثقافي للمغرب الأوسط بصفة خاصة والمغرب الإسلامي بصفة عامة، وأهم من ذلك مساهمتها بذلك الكم الهائل من تلك المنشآت التي كانت قائمة في الزمان والمكان، وما زودت به المنطقة والمعماريين والصناع والفنانين من أساليب انتقلت للأجيال جيلا بعد آخر، وأكسبت تلك الأجيال المعرفة والمهارة والقدرات التي أهلتها لأن تلعب أدوارها الريادية في البناء والتشييد وفي الحياة العمرانية والمعمارية والفنية والتي أسهمت بواسطتها في الحضارة العربية الإسلامية بخاصة وفي الحضارة الإنسانية بصفة عامة.

ولا شك أن استنطاق المعلومات المتعلقة بالعمارة من النصوص التاريخية أمر هام،غير أن ذلك لايمكن أن يشخص الوضع المعماري للمنشآت، ولا يستطيع تشخيص أنماطها وخصائصها ومميزاتها، وما بلغته من دقة ورقة وفخامة تعبر عن إمكايات الصناع والفنانين والمعماريين، ولذلك سنلجأ إلى الأمثلة القليلة التي نجت من الدمار والتهديم الطبيعي والبشري، لنستنطق نماذجها وهيكلها : من حيث شكلها وتصاميمها ومخططاتها وزخارفها وخصائصها ومميزاتها العامة والمحلية لنقف على مظاهر الإبداع فيها ومستواها الذي بلغته في إطار مساهمتها في الحضارة العربية الإسلامية.

ومساجد مدينة تلمسان تنقسم إلى قسمين كمساجد أي مدينة إسلامية : مساجد جامعة تقام فيها صلاة الجمعة،ومساجد الأحياء السكنية عادية للصلوات الخمسة دون صلاة الجمعة في الأحياء السكنية ، وإذا كان عدد المساجد الجامعة قليلا في المدينة الواحدة لكبرها وقدرتها على استيعاب عددا ضخما من المصلين،فإن عدد المساجد الصغيرة كبيرا تبعا لحجم المدينة وسعتها وكثافتها السكانية

وسوف نتناول من المساجد الجامعة بمدينة تلمسان القديمة أي اغادير وتاكرارت،ثلاثة جوامع كأمثلة ونماذج للمساجد الجامعة فيها : احدها من خلال النصوص التاريخية وآثار الجامع الباقية إلى اليوم، وهو جامع أغدير، والثاني والثالث هما : جامعا تلمسان الكبير المرابطي وسيدي ابراهيم الزياني على التوالي.

أما المساجد وهو القسم الثاني من العمارة الدينية التي نحن بصددها، فسوف نتناول منها ثلاثة مساجد هي: مسجد سيدي بلحسن (أبي الحسن) ومسجد أولاد الإمام ومسجدد سيدي السنوسي.

<u>القسم الأول</u> / المساجد الجامعة : جامع أغادير - الجامع الكبير المرابطي - جامع سيدي ابراهيم.

أما جامع أغادير فهو أقدم جامع ورد ذكره في تلمسان خاصة وفي الجزائر عامة، ويقع شرق تاكرارت المرابطية أو مركزها انذاك واليوم ، ولا شك أن، مؤسس الجامع قد اختار له موقعا وسطا في المدينة التي تحولت إلى حي في مدينة أكبر مع مقدم المرابطين.

ويقع على بعد 150م من السورين الشمالي والشرقي لأغادير نفسها،وعلى بعد250م من السور الجنوبي و350م من السور الغربي، فهو يتوسط قلب مساحة شبه مربعة هي التي تمثل مساحة مدينة أغادير أكثر ميلا للجهة الشرقية قليلا، وربما يرجع ذلك لتطور الذي لحق المدينة في الإتجاه الغربي وهو الإتجاه الذي لم تتوقف المدينة عن التور فيه إلا بنهاية تعمير المنصورة المرينية واسحاب المرينيين من تلمسان، ويتضح من النظرة الفاحصة للمدينتين أغادير وتاكرارت مى التشابه الكبير بينهمامن حيث موضع المسجد فس كليهما، مما يوحي بتأثر الثانية في تخطيطها بالأول[86]

ويرجع تأسيس الجامع إلى نهاية الربع الثالث من القرن الثاني الهجري، وأسسه إدريس بن إدريس أو إدريس الأول سنة 174هـ/790م، ويذكر بن أبي زرع أن الأمير إدريس بنى له منبرا فخما نقش عليه كتابات تأسيسية ، فهو يقول أن إدريس:" دخل مدينة تلمسان صلحا فأمن أهلها وبنى مسجدها وأتقنها وصنع فيها منبرا،وكتب عليه << بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به

الإمام إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسين رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة >> [87]

وبعد وفاة إدريس الأول رأت تلمسان أنها غير ملزمة بالخضوع لابنه وخليفته إدريس الثاني ، فخرجت عن طاعته مستغلة الفوضى التي ثارت بمقتل أميرها،وذلك بعد ربع قرن من انضوائها تحت طاعتهم، مما جعل الحرب تثور بين تلمسان الزناتية اليفرنية والأدارسة،فيعيد إدريس الثاني فتحها، ويبدو أن جامع المدينة تضرر من هذه الحرب [88] فقام بتجديد الجامع مثلما يؤكد ذلك بن خلدون مشيرا إلى أ، إدريس الثاني جدد الجامع عند ما أعاد فتح تلمسان [89] وقد نقل بارجيس نصا عثر عليه في تاريخ حكام المغرب لأبي محمد الصالح فحواه أن : ... أبو مروان عبدالرحمن قال:دخلت سنة 555هـ/1160م إلى جامع تلمسان،وهنا قرأت الكتابة الآتية على لوحة مسمرة على حزام المنبر وكانت لمنبر آخر أقدم :<< أمر بعمل هذا المنبر الإمام إدريسبن إدريس بن عبدالله بن الحسنبن الحسين بن عليرضي الله عنهم، في شهر محرم سنة **199هـ/811م**. >>[90]

وكان جامع أغادير ذا مكانة خاصة تعادل مكانة جامع تاكرارت في نظر الأفراد والجماعة والحكام، وكان يقوم بوظيفتين الدينية والعلمية وهو ماجعل يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية

يشيد له منذنة ولم تكن له مئذنة قبل ذلك أو تهدمت في تاريخ غير معروف، وذلك إضافة إلى ما شيده من مئذن كمئذنة جامع تلمسان الكبير[91] وكان الجامع ما يزال يقوم بوظيفته الدينية والعلمية في تدريس العلوم وتحصيل المعرفة بعد النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16م، فقد كان العالم العارف علي بن يحي السلكسيني الجاديري" إماما بمسجد أجادير، يدرس فيه العلم إلى الضحى الأعلى ويخرج ويذهب لعرصته بوادي الصفصيف يخدمها بالفأس..." [92].

ولا شك أن الجامع ظل يقوم بوظيفته خلال العهد العثماني ولكن مع أوائل الإحتلال الفرنسي لتلمسان تعرض المسجد إلى التدمير على جيوش الإحتلال، فتحول الجامع إلى ركام من الأتربة، وهو ما أكده لبارجيس المرافقون له من العرب في جولته الارتيادية إلى أغادير، حيث اطلع بأم عينيه على بربرية بني جلدته ، ولأنه فعل شنيع بربي لأمة تدعي الحضارة فلم يصدق ما قيل له.[93] ،

فماذا بقي من جامع أغادير اليوم؟.

لم تقم لهذا الجامع منذ تدمير الفرنسيين له إبان احتلالهم لتلمسان، فقد ظل ركاما وآثارا مغمورة تحت الأنقاض بعد ذلك لمدة طويلة كان أهل حي أغادير فيها يضطرون إلى التنقل لصلاة الجمعة إلى الجامع الكبير بتلمسان.

وفي 1973م قامت فرقة من الأثريين الجزائريين بمشاركة ألمانية بالتنقيب عن آثار الجامع، وما يحيط به من منشآت،مقتفية بعض العلامات من آثار أسوار الجامع،وتمكنت من اكتشاف كثير من دعامات بيت الصلات وحائط قبلته ومحرابه وجداريه الشرقي والغربي، أما الجدار المقابل لجدار القبلة فقد حددتة المئذنة المقامة في مؤخرته، وبذلك أصبحت حدود المسجد ومساحته الداخلية معروفة ، وكان مسجدا متوسط الحجم مساحته 1637.19مترا مربعا،ولكنه يقترب في مقاساته من جامع تلمسان المرابطي بطول يقدر بـ 42.5م وعرض 38.75م [94] مقابل 63م طولا وعرض49.5م عرضا في جامع تلمسان.

أما النظام الداخلي للجامع فتنقصنا المعلوات التاريخية والشواهد الأثرية حوله ، فالتوزيع القائم مما أثبتته الحفائر يوحي بعدم الإنتظام في بلاطاته وأساكيبه، وهي مؤلفة من من 6 بلاطات في اتجاه القبلة و 8 أساكيب، ولا نعلم شيئا عن نظامه الفني الزخرفي وسقفه ، فإن المصادر سكتت عن ذكر ذلك، ولا شك انه تلقى العديد من الإصلاحات والترميمات والزخرفة والزينه على مر الأيام قبل تهديم الفرنسيين له ، وذلك على عادة المؤسسات الدينية الأخرى من جوامع ومساجد ومدارس.

جامع تلمسان الكبير: شكل **10** لوحة **5**)

وهو جامع تاكرارت المرابطي، يكاد يحتل اليوم وسط المدينة ومركزها، ولا شك أن المدينة تطورت حوله تطورا كبيرا وخاصة في العهد الزياني بعد ما تحولت تلمسان إلى عاصمة دولة بعد أن كانت قبلهم عاصمة إقليم.

لقد دخل المرابطون تلمسان سنة 472هـ/ 1079م، ولكنهم لم يستطيعوا ا الإحتفاظ بها أمام الحماديين، فعادوا في السنة الموالية في جيوش يقودها هذه المرة يوسف بن تاشفين نفسه، وتمكن هذ المرة من الإستيلاء على تلمسان وتجاوزها لجزائر بني مزغنة [95]

ويرجح أن يوسف بن تاشفين وهو يؤسس مدينته الخاصة تاكرارت لالتكون في بادىء الأمر لعامة الناس ولكنها لتكون مستقرا لدواوين الدولة وحكامها وخزائنها خصوصا وأن تلمسان تحولت إلى عاصمة إقليمية للمغرب الأوسط في ظل المرابطين، لا شك أنه فكر في بناء جامع للمدينة على عادة الحكام والأمراء الكبار، فيوسف بن تاشفين نفسه هو الذي أعطى أمرا لولاة الأقاليم وعامة الشعب بضرورة بناء مسجد في كل حي سكني وإلا تعرضوا للعقاب.

لكن كيف كان نظام مسجد يوسف بن تاشفين أو المسجد المرابطي الأول، لم تذكر ذلك المصادر والنصوص التاريخية، كما أن

الدراسة العملية والميدانية للمسجد لاتعطي دلائل على صورة الجامع الأولى.

إن الزائر للمسجد وهو يقف بداخله أسفل القبة التي تتقدم المحراب وعيناه تجوسان بين ثناياها سوف يقف على كتابة برقبة القبة محفورة في الجص ومنقوشة بخط ذي طابع أندلسي،وتقرأ تلك الكتابة كالتالي: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وعلى ءاله وسلم تسليما هذا مما أمر بعمله الأمي❖ الأجل ....أيد الله أمره وأعز نصره وأدام دولته❖ وكان إتمامه على يد الفقيه أجل القاضي الأوصل أبي الحسن علي بن عبدالرحمن❖ ابن علي أدام الله عزهم فتم في شهر جمادى الآخرة عام ثلاثين وخمس ماية .(96)

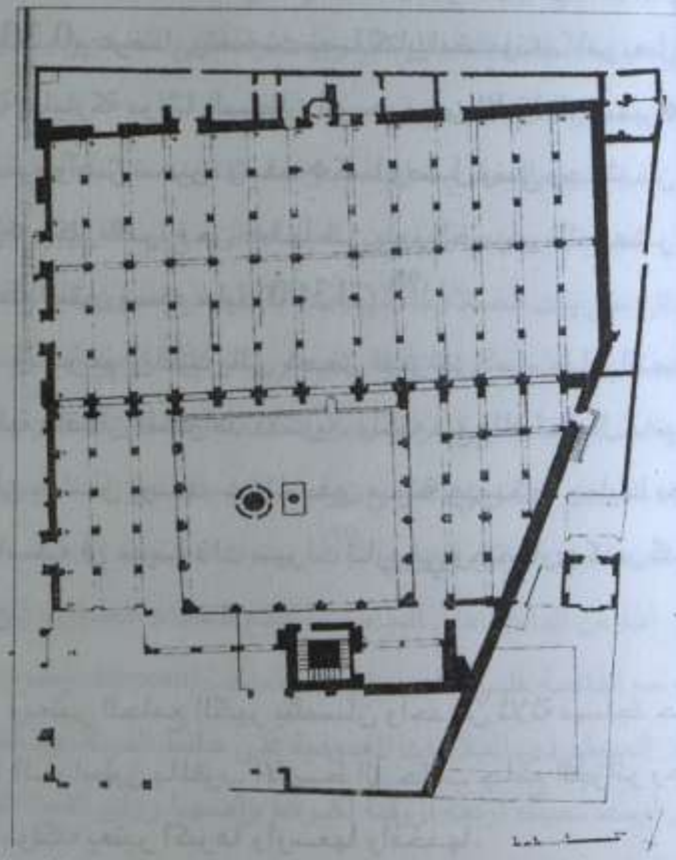
ومن تحليل النص السابق يتضح أن تاريخ الجامع هو تاريخ 530هـ الموافق لشهر أفريل 1136م، ويلاحظ في النقش فراغ في السطر الثاني بعد عبارة الأمير الأجل، الذي يفترض أن إسم يأتي بعده هو إسم المؤسس، ولكن ممحي مع ترك فراغه خاليا،وبالرجوع الى التاريخ المذكور في النقش يتضح أن الحاكم المرابطي الذي كان يحكم في هذه الفترة هو علي بن يوسف بن تاشفين،ولاشك أن يدا غير أمينة امتدت لإسم المؤسس بالتخريب والمحو، ومن المؤكد أن الفاعل كان أحد الأفراد المعادين للمرابطين أو الأمير

المرابطي،ويرجح أن الموحدين كانوا مسؤولين على ذلك، إما شخصا منهم أو أحد مواليهم، محى الإسم وغفل التاريخ إما عمدا أو سهوا.

هذا التاريخ هو التاريخ الوحيد الثابت في هذا المسجد، لاشك أن علي بن يوسف قام بأعمال جليلة في الجامع، هي هذه النقوش والزخارف والزينة التي تتسم بوحدة عضوية وانسجام كامل في تصاميمها وفي موضوعاتها وعناصرها الزخرفية، مما يؤكد نسبتها إلى فترة واحدة هي فترة علي بن يوسف بن تاشفين.

ومن هنا يستنتج أن المرحلة الأولى لتطور الجامع هي مرحلة التأسيس وهو الأصل والجوهر الذي ظل غامضا يرجح معه أن التصميم الأصلي كان في عهد يوسف بن تاشفين ، أما المرحلة الثانية وهي الثابتة التاريخ، فهي مرحلة علي بن يوسف بن تاشفين، وهي مرحلة تمت فيها أعمال الصيانة والترميم وربما زيادة أو توسيع خفيف بعد مضي ما يقرب من نصف قرن، كما تمت فيها أعمال جميع الزخارف الفنية، وقد أشار كثير من الدارسين إلى مرحلة ثالثة من أعمال الصيانة والترميم والزيادة، كان بطلها يغمراسن بن زيان،وقد شملت أعماله موضع الصحن القديم حيث أضاف إليه سبع بلاطات جديدة ذات ثلاثة أساكيب عمقا، فضلا عن قبة مضلعة صغيرة في بيت الصلاة تعلو سدة المبلغ جاءت تقليدا للقبة المرابطية أمام المحراب، وفي نفس الموضع حل محل الدعامات المرابطية الأصلية

أعمدة رخامية في بالبائكة الثانية على البلاطة المركزية من جهة المحراب،وقد أعطت هذه الزيادة للجامع شكله وتصميمه ومخططه الذي هو عليه اليوم. هذه هي مجمل الآراء التي حددها الأستاذ بورويبة [97] بناء على ما افترضه جورج مارسي وكولفان.



(10) مخطط جامع تاكرارت المرابطي أو الجامع الكبير لمدينة تلمسان

وفي نهايــة العــشرية الأولى مــن النــصف الثــاني مــن القــرن 8هـ/14م، كان المسجد محل اهتمام من جديد على يد السلطان أبي حمو موسـى الثاني مجدد كيان الدولة الزيانية بعد سقوطها في أبي عنان فارس المريني، واختص عمله بعمل خزانة كتب للجامع خلد إسمه عليها في نقش بخط أندلسي رشيق على لوحة خشبية مقاساتها 2م طولا و0.30م عرضا، وتضمنت نصا كتابيامضمونه: " أمر بعمل هـذه الخزانة المباركة مولانا السلطان أبو حمو ابن الأمرا الراشدين❖ أيد الله أمـره وأعـز نـصره ونـفعه❖كمـا وصـل ونـى وجـعله مـن أهـل التقوى❖ وكان الفراغ من عملها فـي يـوم الخـميس ثالث عشر لـذي قعدة عام ستين وسبع ماية (1360م)".[98]

وبالـرغم أن ذلك يظل محض افتراض أمـام غيـاب النـصوص التاريخية وفقدان الشواهد الأثرية، ولكنه مع ذلك احتمال قائم إذ لا يعقل أن يؤسس يوسف بن تاشفين مدينة جديدة ولا يحليها بجامع يخلد اسمـه في مدينـة ذات ميراث تـاريخي وحضـاري كـبير كمدينـة تلمسان.

ويعتبر الجامع الكبير بتلمسان واحد من ثلاثة مساجد جامعة شيدها المرابطون بالمغرب الأوسط إلى جانب جامع الجزائر وجامع ندرومة، ولكنه يعتبر أكبرها وأوسعها وأفخمها.

ويتألف الجامع من الخارج من شكل شبه مستطيل مقاساته العامة 63م عرضا و49.5م عرضا، وينكسر ضلعه الجنوبي الغربي انطلاقا من نقطة تقابل الصحن نحو الداخل ليلتقي بالضلع الشمالي الغربي، وكان هذ الإنحراف يشغله الجدار الشرقي للقصر البالي المرابطي، وترتفع المئذنة التي شيدها للجامع يغمراسن بن زيان في منتف الحائط الشمالي الغربيمشرفة على الصحن وتنتصف المحو الأوسط للبلاطة العمودية.

وقد فتح بالجامع ثمانية أبواب: إثنتان بحائط القبلة يمين ويسار المحراب، وأربعة أبواب بالجدار الجنوبي الغربي: إثنتان مفتوحتان على بيت الصلاة بالأسكوب الثالث والخامس، والثالثة تفتح على الصحن، والأخيرة في نهاية الجدار بالركن الغربي،أما السابعة فتفتح بالجدار الشمالي الغربيمقابل المئذنة، والأخيرة مفتوحة على الميضأة بالجدار الجنوبي الغربي، يرجح أنها باب غير أصلية، وهو ما يقال بالنسبة لباب الركن الغربي [99].

أما من الداخل فإن الجامع يخضع للنظام المعماري المعروف بالجوامع القائمة على الأعمدة والدعامات " Hypostil "وطرازه هو الطراز المديني ذي البلاطات العمودية على حائط القبلة، ويتألف من صحن أوسط تحيطه أربعة أروقة أكبرها وأهمها رواق القبلة أو بيت الصلاة :

بيت الصلاة: ومقاساته 49.30م وعمقه 25م،يتألف من 13بلاطة عمودية على حائط القبلة،و 6 أساكيب،من 5بوائك الثالثة منها عقودها موازية للقبلة وتمتد عمودية أيضا ويتراوح اتساع البلاطات ما بين 3م إلى 4م وهو مقاس البلاطة العمودية.

وتعتمد عقود الجامع على دعامات مختلفة الشكل من ثلاثة أنواع: المستطيلة، والمتقاطعة، والتي على شكل حرف اللآم الأوسط، وهي دعامات مبنية بالآجر،وقد استعيض عن دعامتين بأعمدة رخامية بالبائكة الثانية.

وتقوم العقود على الدعامات ، وهي من النوع الحدوي ،والعقد الحدوي عقد مغربي أندلسي،ظل علما على عمارة المنطقة،ولم تستخدمه أي منطقة إسلامية أخرى كما استخدمته العمارة المغربية الأندلسية في جميع عصورها، وهناك نوعان منها : عقود حدوية ملساء، وعقود حدوية مفصصة يقدر عدد فصاصها بـ7 أو 11 أو 13 فصا، والعقود الحدوية المفصصة ذات وظيفتين معمارية وزخرفية، وهي في هذا المجال ابتكار إسلامي أندلسي، يعد من المؤثرات الأندلسية التي دخلت على عمارة المغرب وفنونه، وقد أخذت تعم عمارة المغرب من هذ الفترة.[100]

ويتميز بيت الصلاة بمجموعة من الظواهر الجدية على المغرب ، قدمت مؤثراتها من الأندلس،فوجود البائكة الثالثة ذات العقود

الموازية لحائط القبلة ظاهرة أندلسية، وجد مثيلها في الجامع الأموي بقرطبة، والبائكة المميزة فيه جاءت بفعل الزيادات المتتالية،في مراحل تاريخية مختلفة، ونقل المعمار هذه الظاهرة إما وعيا منه أو بدون وعي، والمعروف ان الأندلس مارست ضغطا فنيا ومعماريا على المغرب جاء على شكل موجات من المؤثرات الفنية والمعمارية في فترات مختلفة اهمها الفترة التي شهدت فيها العدوتان وحدة سياسية كاملة مع عبور المرابطين إليها وإلحاقها بالمغرب، غير المؤثرات الأندلسية كانت قد اخذت تتوغل في بلاد المغرب قبل ذلك وبالذات منذ القرن 3هـ/9م مع الصلات بين الرستميين والأمويين ، ثم زاد تأثي ها قوة في العه الفاطمي، عند ما وجد الأمويون أنفسهم في مواجهة الفاطميين الطامحين إلى الإستحواذ على الأندلس، وما تلى ذلك من نقل الأمويين لصراعهم مع الفاطميين إلى الأراضي المغربية،وما فرض عليهم من مساعدات مادية ومعنوية وفنية يقدمونها لحكام زناتة المحليين في مدن المغرب الأقصى والمدن الغربية للمغرب الأوسط، وهو ما أدى إلى انتشار المؤثرات الأندلسية بقوة في بلاد المغرب منذ هذا التاريخ.[101]

أما المؤثر الثاني في جامع تلمسان، فيظهر في حائط قبلته : وذلك في المحراب والقبة التي تتقدمه .

المحراب:وهو محراب مجوف غائر في الحائط مضلع الشكل خماسي،يكتنفه من الجانبين عمودين رخاميين، ويتشكل في داخله من

قطاع غير منتظم،على هيئةنصف قبة تعلوه قبيبة صغيرة،مستديرة على شكل مفصص أوذي قنوات عدد قنواتها 16 ، وهذا النوع من القباب الذات القنوات كانت قد ظهرت في القيروان ثم في جامع قرطبة بعد ذلك، وذلك في القبة التي تتقدم المحراب[102].

أما في جامعي الجعفرية وسراقوسطة، فإننا نجد نفس النوع من القبابذات القنوات، غير أن قنواتها لا تتعدى 9 و6 على التوالي[103]

ومن هنا فإن المرابطين لم يبتكروا هذا النوع من القباب ،لكنهم نقلوه من الإرث المعماري المغربي الأندلسي، مجددين في مضامينه واستخدموه في غير جامعهم بتلمسان، مثلما تتضح أمثلته في التجديدات التي أجروها لجامع القرويين بفاس العتيقة وفي قبة البردين، وفي حمام الصباغين بنفس المدينة[104]

وتقوم تلك القبة على منطقة شبه مضلعة تخلو من الزخرفة، ثم حشوات،تتخللها فنافذ صغيرة للإضاءة والتهوية، ذات زخارف نباتية،كانت معروفة في عمائر دينية إسلامية سابقة بالمغرب والمشرق كجامع دمشق والجامع الكبير بقسنطينة ، أما الشريط الأسفل المضلع فيحتوي على نص كتابي بالخط الكوفي، هذا نصه : " بسم الله الرحمن الرحيم إذا قرأ❖القرآن فاستمعوا لهوانصتوا لعلكم ترحمون واذكر ربك❖في نفسك تضرعا وخيفة ودون❖الجهرمن القول بالغدو

والآصال ولا❖تكن من الغافلين إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون(105)

أما واجهة المحراب من عقده وإطاره وما يتضمنه من تكوينات فنية زخرفية، فإن ذلك يجعله من المحاريب الفخمة ، فعقد المحراب عقد حذوي مسنج بسنجات مستطيلة ممددة على شكل غير منتظم تنتهي السنجات في أعلاها بدوائر صغيرة وتفصل السنجات عن بعضها عناصر ورقية ثلاثية الفصتص،أما وجه السنجات فشغلته لفائف من المراوح النخيلية وأوراق الاكانتس، ويكتنف المحراب في ركنيه،زخارف تعتمد على دائرة مركزية تكتنفها عناصر زخرفية نباتية من الأوراق والمراوح النخيلية.فيحيط بالمحراب مجموعة من الإطارات والأشرطة مستطيلة الشكل يمتد كل منها حوله على جانبيه وأعلاه،وجميع هذ الإطارات والأشرطة ذاتزخارف نباتية أو كتابية، وكثيرا ما تمتزج هذ الزخارف الكتابية والنباتية لتكون موضوعا زخرفيا متناسقا رقيقا، وتخذ الأشرطة ولإطارات قاعدة لها في الأسفل على يمين المحراب ويساره حشوة جصية مربعة الشكل محفورة بزخارف قوامها كتابات بالحط الكوفي، وعناصر نباتية من المراوح النخيلية البسيطة والمزدوجة ، والحقيقة أنه يمكن استجلاء قوة إيمان المرابطين من هذه النصوص، كما يمكن استجلاء عقيدتهم وشعاراتهم وفكرهم الديني ورؤيتهم العقيدية(106).(يمكن الإطلاع على كل ذلك من حيث المضامين

الزخرفي والكتابية في/القبة أمام المحراب: وهي بموقعها ليست جديدة على العمارة الإسلامية في المشرق والمغرب ،فإن أهم ما سبقها من القباب قبة القيروان.وتتكون القبة من منطقة انتقال على شكل حنايا ركنية مجوفة تستند علىامتداد بائكة من عقود حدوية مفصصة تحول المربع إلى رقبة مستديرة لإقامة استدارة القبة عليها، فالرقبة المربعة يقوم عليها شريط محدب يمتد عليه شريط الكتابة التأسيسية او التجديدية بالأسلوب الأندلسي[107].

أما الحنايا الركنية نفسها فعلى شكل ثلاثي مقرنص مغلف بعقود أخرىملساء وبمقرنصات تبدو بارزة وتحصر بينها عناصر أخرى مماثلة، وتقوم عليها قبة مضلعة، أضلاعها متقاطعة تشكل في تقاطعها مناطق مثلثة غير ممددة، والمناطق نفسها تعلو الحنايا وما بينها وهي مكسوة بسترة جصية مخرمة من المراوح النخيلية البسيطة والمزدوجة،يستطيع الضوء اختراقها لإضاءت الجامع وتهويته وتختلط بأشكال هندسية كأسية كما تكتنفها، ولا شك أن هذا النظام للقباب المضلعة أندلسي الأصل استمده المغرب من جامع قرطبة[108].

أما القبة نفسها فهي من النوع المقرنس تتوسط سمتها قبيبة مفصصة ، وتتخذ المقرنسات أشكالا مستطيلة صغيرة صندوقية تبدو بارزة، وتعد بذلك مقدمة للدلايات المعروفة في الأعمال الفنية من هذا النوع. ويغلف القبة من الخارج هيكل مغطى بقرميد أخضر[109].

وتقوم هذه القبة على عقد حدوي مفصص في اتجاه البلاطة المركزية والفصوص نفسها من ال النوع الحدوي المتجاوز،ويمكن أنه تعرض لبعض الإضافات الزخرفية الموحدية في وجه الفصوص.

الصحن المركزي:وهو في أصله مستطيل، ولكن الأعمال التي أجراها يغمراسن للمسجد جعلته شبه مربع اقرب إلى التربيع، وهي ميزة صحون المساجد في القرن 7هـ/13م وما بعده.

ويحيط بالصحن من جهتيه الشرقية والغربية مجنبة تتكون الغربية منها من أربعة بلاطات هي امتداد لبلاطات بيت الصلاة، أما الشرقية فعدد بلاطاتها ثلاثة في نفس اتجاه البلاطات السابقة[110]

ومؤخر المسجد يتكون من بلاطتين في اتجاه موازي للحائط الشمالي الغربي ويقطعها في منتصفها المئذنة التي شيدها للمسجد يغمراسن،وفي هذه الجهة يقوم فناء خلف المئذنة وفراغ واسع نسبيا إلى الجهة اليمنى من ذلك شغل بالمحكمة في فترة من فترات تاريخ تلمسان.

أما من الناحية الفنية الزخرفية فإن بيت صلاة جامع تلمسان اشتمل على مجموعة من الزخارف الكتابية بالخطين الكوفي والنسخي ذات مضامين عديدة.

القسم الثاني/ المساجد (شكل11)

هناك عديد من المساجد أسسها الزيانيون في تلمسان لإقامة الصلوات الخمس دون صلاة الجمعة، وتقع هذه المساجد عند مداخل الأحياء السكنية أو في مقدمتها ، وإذا تعذر علينا دراسة هذه المساجد كلها، وعددها يفوق الـ 10 مساجد، فإننا سنهتم بمسجدين إثنين هما: مسجد سيدي بلحسن (سيدي أبي الحسن) و مسجد أولاد الإمام .

وقد أُسس المسجد الأول على يد السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن (681 . 691هـ)بجوار باب البنود[111] لذكرى الأمير الزياني المتوفى أبو عمر إبراهيم ابن السلطان أبي يحي يغمراسن بن زيان كما تؤرخه كتابة منقوشة بخط أندلسي جميل على لوحة رخامية مثبتة في الحائط لبيت الصلاة تذكر تاريخ 696هـ/1296م[112]،بينما أسس الثاني أبو حمو موسى الأول ابن عثمان ، وقد تسمى المسجدين باسم علماء أجلاء خدموا العلم وقادوا الناس فحق لهم ذلك وهم أبو الحسن التنسي الذي توفي عام 706هـ/ 1306م، وابني الإمام الأخوين أبو زيد عبدالرحمان وأبو موسى عيسى ابني الإمام الفقيه التنسي أبو عبدالله محمد الإمام وتوفي أبو زيد عبدالرحمان سنة 743هـ/ 1342م ،أما أبو موسى عيسى فقد توفي سنة 747هـ/ 1348م[113]

ويقع مسجد سيدي بلحسن بجوار الجامع الكبير، وبابه مفتوح على الساحة العامة التي تتقدم ذلك الجامع إلى الغرب منه، وهي مركز تاكرارت المرابطية، ويقع خلف المسجد حي من الأحياء السكنية لمدينة تلمسان بالجهة الغربية بتاكرارت، وعلى مرمى حجر من مسجد سيدي بلحسن يقع مسجد أولاد الإمام بمسافة بينهما لا تزيد عن 200 إلى 250م، وهذا المسجد أيضا هو مسجد لأحد دروب وأحياء تلمسان المسمى باسم العالمين أبني الإمام..

أما من حيث التشخيص العام لهذين المسجدين، فهما متشابهان من حيث صغر حجمهما ومن حيث نظاميهما المعماري، ويتخذ المسجد الأول (سيدي بلحسن) شكلا هندسيا مستطيلا يتجه من الشمال إلى الجنوب بينما يتخذ المسجد الثاني (أولاد الإمام) شكلا مماثلا ويتجه من الشرق إلى الغرب، ولكلا المسجدين مئذنة تحتل أحد أركانيهما.

أما المداخل فيختلف كل منهما في شكله وتركيبه، وعددها مختلف من مسجد إلى آخر، فمدخل سيدي بلحسن يحتل منتصف الحائط الشرقي وهو مدخل تذكاري بارز بينما يُفتح مدخله الثاني في الجانب الجنوبي الغربي وهو مدخل عادي وبسيط ويحيط به نافذتين كبيرتين، رصع الباب والنوافذ بالزليج المتعدد الألوان على هيئة أحزمة وأشرطة،و في أولاد الأمام يفتح الباب على الجانب الشمالي

الغربي،وتبدو سقوف المسجدين من الخارج على هيئة منحدرة أشبه بشكل جذع هرم، وهو سقف يتماشى مع مناخ المنطقة من حيث تسريب مياه الأمطار شتاء والمساعدة على تلطيف الجو داخل المسجد صيفا، والسقوف مغطاة من خارجها بقراميد فخارية صلبة مطلية باللون الأخضر اللامع وتمتد السقوف بشكل عمودي على جدار القبلة في المسجدين.[114]

أما من حيث التشخيص الداخلي للمسجدين فإن كل من المسجدين يحتفظ بجوهره المعماري

والواقع أن المساجد الزيانية تتميز بصغر الحجم إذا ما قورنت بالجوامع، خاصة الجوامع المرابطية السابقة أو المرينية المعاصرة في تلمسان، مما يثبت وظيفتها الثانوية التي تدركنا من خلال مقاساتها العامة التي لا تتجاوز في المسجد الأول سيدي بلحسن 10.20م طولا و 9.70م عرضا، أما مقاسات أولاد الإمام فهي 9م طولا × 6.30م عرضا /ويتصل المسجدان بمدخليهما المفتوحين ببيت الصلاة مباشرة، كما يتصلان بالمئذنة بباب اخر من داخل المسجد، ويخلو المسجدان من الصحن ، اما بيت الصلاة فيهما فيتشابهان إلى حد كبير وهما مستطيلي الشكل يتالفان من ثلاث بلاطات عمودية على حائط القبلة تقطعهما أساكيب ثلاثة في سيدي بلحسن وأسكوبين في أولاد الإمام، ويفصل كل بلاطة عن

الأخرى بائكة من ثلاثة عقود حذوية ترتكز على أعمدة رخامية مجزعة في سيدي بلحسن وعقدين في أولاد الإمام يرتكزان على دعامات مبنية بالآجر وليس بالأعمدة ، وتتميز البلاطة الوسطى في سيدي بلحسن باتساع أكبر من البلاطتين المتطرفتين وهي في أولاد الإمام أقل إتساعا من البلاطتين الجانبين(115).

أما العقود فهي حذوية متجاوزة تتميز بالبساطة الشديدة إذا ما قورنت بالعقود المفصصة أو العقود ذات الخطوط التحديدية المنكسرة او المسننة التي انتشرت في العهد المرابطي وبلغت قمتها في العصر الموحدي، غير أن العقود المفصصة وإن اختفت من داخل المسجدين فقد رصعت الأوجه الأربعة للمئذنة .

وتتميز أعمدة جامع سيدي بلحسن، وعددها عشرة أعمدة: إثنان يكتنفان المحراب وأربعة مندمجة في الحائط وما تبقى يحمل السقف، تتميز بتيجانها التي أخذ بعضها هيئة قاعدتها بينما زُينت تيجان أخرى بعناصر نباتية محورة قوامها أوراق الأكانتس والمراوح النخيلية وأنصافها، أو ربما أكتفت الزخرفة بأوراق نباتية بسيطة ومركبة تتصل بعنصر على هيئة محارة أو كوز الصنوبر أو أشكال هندسية ونقاط وخطوط مختلفة الشكل والحجم وكلها محفورة في الجص الذي عولج بطريقة جيدة بينما تمتاز الزخارف في مجموعها بالتناسق والتوازن والتناغم محققة وحدة عضوية في

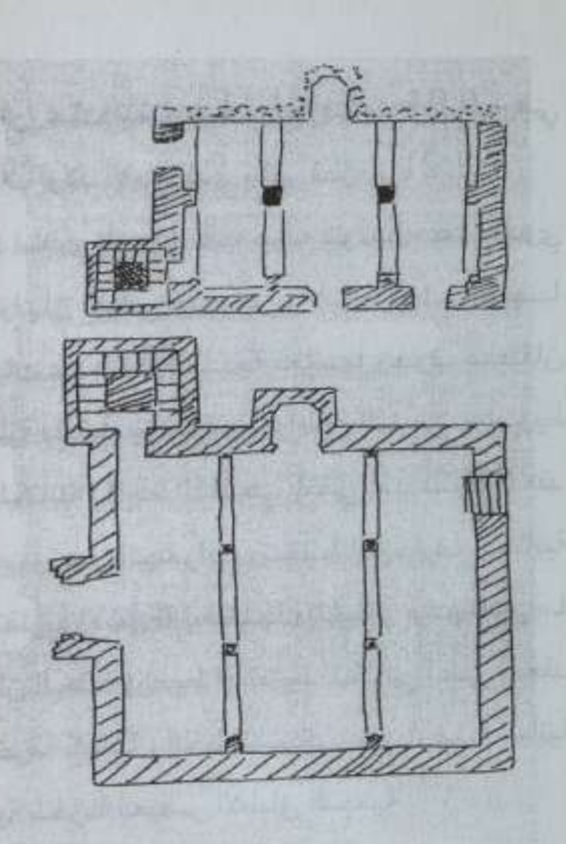
نظامها ،أما دعامات مسجد أولاد الإمام فهي مستطيلة أو على شكل حرف لام أوسط (ـلـ)أو على هيئة متقاطعة[116].

المحاريب: وهي تتصدر الحائط الجنوبي الشرقي في المسجدين، وقد اقتبس الزيانيون التقاليد المحلية السابقة للمحاريب المرابطية والموحدية من حيث اتخاذها هيئة مضلعة سداسية وعقودها حدوية متجاوزة، ويقدر اتساعها بـ 1.30م وعمقها 1.70م أما في مسجد أولاد الإمام فسعته 1.18 وعمقه 1.64م وتعلو حنية المحراب في المسجدين في جانبها الداخلي قبيبة صغيرة مقرنصة تتوسطها قبيبات أخرى بحجم أصغر أو دوائر مفصصة، ويحصر المنطقة المقرنصة شريط كتابي بخط نسخي وكوفي رقيق ثماني الأضلاع في سيدي بلحسن وسداسي الأضلاع في أولاد الإمام ومضمون الكتابة آيات قرآنية ، وأسفل ذلك شريط من عقود شبه مستديرة صماء تعتمد على أعمدة جصية رشيقة مشغولة في الحائط تعلوها تيجان صغيرة مزينة بمراوح نخيلية وأنصافها وعناصر كوز الصنوبر في الأجزاء العليا .

ويُعد محراب أولاد الإمام محرابا بسيطا لاأثر للفن فيه إذا ما استثنينا قبيبته الداخلية وبعض الزخارف النباتية من المراوح حمل إطار محرابه،أما محراب مسجد سيدي بلحسن فهو من أفخم محاريب المساجد الجزائرية بما تتميز به زخارفه من رقة وعناصره

الفنية من فخامة وقطر، عقده يُقدر بـ 1.11م وفتحته 0.94م وهي نفس فتحة عقد محراب أولاد الإمام الذي يُقدر قطره بـ 1.21م.

وإطار محراب سيدي بلحسن شبه مربع يتوسطه عقد حدوي يحيطه شريطان زخرفيان الأعلى مفصص والأسفل أملس بينهما امتداد تشغله سنجات عددها 23 سنجة بعضها زخرف بسيقان نباتية ومراوح نخيلية دقيقة، بينما يحيط إطار المحراب شريط زخرفي من النقوش الكتابية بالخط النسخي يلتقي عند منبت العقد بشريطين أخرين يمين ويسار المحراب، وتختلط الزخارف الكتابية بالعناصر النباتية وتقترب الأشرطة ببعضها وتتجاور ،وهو نفس ما يقال بالنسبة لأركان العقد، ويحيط الشريط الكتابي أعلى العقد شريطين أخرين بزخرفة كتابية بالخط النسخي على أرضية نباتية يعلوه قمريات جصية مخرمة بعنصر الأطباق النجمية[117].



(11) مسجدا سيدي بلحسن وأولاد الإمام بالجهة الغربية من وسط المدينة

<u>القباب:</u> تعد القبة مظهرا من مظاهر الفخامة في العمارة المرابطيةو الموحدية ويخلو المسجدان من القباب أمام المحراب .وما القباب الموجودة بالمسجدين إلا تلك التي ترصع المحاريب الداخلية .

<u>المآذن:</u> بنى الزيانيون المآذن لمساجدهم كما بنوا مآذن لمساجد أخرى قبلهم كانت تخلو منها ، وتتميز المآذن الزيانية

بارتفاع متوسط وأقسام متوازنة أبعاد متناسبة وتخضع للطراز المغربي الأندلسي المؤلف من برج سفلي يعلوه جوسق مغطى بقبية صغيرة وقسم البرج السفلي إلى أجزاء بحطات أو أحزمة من الآجر أو من الزليج يختلف حجمها من مئذنة إلى أخرى ويتألف البرج السفلي فيها من سلم صاعد حول نواة مستديرة على شكل دورات أركانها مغطاة بأقباء متقاطعة أما الدرج ما بين الإنكسارات فمغطى بقبو برميلي .

ويتميز المظهر الخارجي لمئذنتي الجامعين بزخرفة وفقا للنظام الموحدي الذي نجده في مئذنة حسن بالرباط أو القصبة بمراكش أو مئذنة الكتبية، ويتخلل الأوجه الأربعة للمئذنة فتحات مزغلية للإضاءة والتهوية ويمكن تقسيم تلك الزخارف في أوجه المآذن إلى عدة أنواع:

1 . زخارف مؤلفة من تشبكة من معينات مثلما هو عليه الحال في سيدي بلحسن حيث تستند على بائكة معقودة بعقود حدوية مفصصة مشغولة في الحائط وينتهي البرج بشرفات مسننة مثلثة الشكل والنوع الثاني من الزخارف عوضت المعينات فيها بوائكة معقودة بعقود متداخلة أو مفصصة مثلما هو عليه الحال في أولاد الإمام ، ويرتفع جوسق مئذنة أولاد الإمام بـ 3.45م وطول

ضلعه 1م وزُخرفت أوجهه بحشوات مربعة أو مستطيلة يرصعها عقد حذوي أملس أو مفصص[118].

أما من حيث المميزات العامة لهذه المساجد فإنها صغيرة الحجم مقارنة بالجوامع السابقة كجامع القيروان والزيتونة وصيفاكس والجوامع المرابطية بالجزائر وتلمسان وندرومة ،ولاتكاد مساحتها تذكر أمام الجوامع الموحدية الكبرى وحتى المرينية كالمنصورة وسيدي بومدين وسيدي الحلوي[119].

إن الزيانيين لم يشيدوا في عاصمتهم الجوامع الكبرى ذلك أن تلمسان كانت قد حضيت قبلهم بجوامع كبرى كجامع أغادير وجامع تاكرارت . تلمسان وهما مسجدان كافيان لاستعاب عدد ضخم من المصلين وهو نفس ما يقال بالنسبة للجوامع المرينية في حي سيدي أبي مدين وحي سيدي الحلوي وكان تشييدهما لأسباب تتعلق بالتوسع العمراني للمدينة وازدياد الكثافة السكانية في هذين الحيين .

إن المساجد التي بناها الزيانيون كانت تهدف إلى تحقيق بعض الأغراض الدينية أو العلمية كتخليد ذكرى متوفى وهو جامع سيدي بلحسن الذي شيد لتخليد ذكرى وفاة السلطان أبي سعيد عثمان بن يغمراسن أو كملاحق لمدارس وأضرحة كمدرسة أولاد الإمام، ومن هنا فإن هذا النوع من المساجد يختص بتأدية الصلوات

الخمس اليومية العادية لطلبة المدارس واستاذتها أو لصلاة سكان الأحياء.

إن هذه المساجد يخلو مخططها من الصحن الأوسط الذي تتضمنه الجوامع وهي في ذلك أشبه بمسجد بوفتاتة بمدينة سوسة وجامع السيدة بالمنستير وجامع باب المردوم في طليطلة[120]

كما يتميز مسجد سيدي بلحسن وأولاد الإمام ببساطة تخطيطه المعماري فقد اكتفى كل منهما ببلاطات ثلاثة عمودية على جدار القبلة وهو النظام الذي يسود النمط المديني في المساجد الإسلامية وهو النمط الذي اتخذته معظم الجوامع الإسلامية مشرقا ومغربا نظاما لها وهو إرث حضاري للمغرب والأندلس مثلما عليه الحال في جامع الزيتونة وصفاكس والجوامع المرابطية والموحدية والمرينية سواء في تلمسان أو في المغرب الأقصى.

ومن بين مميزات هذين المسجدين خلوهما في الداخل من العقود المفصصة في البلاطات و الأروقة وهو تأثير أندلسي والمعروف أن العقود المفصصة جاء بتأثير من الأندلس لتفوقها في هذا المجال معماريا وفنيا[121] حيث أن هذه المساجد لم تستفد من هذا العنصر الوظيفي والزخرفي.

ومع ذلك فإن هذه الفصوص في العقود استغلت في المآذن غير أن أهم ميزة في الفن الزخرفي الزياني هو الاستخدام الواسع

للخزف في زخرفة المآذن، والزخارف الخزفية هي تلك الزخارف التي يـُعبر عنهـا في المـصطلح بالزلـيج وهـو أسـلوب جـديد في زخرفـة العمائر بدأ منذ القرن 6هـ/12م ليبلغ قمة ازدهاره في القرنين 7. 8هـ/ 13 . 14م واستخدم في المئذنتين استخداما واسعا ، وهو على ثلاثة أنواع[122]: زليج على هيئة قطع مطلية باللون الأخضر والأبيض والأسمر المنغنيزي ، وزليج آخر يطلق عليه اسم القيراطي[123] تحريف لكلمة القرطبي وهو عبارة عن قطع مربعة من الخزف لايتجاوز طول ضلعها 2سم وآخر نوع للزليج هو أشبه في حجمه وشكله بالنوع الثاني ولكنه طُلي أو زخرف بالبريق المعدني ولم يكن استخدام البريق المعدني جديدا بل هو موجود في الموروث المغربي في تلك البلاطات التي تزين إطار محراب جامع القيروان المجلوبة له خصيصا من بغداد بإيعاز من الأمير الأغلبي زيادة الله (202 . 224هـ/ 817 . 838م)[124] وهو نفس ما عثرنا عليه في قلعة بني حماد[125] من القطع الخزفية ذات البريق المعدني ،والمستخدم في جوسق مئذنة قصبة مراكش بألوان متعددة وليس بالبريق المعدني، وأهم تلك الألوان :الأخضر والأبيض المعروفين في العصر الموحدي،والسمر المنغنيزي والأصفر الباهت ونادرا اللون الأخضر الفاتح والغامق[126]

الهوامش

(1)A.dhina, royaum abdelouaid le.., o.p.u.,alger,1985,p.31.

(2) ابوعبدالله محمد بن أبي بكر الزهري،كتاب الجعرافية،تحقيق محمدحاج صادوق،القاهرة،د.ت،ص.113 . 114.

(3)ابو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب، جزء من كتاب المسالك والمالك،نشر دو سلان، باريس 1965،ص.77.

(4)عبدالرحمن بن خلدون،كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان 1983،مج.6،ص.157.

(5)(ابوعبدالله محمد بن ابي بكر الزهري،مصدر سابق،ص.113).

(6)ابن ابي زرع، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ابسالا 1843،ص.8، السلاوي ، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج.1، تحقيق الأخوان،محمد وجعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء 1954،ص.143.

(7) Histoire des beni Zeiyan roiS de tlemcen, paris 1852, J.J.L.Bargés, p.LXI, LXII, LXIV.

(8)ابو عبيد البكري، مصدر سابق،ص.76.

(Piesse et Canal, les villes d'algerie : Tlemcen.)

(9)ابن عبدالحكم،فتوح مصر والمغرب،ص.265 . 266.ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب،ج 1،صذ21 . 23، المالكي، رياض النفوس،ص.21عبدالرحمن بن خلدون كتاب العبر، جـ 7، ص.156).

(10) ابن قتيبة، الإمامة والسياسة،،ج 2، القاهرة 1963،ص. 58 . 68،ابن عذاري المراكشي، نفس المصدر جزء 2،ص.4 . 5،والجزء 1،صص.39 . 40، د.السيد عبدالعزيز سالم، المغرب الكبير جـ 2، العصر الإسلامي،دار النهضة العربية ،

بيروت ـ لبنان 1981، ص.271،موسى لقبال، «تيار الفتح الإسلامي في شمال إفريقيا ونتائجه » في/الجزائر في التاريخ،ج.3،العهد الإسلامي،المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر 1984،ص.ص.47. 52،49 ـ 56.

(11) عن الحركة الإدريسية لتلمسان وضمهم لها، انظر/ السلاوي، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،ج 1، ص.143 ـ 155.

(12) يحي بن خلدون،بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، تحقيق الدكتور عبدالحميد حاجيات، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر 1980، ص.90.

(13) ابو عبدالله محمد الصنهاجي، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تحقيق وتعليق جلول أحمد البدوي،المؤسسة الوطنية للكتاب، 1954،صص.17 ـ 51.

(14) عبدالرحمن بن خلدون،العبر،مج 6،،صص.349 ـ 365.،رشيد بورويبة، الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها،ديوان الامطبوعات الجزائرية، الجزائر 1977.

(15) ابن ابي زرع، مصدر سابق، صص.87 ـ 110.،عبدالرحمن بن خلدون، نفس المصدر، مج6، صص. 373 ـ 389.

(16) يحي بن خلدون، نفس المصدر، ص.91.

(17) ابن أبي زرع، نفس المصدر، صص.110 ـ 183، عبدالرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، مج6،صص.464 ـ 572.

(18) عبد الرحمن بن خلدون، العبر، مج. 6، ص520 ، مج. 7، ص160 ـ 161).

(19) ولي أبو زكريا، على افريقية للخليفة الموحدي المامون سنة 626 هـ / 1227 م ، متخذا من إلغاء المأمون لتعاليم الإمام المهدي بن تومرت، وإسقاطه لمذهب الموحدين بشعاراته ورسومه ذريعة للعصيان وسببا مباشرا للإستقلال بولاية افريقية، انظر :
عبد الرحمان بن خلدون، العبر، مج 6 ،ص 593 ـ 595 .

G . Marçais, La berberie Musulmane et l'orient au moyen âge , Paris 1946 , P.279, note n°2. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، جـ 2 ، العصر الإسلامي،بيروت ـ لبنان 1981 ص 876 . 875 .

(20) عن وصول قبيلة بني عبد الواد إلى التنفذ في تلمسان ثم حكمها وتولية يغمراسن بن زيان عليها من قبل الخليفة الموحدي المأمون، وكذلك استقلاله بالمغرب الأوسط، انظر ذلك في :

يحي بن خلدون، مصدر سابق،ص.199 .200 .

محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في شرف بني زيان ،تحقيق محمود بوعياد، الجزائر 1985 ،ص . 112 . 113 .

(21) عبد الرحمن بن خلدون،العبر،مجـ7،ص458ـ459، انظر ايضا : السلاوي،مصدر سابق،جـ3،ص80 .

(22) عن تفاصيل هذا الحدث والمعاهدة وشروطها أنظر : عبد الرحمن بن خلدون،العبر،مجـ7،ص201 485 . 489 . يحي بن خلدون، المصدر قبله جـ1، ص 211 .

(23) ابن الأحمر، مصدر سابق، ص.26، التنسي، مصدر سابق، ص.146 . السلاوي، مصدر سابق، جـ 3، ص.125 . 126، يحي بن خلدون، مصدر سابق، جـ 1، ص.219.

(24) انظر تفاصيل الإتصالات والمراسلات مع ملوك وأمراء الدول في/ ابن مرزوق، مصدر سابق، ص.402 .407، السلاوي،مصدر سابق،جـ 3، ص. 127 .131 .140 .152.

(25) ابن مرزوق، نفس المصدر، ص. 402 . 407.

(26) ش.أ. جوليان،مرجع سابق، ص.233..

يحي بن خلدون، مصدر سابق،جـ1، ص237، 241، د عبدالحميد حاجيات، ابو حمو موسى الزياني، ص25.

(27) عبدالرحمن بن خلدون، العبر، مجـ 6،ص817 . 818،وانظر ايضا تفاصيل ذلك في/ نفس المصدر، مجـ 7، ص570 . 574، د. مصطفى ابو ضيف، مرجع سابق،ص 190.

(28) ا نظر تفاصيل ذلك في/ عبدالرحمن بن خلدون، العبر، مجـ 7، ص591 . 592. يحي بن خلدون، مصدر سابق،جـ1،ص 242 . 243.

(29) عبدالرحمن بن خلدون، العبر، مجـ 7، ص252 . 253، السلاوي، مصدر سابق، جـ 3،ص 182.

❖أول مرة سقطت فيها تلمسان في يد أعدائها كان سنة 640هـ/1242م بمقدابي زكريا الحفصي،انظر ذلك في/يحي بن خلدون، مصدر سابق،ص215.

(30) انظر تفاصيل ذلك في/ التنسي، مصدر سابق، ص157 . 159، د عبدالحميد حاجيات،ابو حمو موسى الزياني،ص 83 . 86، انظر بتصرف عن/ عبدالرحمن بن خلدون، العبر، مجـ 7، ص255 . 258.

وبتصرف عن/ د عبدالحميد حاجيات، «إحياء الدولة الزيانية »،في الجزائر في التاريخ، جـ 3،العصر الإسلامي،ص403 . 405.

يحي بن خلدون، مصدر سابق،جـ 1،ص246، التنسي،مصدر سابق،ص154، J.J.Bargès, Histoire des beni zeiyen,P. 64.

(31) د. السيد عبد العزيز سالم،مرجع سابق، ص 715 ، J.J.Bargès, Histoire des beni zeiyen,P. 182_183.

(32) عبدالرحمن بن خلدون،مصدر سابق، ص 507،520، مجـ 7، ص 159، د. عبدالله علي علام، مرجع سابق ،ص 287.)

(33) حسن الوزان (المعروف بليون الافريقي)، وصف افريقيا، ج2،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي،بيروت - لبنان، ط2، 1983 ،ص17.

(34) محمد العبدري البلنسي، الرحلة المغربية،تح. أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب الجزائرية الجزائر د.ت ص.9

(35) قام بارجيس بوصف المدينة وصفا مفصلا اعتمادا على مخطوطة قديمة،انظر ذلك في J.J.L Bargés, / tlemcen,ancienne capitale du royaum e de ce nom ,dupart, paris 1959,pp.182_205.318-340.

(36) عبدالرحمن بن خلدون، العبر،مج.7،ص.161 . 162.

(37) G.marçais, les villes d'art célébre : ,tlemcen,paris,L.R.laurens 1950,pp.21_22..0

(38) محمد عبدالستار عثمان،المدينة الإسلامية،عالم المعرفة، الكويت 1988،ص.115.

(39) الإدريسي،المغرب العربي، من كتاب نزهة المشتاق،حققه محمد حاج صادق،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1983،ص.101.

(40) ابن عبدون، إشبيلية في أوائل القرن الخامس الهجري.

(41) بدرو شالمتيا،الأسواق، في كتاب / المدينة الإسلامية، اليونسكو 1983ص.111

(42)1er et d'abou tachfin 1er Atallah Dhina, le royaume abdelouadid à l'époque d'abou hammou moussa
O.P.U. alger 1985,P.163.

(43)Atallah Dhina,ibid,p.162,206.

(44) بدرو شالمتيا، مرجع سابق، ص.116

(44*) يحي بن خلدون،بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد،تقديم وتحقيق د.عبدالحميد حاجيات،المكتبة الوطنية بالجزائر،الجزائر 1980، ص.108.

(45) القرآن الكريم، السورة ...، الآية....

(46) محمد عبدالستار عثمان، مرجع سابق، ص.135

(47) الادريسي، مصدر سابق، ص.102.

(48) عبدالرحمن بن خلدون، مصدر سابق، مج. 7ص.159 .160.

(49) G.Marçais, les monuments arabes de tlemcen,fontemoigne,paris 1903,p.19_25.

(50) يحي بن خلدون، مصدر سابق، ص.207.

(51) G.marçais,les villes d'art célébre, tlemcen,p.54.

(52) ابو عبيد البكري، مصدر سابق، ص.76.

(53) يحي بن خلدون، مصدر سابق، ص.128،106،89 .129.

(54) إسماعيل العربي، المدن المغربية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984،ص.136 .137

(55) G. et W. marçais, les monuments.,p.125.

(56) R.Bourouiba,L'architecture militairede l'algerie médievale,O.P.U. Alger 1983, p.104.

(57) J.J.L.Barges, Notice sur la ville de tlemcen,in Journal Asiatique,1841.

(58) محمد عبدالستار عثمان، مرجع سابق، ص.116

(59) ابن عذاري ،البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب،جـ 4، تح.د. احسان عباس،دار الثقافة ، بيروت ـ لبنان 1980. ص.14

(60) محمد نقادي،التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالاته الإجتماعية، رسالة ماجستير،جامعة تلمسان معهد الثقافة الشعبية 1991،ص.108.

(61) نيكيتا اليسييف،التخطيط المادي، في/ المدينة الإسلامية، ص.104.

(62)(عبدالعزيز الدولاتلي، مدينة تونس في العهد الحفصي،تعريب المؤلف ومحمد الشابي،دار سراس للنشر، تونس1981،ص.23 ـ 24.

(63) ابو عبيد البكري ،مصدر سابق، ص.76.

(64) العبدري، مصدر سابق، ص.10

(65) حسن الوزان، وصف إفريقيا، جـ 2، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر،دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان 1983، ص.20

(66) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قسم خاص بالغرب الإسلامي،تحقيق ابو ضيف احمد سوشيبريس، المغرب 1998،ص.117 ـ 118

(68) عبدالعزيز الدولاتلي، مرجع سابق، ص.70.

(67) نيكيتا اليسييف،التخطيط المادي، في/ المدينة الإسلامية، ص.104.

(69 يحي بن خلدون ، مصدر سابق، ص.216.

(70) محمد بن مرزوق، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق د. ماريا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص.447 ـ 448

(71) حسن الوزان، نفسه، جـ 2، ص.17 .

(72) حسن الوزان، مصدر سابق، 222

(73) حسن الوزان، نفسه، جـ 1، ص.222 . 223.

(74) إبن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القسم الخاص بوصف المغرب الإسلامي، تحقيق وتعليق د.مصطفى ابوضيف أحمد، ط 1، توزيع سوبريس، المغرب 1409 . 1988، ص.81 . 87، 114 . 117.

(75) د.فريد شافعي،العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر، القاهرة 1970، ص.191.

(76) عن المدخل المنكسر،انظر/ د.محمد عبدالستار عثمان، المدينة الإسلامية،عالم المعرفة، الكويت 1988،ص.342.

(77)cit , p.98.

J.Revault, L.Golvin, A. Amahan ,0p.

(78)A. bazzanz , Maison d'al-andalus,habitat médiéval et structures du peuplement dans l'espagne oriental ,madrid 1992 , p. 189.

(79), o.p. cit , p. 99.

J.Revault, L.Golvin, A. Amahan

(80) عن طبيعة الحجرات في المساكن المختلفة وفي دار المنصورة، انظر/ د.عبدالعزيز لعرج، المباني المرينية في إمارة تلمسان الزيانية، رسالة دكتوراه دولة،معهد الآثار جامعة الجزائر ، 1999 ، جـ 1،ص.415

(81), op. cit , p. 97.

J.Revault, L.Golvin, A. Amahan

(82)مرجع سابق،ص.188.يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ،تحقيق.عبد الحميد حاجيات ،الجزائر 1980،ص.210 . 219، 211.

(83), op.cit, p. 126 , 190.
A. bazzana

(84) محمد عبدالستار عثمان، مرجع سابق، ص.240 . 241.

(85) د محمد عبدالستار عثمان، مرجع سابق، ص.245.

(86) د سعيد دحماني، حول مخطط اغادير . تلمسان بين الفتح الإسلامي وحلول المرابطين،اعمال المؤتمر العاشر للآثار في البلاد العربية المنعقد بتلمسان . الجزائر،15 ـ18 نوفمبر 1982م، ص.7.

(87) بن أبي زرع، مصدر سابق،ص،8 .

(88) J.J.L . tlemcen capital,p. 165_166.

(89) ابن خلدون،مصدر سابق ،ص.157.

(90)J.J.L . tlemcen ancien capital,p.166

(91) يحي بن خلدون، مصدر سابق، ص.207.

(92) ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986 ،ص.145.

.(93)J.J.L. Barges , tlemcen ancien capitale ,p.164..

(94)د.سعيد دحماني، مرجع سابق، ص.5.

(95)G.Marçais, L'architecture,p.215.

.(96) Brosselard , les inscriptions arabes de tlemcen , R.AF .N° 14, 1858 , p86.Ch

(97) R.Bourouiba,Lart religieux musulman en algerie, alger s.n.e.d. 1973,p.71_2

(98) Ch.Brosselard , 0P.Cit, p.90_91

(99)L.Golvin , Essai ,T. 4, Fig 63_64

(100)G.et W.marçais, les monuments,P. 144_145.

(101)عن المؤثرات الأندلسية على المغرب عامة ينظر/
H.Terrasse, l'art hispano _mauresque des Origins au 13° siécle,vanOest,paris 1932 ,p.215

(102)G.Marçais, Larchitzcture,p.144

(103)G.Marçais.Manuel d'art Musulman.l'architecture...,t.1 AkPicard, paris1926,p.384

(104)G.Marçais,ibid,p.204

(105)R.Bourouiba,L'art religieux,p.80.

(106).. R.Bourouiba,L'art religieux,p82_84

(107)G.et W.Marçis, les monuments,p.146.

(108)Marçais , les monuments , p. 150,Fig.19. et W. G.,

(109) L.Golvin,Essai sur l'architecture religieuse musulmane ,T.4,éd. klincksieck,paris 1979,p.188

(110) L.Golvin,Essai ,T.4,fig . 63_64

(112) Ch.Brosselard, "Les Inscriptions..",in R. AF.1859,p.162 _163.

(113) عن إبني الإمام، انظر/ د.عبدالحميد حاجيات، الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان في/الجزائر في التاريخ.جـ.3، ص.440 . 441.

(114)R.Bourouiba,l'art religieux ,p.110_111.,G.marçais, l'architecture,p.272_273..

(115) .عن الوصف العام والمخذذ للمسجدين ، ينظر/ G. et W. Marçais , les monuments ,pp.171_172; 185_189.

(116) عن الوصف الداخلي العام للمسجدين، ينظر/ G.marçais, Tlemcen , p. 44_46.

(117) G. et W. Marçays , les monuments , p. 172_175.,pl.VIII

(118) انظر عن ذلك / R.Bourouiba , l'art religieux , p.124 _129.

(119) , G. Marçais, l'architecture,Fig.168 ,170,172

(120) R.Bourouiba, l'art religieux ,p.163 , L.Golvin,Essai,T.4 ,Fig.81.

(121) السيد عبدالعزيز سالم، مرجع سابق ،ص. 748 ، 749 ، 832 ، 833.

(122) R.Bourouiba , l'art religieux ,p.137_138.

(123) G. et W. Marçays , les monuments , p. 82

(124) م.س. ديماند، الفنون الإسلامية، ط.2، دار المعارف بمصر،القاهرة 1958، ص 177 ، وهو

(125)R.Bourouiba , l'art religieux ,p. 138.

(126) G. Marçais, l'architecture,332_336

مساجد الأحياء

ويقصد بها مساجد الصلوات الخمس أو مساجد الخمسة على حد تعبير القلقشندي على ما يذكر محمد عبدالستار عثمان (1)

غير صلاة الجمعة التي تقام عادة في المساجد الجامعة . وهي المساجد العامة أو العامية أو المساجد المختصة، ومساجد العامة مثلما يسميها بن خلدون في قولة :" فهي التي يبنيها أهل الشوارع والقبائل في شوارعهم وقبائلهم، وأمر هذه المساجد راجع إلى جيرانها من السكان وهي لاتحتاج إلى نظر الخليفة أو السلطان" وتكون الإمامة فيها لمن اتفقوا عليه ورضوا به إماما، وليس لهم بعد الرضا به أن يصرفوه عن الإمامة إلا أن يتغير حاله بإخلال في شروط عمله على أنه ليس لهذا الإمام المختار أن يستخلف نائبا عنه ويكون أهل المسجد أحق بالإختيار (2).

وتعدّ مدينة تلمسان من بين أكثر المدن الجزائرية زخما بمساجد الأحياء، فهي تشتمل على عدد كبير منها ، ولايخلو حيا من أحياء المدينة دون أن يشمل على مسجد منها وهي في ذلك لاتقل عن المدن المغربية الأخرى الشهيرة كالقيروان وفاس ومراكش من حيث كثرة مساجدها (3) .

تتميز هذه المساجد بصغر الحجم والإهمال شبه المطلق لكثير منها من حيث المحافظة مثل مسجد القران الكبير ، وغياب الدراسات التاريخية والأثرية حولها، فضلا عما تتعرض له باستمرار من التهديم والتشويه الناتج عن الرغبة في التجديد والترميم، فضلا عن اختلافها معماريا وفنيا من حيث التعبير المعماري عن النظام المعماري للجوامع الكبرى.

وتتخذ تلك المساجد أماكن لها في الأحياء مختلفة تخضع لطبوغرافية الحي وتركيب البنية التضارسية للمدينة وتوزيع المنشآت في النسيج العمراني والمعماري للحي نفسه. ولكنها في معظمها تشغل حيزا من الحي يشرف على فراغ متوسط الحجم قد يكون منتظما كما هو الحال في مسجد حي درب مسوفة، ومسجد حي باب زير ومسجد حي سيدي اليدون، أو أقل انتظاما مثل مسجد حي سيدي زكري ومسجد سيدي الجبار بحي باب علي ومسجد سيدي حامد بدرب سيدي حامد.

وبجانب الجامع أو بالقرب منه يقوم حمام الحي، وهو حمام بسيط أيضا في حجمه واتساعه لاقتصاره على سكان الحي، ذلك أنه لكل حي من الأحياء السكنية ساحة صغيرة يجاورها أو يشرف عليها مسجدا وحماما لاتصال كل منهما بالعقيدة والطهارة التي هي ركن من أركان العبادة وعمادها الصلاة.

لقد تعددت مساجد الأحياء وتنوعت في مخططاتها وأقسامها وتركيبها وعناصرها، وهو ما سوف يتضح من الدراسة النموذجية لبعض تلك المساجد متتبعين فيها دراسة تشخيصية للوقوف على صورتها الواقعية مستقرئين طبيعتها الإنشائية ونظامها المعماري من حيث التركيب والتوزيع لأقسامها وعناصرها المعمارية.

وسوف نركز في هذه الدراسة على ثلاثة مساجد من مساجد الأحياء ،هي: مسجد الشيخ أبي عبدالله محمد السنوسي، ومسجد باب زير ومسجد الشرفاء، وقد وقع اختيارنا على هذه المساجد الثلاثة لتنوع أنماطها التخطيطية وتنوع نظامها المعماري.

مسجد الشيخ أبي عبدالله محمد السنوسي (شكل 12 - 13)

وهو أبو عبدالله محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي، نسبة لمنطقة وقبيلة بني سنوس بالجهة الجنوبية الغربية من تلمسان على بعد حوالي 70كلم ، وكانت مسقط رأس عائلته الشيخ السنوسي، ولقبه السنوسي يدل على عدم تلمسانيته المولد والمنشأ.

وقد ولد الشيخ السنوسي سنة 832هـ/ 1428م ويمتد نسبه من جهة أبيه الحسين إلى الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وينقل بن مريم في البستان عن تلميذه الملالي التلمساني عبارات التبجيل لأبي عبد الله السنوسي في قوله : "... عالمها " أي تلمسان"

وصالحها وزاهدها وكبيرها الشيخ العلامة المتقن الولي الصالح ابن الشيخ الصالح الزاهد العالم الأستاذ المحقق المقري الخاشع أبي يعقوب يوسف السنوسي (4)

حصل الشيخ السنوسي علومه ومعارفه على عدد كبير من المشايخ، كان والده في مقدمتهم ومنهم الشيخ العلامة نصر الزواوي والشيخ العالم محمد بن تومرت الصنهاجي والشيخ الشريف أبو الحجاج يوسف بن أبي العباس أحمد بن محمد الشريف الحسني، أخذ عنه القراءات السبع، والشيخ أبو عبدالله محمد بن عيسى المغيلي الشهير بالجلاب، والعالم المعدل أبو عبدالله الحباك أخذ عنه علم الأسطرلاب والإمام محمد بن العباس الذي أخذ عنه الأصول والمنطق والفقه والبيان، وكذلك أخذ على العالمين الحافظ أبو الحسن علي بن محمد التالوتي الأنصاري أخوه لأمه قرأعليه الرسالة والواي الكبير الصالح الحسن بن مخلوف الشهير ب...... المزيلي الراشيدي، انتفع به كثيرا ، وممن أخذ عنهم أيضا أبو القاسم الكنباشي والإمام الورع ابو زيد الثعالبي الذي قرأ عليه الصحيحين من كتب الحديث ، كما تعلم عن الإمام العلامة الزاهد الولي ابراهيم التازي وعن الشيخ الصالح ابو الحسن القلصادي الأندلسي الذي أخذ عنه الفرائض والحساب.

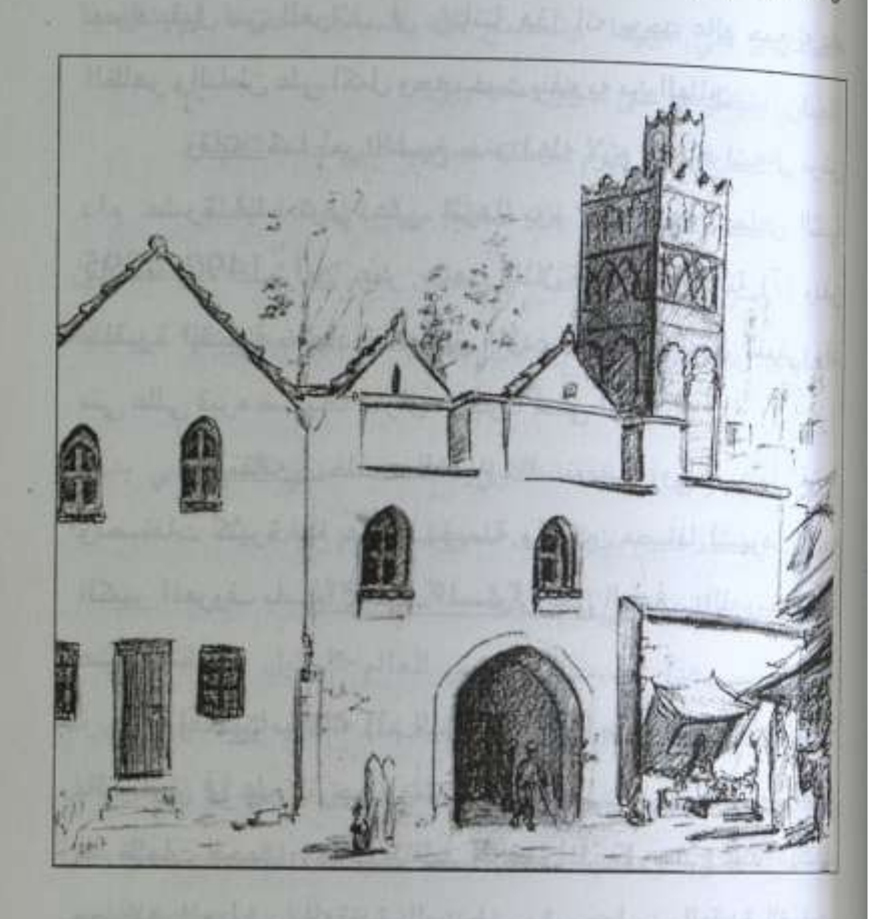
وتميز الشيخ السنوسي بالإجتهاد وحب العلم ونشره حتى صار من كبار العلماء وفاق كثير من أقرانه ومعاصريه في تلمسان وغيرها وانتفع بعلمه خلق كثير .

سيرته العلمية :

تتضح معالم شخصيته أبي عبد الله محمد السنوسي العلمية من خلال ما أورده ابن مريم نقلا عن تلميذه الشيخ الملالي، قوله : "... أما علومه الظاهرة فله فيها أوفر نصيب، وجمع من فروعها وأصولها السهم والتعصيب ، لايتحدث في علم إلا ظن سامعه أنه لايحسن غيره لاسيما علم التوحيد والمعقول، شارك غيره في العلوم الظاهرة وانفرد بالعلوم الباطنية، بل زاد على الفقهاء معرفة حل المشكلات لاسيما في التوحيد، لا يقرئ في علوم الظاهر إلا خرج منها إلى علوم الآخرة لاسيما التفسير لكثرة مراقبته وخوفه لله تعالى كأنه يشاهد الآخرة بين يديه ، وسمعته يقول ليس علم من علوم الظاهر يورث معرفته تعالى ومراقبته إلا علم التوحيد، وبه يفتح له في فهم العلوم كلها وعلى قدر معرفته بالله يزداد خوفه منه تعالى وقربه منه ..." .(5)

ويواصل ابن مريم نقلا عن الملالي : " وهو أي السنوسي في علوم الباطن قطب رحاها وشمس ضحاها... يفر كثيرا إلى الخلوات يطيل الفكرة في معرفته حتى انكشفت له عجائب الأسرار وتجلت له الأبصار فصار من ورثة الأنبياء عليهم السلام جامعا بين الشريعة

والحقيقة على أكمل وجه، له لطائف الأحوال وصحائح الأقوال والأفعال ..." (6).



(12) جامع سيدي السنوسي بدرب مسوفة وهو أحد أحياء مدينة تلمسان القديمة

انتفاع الناس بعلمه وفضله :

ارتحل الناس إليه وتبركوا به، ويقول تلميذه : سمعته آخر عمره يقول من الغرائب في زماننا هذا أنه يوجد عالم جمع له علم الظاهر والباطن على أكمل وجه بحيث ينفع به من العالمين ...."

وفاته :كما أمر الشيخ بدنو أجله لازم بيته وفراشه في مرض دام عشرة أيام توفي على إثرها يوم الأحد 12 جمادى الثانية 895هـ/1490م عن عمر يناهز الثلاثة والستون سنة (7) ودفن بالمقبرة القديمة بمحاذاة الطريق المؤدي إلى حي العباد الفوقي، وقد بنى عللى قبره ضريحا مازال موجودا حتى اليوم .

مصنفاته :خلف الشيخ السنوسي وراءه علما غزيرا ومصنفات كثيرة بلغ عددها خمسة وأربعين مصنفا أشهرها شرحه الكبير المعروف باسم " المقرب المستوفي على الحوفي : ألفه وسنه تسعة عشر سنة .

وأشهر مؤلفاته (أم البرهين) وهو مصنف في العقائد المعروفة بالصغرى في علم التوحيد "ومنها: عقيدة أهل التوحيد والتمديد المخرج من ظلمات الجهل وربقات التقليد المرغمة أنف كل مبتدع عنيد" ، وكذلك مصنفه المعروف بالعقيدة الوسطى وشرحها ، والعقيدة الصغرى وشرحها ، ومنها " مختصر في علم المنطق وكذلك "إكمال الإكمال" وهو شرح على صحيح مسلم (8).

تشتمل مدينة تلمسان العتيقة على عدد كبير من مساجد الأحياء أو المساجد الصغيرة، وهي تخلو كلها من الفناء الأوسط كأحد الخصائص التي تميزها .وتخضع تلك المساجد جميعا في نظامها المعماري وتخطيطها على نمطين معمارين :

النمط الأول / تقوم بلاطاته عموديا على حائط القبلة .

النمط الثاني / وبلاطاته أفغقية موازية لحائط القبلة .

وسوف نقوم بدراسة نموذجين من كل نمط من النمطين السابقين، وذلك لكثرة المساجد من جهة وتشابهها فيما بينها من جهة أخرى

وسندرس في النمط الأول مسجد سيدي السنوسي بدرب مسوفة، ومسجد باب زير بالدرب المعروف باسم الباب .

مسجد سيدي السنوسي (شكل12- 13- 15)

نُسب هذا المسجد الصغير للعالم الجليل المجتهد الموحد الزاهد الشيخ السنوسي أبو عبدالله محمد الذي أتينا على سيرته العلمية فيما سبق ، وكان لهذا العالم أثر عميق وقوي في نفوس أهل تلمسان خاصتها وعامتها فأطلق اسمه على هذا المسجد، وبني على قبره في طريق العباد خارج أسوار المدينة قبة، تعظيما له واعترافا من أمته بفضله عليها .

يتميز هذا المسجد بالتخطيط البسيط، ويقع في درب أو حي مسوفة ، ومسوفة هي إحدى القبائل التي شكلت التحالف الصنهاجي للمرابطين (9)

ويشرف المسجد بواجهته من عل على شارع محمد مرابط او شارع معسكر قديما (شكل...) وذلك بمئذنته في الركن الشمالي الغربي منه، وبأربعة نوافذ للإضاءة والتهوية مفتوحة على البلاطات الداخلية للمسجد، أما النافذة الرابعة فقد فتحت على الميضأة الحديثة.

<u>مدخل المسجد</u> :يصعد للمسجد من باب مفتوح على رواق باب درب مسوفة ويتكون من مدخلين: الأول/ رئيسي قديم ويتصل بالميضأة القديمة ويعرج منه إلى بيت الصلاة عبر درج صاعد يوصل لقاعة الصلاة عدد درجات 13 ذات فتحات للتهوية والإنارة على شكل مزغلي والمدخل يعلوه عقد حدوي ارتفاعه 1.80سم واتساع فتحته 83سم، وقد جُعل المدخل ببابين نافذين لضيق درجهما، بحيث يستعمل أحدهما للوصول إلى بيت الصلاة، والثاني ينفذ منه لخارج بيت الصلاة

<u>بيت الصلاة</u> : وهو مستطيل الشكل (الشكل...) مقاساته العامة 11.85م× 8م، ويتالف من ثلاثة بلاطات عمودية على حائط القبلة، البلاطة الثالثة إلى يسار المحراب شغلت مساحة اكبر تعلو الميضأة الحديثة في الركن الشمالي الشرقي من المسجد بالطابق

الأرضي ، ومقاس البلاطات العمودية كالتالي: الأولى إلى اليمين المتصلة بالمدخل 2.80م×6.90م اما الثانية العمودية على المحراب مباشرة فاقل منها قليلا، إذ أن مقاساتها حوالي 2.90م×6.63م البلاطة الثالثة التي تليها المتصلة بالميضأة الحديثة فهي أكبر حجما 5.30م ×6.60م، ذلك أنها تعلو الميضأة المذكورة، ولكن يرجح أنها إضافة حديثة وأن هذه البلاطة كانت مساوية للبلاطة الأولى يمين المحراب.

وتفصل البلاطات عن بعضها بوائك معقودة بعقود حدوية عمودية ارتفاعها 1.90م وفتحتها عند منبتها 1.90م، وتقوم العقود على دعامات مربعة طول ضلعها 54سم وارتفاعها 1.90م.

ويحتوي الجدار المقابل للمحراب على عقدين حدويين جداريين ارتفاع كل منهما 2م، وربما استحدثا في الحائط لتخفيف الضغط العلوي والثقل على الأجزاء السفلية للمسجد.

ويتصدر جدار القبلة محراب مجوف مضلع الشكل خماسي بارز إلى الخارج يلي أحد الدروب الفرعية الضيقة لحي مسوفة يلي المدخل الرئيسي للمسجد مباشرة.

والمحراب معقود بعقد حدوي مشرع ارتفاعه من منبته 65سم والى فتحته 2.75م والتي عرضها 93سم، أما عمقه فحوالي 1.35م ويعلوه من الداخل قبيبة مضلعة ثمانية ارتفاعها عن الأرضية 2.30م

وتكاد واجهة المحراب تخلو من الزخارف إذا ما استثنينا إطارا جصيا مربعا بارزا.

ويتلقى المسجد الإضاءة والتهوية من نوافذ مفتوحة على مؤخره بالأجزاء العليا من هيكل سقفه الذي يتخذ هيئة جمالون أو هيئة منحدرة ويعلو واجهة المحراب أسفل السقف مباشرة شمسية جصية لإضاء هذه الجهة وتهويتها.

وقد غطت بلاطات بيت الصلاة بسقف على هيئة منحدرة تشبه هرم مجدوع غطي من الخارج بالقرميد النصف أسطواني.

الوقفية : وهي تشغل جزءا من حائط البلاطة الأولى يمين المحراب يسار مدخل المئذنة، وهي لوحة رخامية ترصع الحائط تحتوي على العقارات والأطيان التي أوقفت على المسجد لدوامه واستمرار وظيفته.

المئذنة : ويوصل إلى أعلاها بدرج ينفذ إليه من باب صغير يمين باب الدخول إلى بيت الصلاة عرضه 88سم وارتفاعه 1.60م. وتقع قريبا من الركن الجنوبي الشرقي من المسجد، تشرف من جهة الشمال على شارع بن خلدون من جهة الجنوب على درب فرعي ضيق لحي مسوفة، ويوصل إلى أعلى المئذنة بـ36 درجا من الآجر وعرض السلم نصف متر تقريبا يلتف حول نواة مسمتة والسلم مغطى في

أركانه بأقبية متقاطعة وفي امتداده بلأقباء أسطوانية، وقد فتحت على دوراتها شبابيك للإضاءة والتهوية على شكل مزاغل مسلوبة .

المظهر الخارجي للمئذنة :

تتكون مئذنة مسجد سيدي السنوسي من طابقين مربعين أو برجين مربعين على الطراز المغربي .ارتفاع البرج الأول حوالي 16م يعلوه جوسق مربع ارتفاعه حوالي 4م ، أما البرج السفلي فإن جزءه العلوي مقسم إلى ثلاثة أجزاء :

الجزء السفلي : يتكون فيه كل وجه من واجهات المئذنة من عقدين مفصصين خماسيين .

و الجزء الأوسط : يتكون من عقود متقاطعة متشابكة .

و والجزء الأعلى :يتألف كل وجه من المئذنة من بائكة ثلاثية العقود والعقود مفصصة بفصوص ثلاثة .

وينتهي هذا الطابق بشرفات مسننة بمعدل شرفتان في الوسط وشرفاتان في الأركان ويتضح من هذا الوصف مدى التناغم والتناسق والتوازن الفني في المظهر الجمالي للمئذنة، وهي سمة من السمات في المآذن المغربية منذ العهد الموحدي .

جوسق المئذنة :ويعلو البرج السفلي للمئذنة، وهو في حجمه يحقق البعد الجمالي لعنصر المئذنة في توازن أجزائها الإنشائية وعناصرها الزخرفية، ويتكون كل وجه من واجهاته الأربعة من عقد

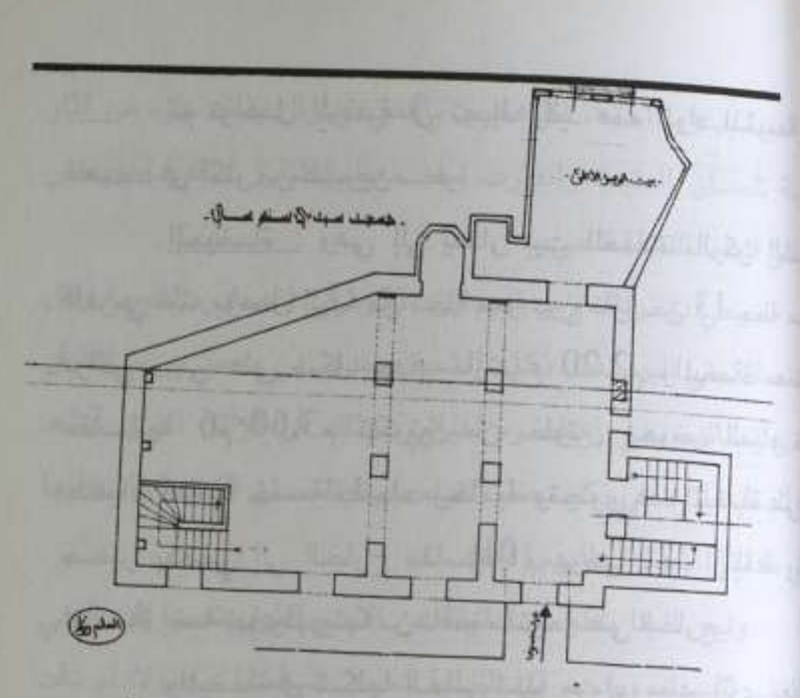
حدوي تعلوه قبيبة ، وينتهي الجوسق يشرفات بمعدل واحدة وسطى واثنان ركنيتان .

ملاحق المسجد :

اللحق الأول : ويشغل ساحة إلى يمين المحراب يوصل إليها بباب من البلاطة والعمودية الأولى لبين الصلاة يمين المحراب يرجح أن هذا الفراغ المفتوح اليوم كان مغطى في أصله ومستخدم كمكتبة او غرفة الإمام ويستبعد جدا أن يكون مشغولا بميضأة قديمة لعدم تناسبها موقعا ووظيفيا مع المسجد وبيت الصلاة نفسه .

الكتاب : ويقع إلى يسار مدخل درب مسوفة الرئيسي يبعد بحوالي 3م عن مدخل المسجد، والكتاب عبارة عن حجرة صغيرة تتسع لعدد قليل من الطلبة ويعلوها الجزء الجنوبي من المسجد حيث يأتي موقعها مباشرة المحجراب وبلاطته العمودية عليه .

الوقفية :وهي لوحة رخامية مربعة طول ضلعها 1.8م مكتوبة بخط نسخي مغربي تتصل حروفه وتتداخل وتتقاطع مع بعضها مما يصعب فك حروفها ورموزها وتتطلب الصبر والأناة لقراءتها وتبدأ بالبسملة:



(13) مخطط مسجد سيدي السنوسي بدرب مسوفة

1. بسم الله الرحمن الرحيم والسلام على سيد المرسلين

ثم تشرع في ذكر تقاييد الأحباس و .....عليه:

2 . أما بعد فهذا قيد حبس مسجد الشيخ البركة سيدي

محمد السنوسي

3 . الأولى من ذلك دار المؤذن التي عند باب المسجد مع جميع

الدار والكائنة

4 . في الزنقة الأولى من الدرب يمين الداخل في أربعة ... تحت

المسجد

ثم تواصل الوقفية في تعداد وقيد هذه المواد المحبسة على المسجد في آكثر من عشرين سطرا .

الميضأة : وهي إلى يسار بيت الصلاة بالركن الشمالي الغربي منته يوصل إليها من دخلة عبر درج نازل من 13 حطة محمية بواقي مبني على شكل جدار بارتفاع 2.20م والميضأة مستطيلة مقاساتها 6م×3.60م تتكوتين من خلوتين وحوض للمياه تعلوه حنفيات أمامها خمسة جلسات رخامية، وتحتوي هذه الميضأة على باب صغير يفضي إلى الخارج مقاساته1م عرضا و2م ارتفاعا وتتخذ الميضأة إضاءتها وتهويتها من نافذة مفتوحة على الخارج .

والميضأة في شكلها الحالي تخلو من أي مظهر أثري معماري أو فني، ولكنه يرجح أنها كانت المئذنة الأصلية للمسجد مع تغيير طرأ عليها إنشائيا وجماليا .

النموذج الثاني من مساجد الأحياء : مسجد درب باب زير (شكل14- 15):

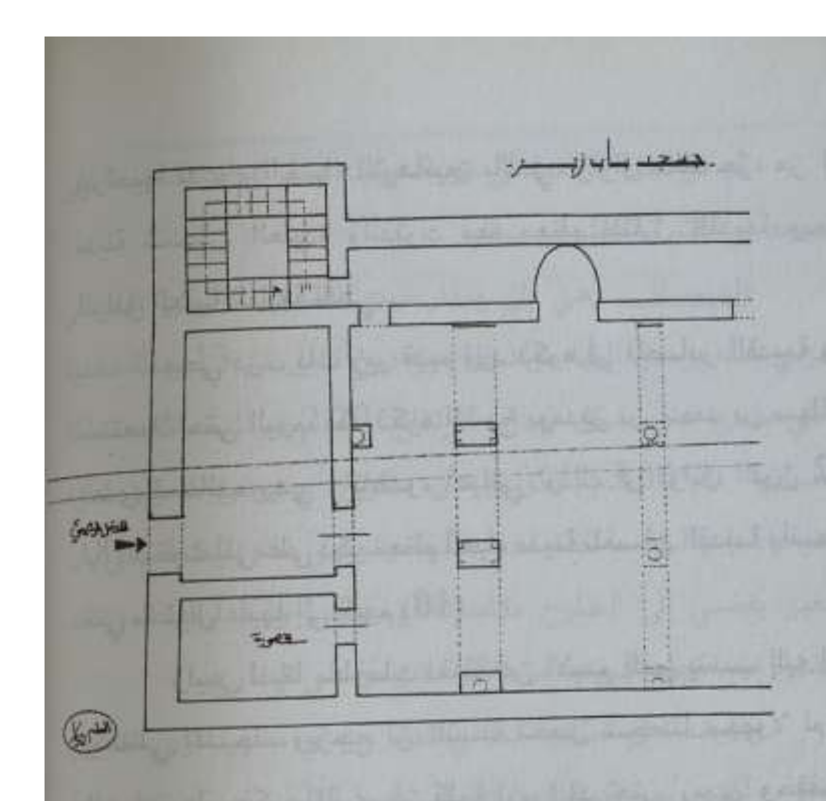
يقع المسجد بالجهة الشمالية الشرقية من وسط المدينة بحي من الأحياء يعرف باسم حي درب باب زير، ويتصل المسجد بالطريق المؤدي إلى حي سيدي الحلوي خارج أسوار المدينة القديمة (الشكل...) وقد هدم جزء من هذا الحي في العشرية الحمراء من تاريخ البلاد (1990 . 2000) سنة 1996م هدمته المنطقة العسكرية لتلمسان

ونواحيها بدعوى اختباء الإرهابيين بالحي، وأزال بذلك جزء من آثار مدينة تلمسان العتيدة واندثرت معه معظم المنازل القديمة وبعض المرافق العامة التابعة للحي .

وحي درب باب زير قديم ورد ذكره في المصادر القديمة وظل مستعملا حتى اليوم، فقد ذكره الشيخ بومدين بن محمد بن سهلة في إحدى قصائده وهي " ياضوء أعياني" وذلك في أوائل القرن 12هـ /18م حيث أتى على ذكر معظم أحياء مدينة تلمسان القديمة بأسمائها التي ما تزال عليها إلى اليوم (10)

وليس لدينا معلومات دقيقة عن الاسم الذي ينسب إليه الحي وبالتالي المسجد، ويرجح أن النسبة تخص شخصا مجهولا لم تأت المصادر على ذكره بالرغم من كلمة (زير) قد تعني "زيري" وخففت في النطق الشعبي ، كما أننا نجهل تماما تاريخ المسجد ولا متى أُنشئ .

والمسجد مثل مساجد الأحياء الأخرى صغير الحجم يقع في زاوية الشارعين .أما واجهته فتشرف على طريق قاور حسين بباب ارتفاعه 2.15م وعرضه 1م يوصل إلى رواق خاجي على شكل فناء خارجي مستطيل الشكل مقاساته 4.90م طولا و 2.15م عرضا في ضلعه الجنوبي حوض ماء صغير مقاساته 1.90م×0.50م .ويتصل هذا الفناء الخارجي ببيت الصلاة بباب بنفس حجم المدخل الرئيسي ويقابله تماما .



(14) مسجد حي باب زير

المظهر الداخلي للمسجد :

تنخفض أرضية بيت الصلاة عن الفناء الخارجي بحوالي 40سم وشكله الداخلي غير منتظم، وهوشبه مربع مقاساته 8م×7.5م ويتألف من ثلاثة بلاطات عمودية على حائط القبلة غير متساوية أوسطها أوسعها ومقاساتها 7.5م×2.15م بينما البلاطتين الجانبيتين مقاساتهما 1.95م ×7.5م ويفصل فراغ البلاطات عن بعضها بائكتان تتألف كل منها من ثلاثة عقود حدوية تقوم على دعامات وأعمدة أشبه

بالدعامات . أما الدعامات فمقاساتها 46. 48سم وارتفاعها عموما حوالي 1.75م أما الدعامات الأسطوانية فقطرها حوالي 36سم وارتفاع مماثل للدعامات المربعة، وترتكز عقود بوائك البلاطات على وسادة مربعة وترتكز العقود في حائطي القبلة والمقابل له على دعامات حائطية بارزة .

<u>المحراب :(شكل 15)</u>

يتوسط البلاطة العمودية الوسطى، وهو مجوف نصف دائري فتحته 1.15م عرضا و 1.50م عمقا، ويقوم عقده الحدوي على عمودين مدمجين في الحائط ارتفاع كل منهمال 1.90م ويحتوي على واجهة جصية تكسوها مواضيع زخرفية مركبة تتكون من أشكال على هيئة عناصر هندسية من المربعات تتوسطها دائرة تحيط بزهخرة تحتضنها مراوح نخيلية وهي زخرفة حديثة .

وإلى يمين المحراب حجرة كانت عبارة عن مكتبة وحجرة الإمام، وإلى يساره باب يرجح أنه الباب الرئيسي للمسجد لاتصاله بباب مسدود في شكله وحجمه وتناظره عبر رواق صغير يفتح عليه باب المئذنة الواقعة بالركن الجنوبي الغربي من المسجد، وبالركن الشمالي الغربي من بيت الصلاة فراغ تشغله اليوم دورة مياه، ولكن يرجح أنها كانت من قبل حجرة لحفظ أثاث المسجد وحاجياته من الأفرشة والأبسطة ووسائل كل الإنارة .

وتحتوي جدران المسجد على نوافذ للإضاءة والتهوية، ثلاثة منها بالجدار الجنوبي مربعة الشكل طول ضلعها 65×65سم وأخرى تعلو المحراب في سمت السقف تقابلها في الجدار المقابل لجدار القبلة نافذة مماثلة،وهناك نافذتين أخريتين بالضلع الشمالي الشرقي تفتحان على الفناء الخارجي .

السقف: (شكل 12- 15)

سقف المسجد من الداخل بهيكل خشبي على شكل منحدر يتبع النظام المعماري للبلاطات في اتجاهها بشكل عمودي على جدار القبلة، ومن الخارج غطي هذا الهيكل بقرميد نصف اسطواني .

المئذنة: (شكل 15،12- 17)

وتقع بالركن الشمالي الشرقي تشرف بواجهتين على شارعي بني زيان وقاور حسين، ويصعد إليه بسلم دورات ذات 40 درجة بمعدل خمس درجات في كل دورة، ويغطي الزوايا قبة متقاطعة والدورات تغطيها أقباء أسطوانية وفي الدورة الأخيرة شغل في بدن المئذنة غرفة صغيرة لاستراحة المؤذن، ومنها إلى باب يفضي لسطح الطابق الأول للمئذنة .



(15) رسم تخطيطي لمئذنة مسجد حي باب زير

المظهر الخارجي للمئذنة :

تخضع المئذنة في طرازها إلى الطراز المغربي للمآذن المربعة، وهي شبيهة بمئذنة سيدي السنوسي ومآذن مغربية أخرى كثيرة ، يقدر ارتفاعها بحوالي 19م وارتفاع جوسقها بحوالي 5م .

وتتألف من طابقين : البرج السفلي/ ويتكون من ثلاثة أجزاء مثل مئذنة سيدي السنوسي .

يشغل الجزء السفلي في كل واجهة حشوة مستطيلة يتوسطها عقد مفصص ذي سبعة فصوص . أما الجزء الأوسط فيحتوي كل وجه من أوجه المئذنة على حشوة يتوسطها عقدين مفصصين يتألف كل منها من سلعة فصوص .

الجزء الأعلى ويتوسط كل حشوة من حشوات الأوجه الأربعة ثلاثة عقود مفصصة بدورها، ويتكون كل عقد بستة فصوص . وينتهي البرج الأول بشرفات مسننة ثلاثة منها في كل ضلع وواحدة في كل ركن .

الجوسق :وارتفاعه حوالي 5م ويحتوي كل وجه من أوجهه الأربعة على عقد سداسي، ويعلو الجوسق قبيبة صغيرة .

وتتميز المئذنة في أقسامها وحجمها وأجزائها بقوة وانسجام في طوابقها، وباتساق وتناسق في زخارفها المعمارية والفنية .

وتعدّ المئذنة إلى جانب مخطط المسجد من العناصر الأصيلة للمسجد ومن المظاهر الأثرية القديمة فيه .ولكن من جهة أخرى تعرض المسجد كبقية مساجد الأحياء الأخرى ومنها سيدي السنوسي إلى كثير من مظاهر التغيير والتشويه بحيث لم يبق من أثاره الأصيلة غير مخططه ومئذنته .

النموذج الثالث :

مسجد الشرفاء :والمسجد من المساجد الصغيرة أيضا ويقع في زاوية إلتقاء شارعي إخوان علالي وابن خلدون ونحن نجهل جهلا

كاملا التسمية والنسبة والتأسيس فمن هم الشرفاء الذين نسب إليهم المسجد؟ هل هم المرابطون الذين أسسوا تاكرارت أي تلمسان الحالية ؟ أم هم صلحاء وعلماء ومتصوفة أو زهاد، وهم الشرائح التي كان تلحق بهم هذه الأوصاف . ويمكن أن نستدل على ذلك من وجود شاهدي قبر بداخل المسجد في الجهة الشمالية الشرقية منه مما يدل على مكانة هذا المسجد التاريخية .

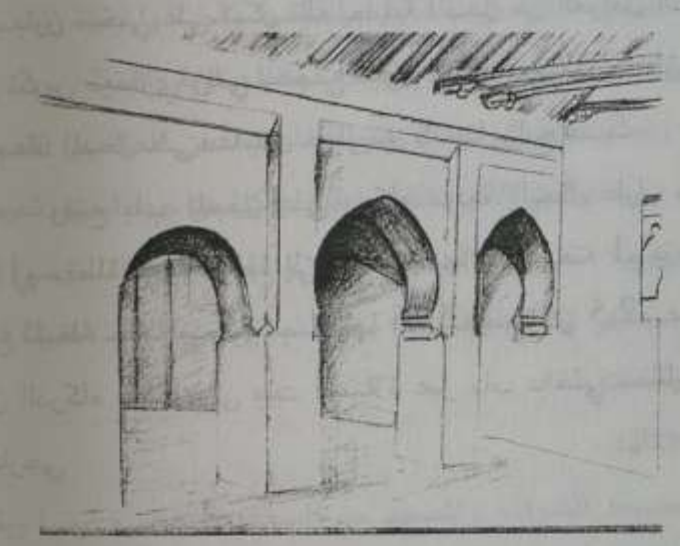
ويشرف المسجد بواجهة على شارع الإخوان علالي يتوسطها مدخل المسجد المعقود بعقد حدوي مشرع وسعته 1.90م وهو عقد مغلق يعلوه عقد آخر مفصص ومتقاطع ومتراكب ويعلو المدخل بتكوينه طنف بارز منحني على شكل ظلة لحماية المدخل من العوامل الجوية ، وهو تكوين معماري وفني يخضع لطراز المنشآت المعمارية الزيانية ، يقوم عقد المدخل على دعامتين جداريتين كسيتا بزليج حديث .

وفتح باب المدخل على دركاه مربعة الشكل طول ضلعها 1.75م مغطاة بقبو متقاطع إلى اليسار منها باب سعته 1م يؤدي إلى فراغ تشغله حاليا ميضأة مساحتها 2.76م طولا في 2.5م عرضا ، ومن الدركاه يوصل إلى بيت الصلاة عبر باب داخلي مماثل للباب الخارجي .

بيت الصلاة (شكل16)

ويتخذ شكلا مستطيلا مقاساته 8.80م ×7.80م ويتألف من ثلاثة بلاطات موازية لحائط القبلة مقاساتها متقاربة تتراوح بين 2.60م و 2.50م × 7.50م تفصلها عن بعضها بائكتان معقودتان بكل منهما ثلاثة عقود حدوية ترتكز على دعامات وسطى مربعة طول اضلاعها 0.62م وعلى دعامات حائطية في الجدارين الجانبيين تبوزان بحوالي 20سم وعرض كل منها ما بين 0.70 و0.40م

وترتفع العقود عن الأرضية بحوالي 3.85م واتساع فتحتها عند منبت العقد حوالي 2.40م وقد كسيت الدعامات ببلاطات خزفية حديثة



(16) بائكة من العقود الداخلية

المحراب :

يتصدر المحراب حائط القبلة ، وهو محراب مضلع خماسي سعته 1.75م وعمقه 0.90م ويقوم عقد المحراب على عمودين مشغولين يحملان عقدا حدويا ، ويرصع واجهة المحراب زخارف جصية وخزفية حديثة فضلا عن زخارف جصية أخرى بداخل المحراب تحتوي على عناصر نباتية وهندسية حديثة، وهناك كثير من هذه الزخارف بداخل المحراب وخارجه

التسقيف :

ويتبع التسقيف الداخلي والخارجي للمسجد طبيعة التخطيط في امتداد البلاطات موازية لحائط القبلة. فقد غطي سقف منحدر تلك البلاطات بطريقة منحدرة ومتجهة بطريقة عرضية توافقا مع امتداد البلاطات موازية لحائط القبلة ، أما من الخارج فإن السقف غطي بقرميد احمر نصف اسطواني

وإلى اليسار من بيت الصلاة بالجهة الشمالية الشرقية ساحة تشغلها عدة قبور ذات شواهد مكتوبة بخط نسخي مغربي تحتوي على عبارات الترحم وآيات قرانية وأدعية كثير من كتاباتها تآكلت فأصبح من العسير فك طلاسمها، ووضعت تلك الشواهد واقفة في حائط متراجع مما يوحي بأن الحائط تراجع رغبة في شغل مساحة

التراجع بالقبور وشواهدها مما يوحي أن القبور تالية لتأسيس المسجد.

ويخلو مسجد الشرفاء من المئذنة، وحل محلها هيكل بنائي أشبه ببرج مساحة قاعدته شبه مربعة 2.25م×2.50م تشغلها حاليا ميضأة، ويقع هذا الهيكل بالركن الشمالي الغربي من المسجد ويوصل إليه من باب إلى يمين الباب الداخلي لبيت الصلاة، وقد استخدم هذا الهيكل في جزئه العلوي كخلوة للزهاد والمتصوفة ومن يرغب في العزلة والإنعزال، ويبدو أن هذه الخلوة أنشئت لهذا الغرض في أصلها مما يعني أنها لا تعوض في هيأتها الحالية أي نوع من المآذن، وذلك دلالة على خلو المسجد من المآذن.

الدراسة التحليلية

تخضع مساجد الأحياء لمدينة تلمسان في نطاقها المعماري إلى مجموعة من المعطيات والمعايير العمرانية والاجتماعية والاقتصادية، وهي في لغتها المعمارية وخصائصها الفنية تعبر عن تلك المعايير.

فمساجد الأحياء من حيث موقعها، اتخذت لها موضعا يختلف من حي إلى آخر، وذلك حسب النسيج العمراني لبنية المدينة وتوزيع الأحياء السكنية والسكان فيها، وكذلك وفقا لطبيعة الموقع طبوغرافيا ومدى توفره على فراغات ومساحات مساعدة (11)

إضافة إلى أن مسجد الحي لايختص إلا بسكان الحي نفسه فقط وذلك أنه لكل حي مسجده، فهو لا يتطلب مساحة واسعة ولا يبنى مسجدا كبيرا لعدد من السكان محدود .

إن مسجد الحي من حيث المعيار الشرعي والحضاري تتحكم فيه نفس الشروط ويخضع لنفس الأحكام التي تتحكم في المسجد الجامع، فإذا كان الجامع منشأة جماعية وللجماعة، للقريب والبعيد، لسكان المدينة جميعا ولعابري السبيل والغرباء، فإن مسجد الحي من هذه الناحية يشبه الجامع من حيث أن المسجد لجميع سكان الحي، ومن هنا فإن بناء المسجد مثل بناء الجامع يتطلب مساهمة جميع سكان الحي بالمال والجهد والمواد، إلا في حالة عدم الاستطاعة لعلة من العلل.

وكثيرا ما يؤثر الوضع الطبوغرافي وازدحام المنشآت في الحي على بناء مساجد الأحياء ويظهر ذلك التأثير في اتجاهات المساجد ومخططاتها وعناصرها المعمارية .

ومساجد الأحياء لا تخضع لمخطط ثابت يراعى فيه الانتظام والتناسق والتوازن والانسجام (12)

وهي الخصائص العامة والشروط الرئيسية التي تتحكم في بناء المساجد الجامعة ، فمساجد الأحياء من حيث مخططاتها تخضع لنظام معماري في مسقطها يقوم على اتجاه بلاطاتها اتجاهين :

الأول/ اتجاه عمودي على حائط القبلة، وهو نظام وخصائص معظم المساجد الجامعة في الإسلام، وذلك بغض النظر على تساوي تلك البلاطات أم عدم تساويها في الاتساع .

الثاني/ وتتجه بلاطاته أفقية متوازية مع حائط القبلة، وهو نظام تخطيطي يقل في المساجد الجامعة

والنظام الأول هو النظام الذي بني عليه جامع الرسول بالمدينة المنورة وأثر بقوة في المساجد الجامعة التي أتت بعده في الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان (13) .

ولا شك أن للنظام التخطيطي للقيروان تأثير قوي على الجوامع التي أتت بعده ببلاد المغرب والأندلس، فإن جل الجوامع يخضع لهذا النظام التخطيطي في جامع القيروان، كجامع قرطبة وجامع تلمسان والكتبية بمراكش، كما اتخذت مساجد الأحياء هذا النظام التخطيطي نظاما لها مع اختلاف في الحجم وفي الالتزام بالقوانين الرياضية والقواعد الحسابية (14) .

مثلما يتضح في مسجد سيدي السنوسي .

أما النظام الثاني وهو الذي تتجه بلاطاته موازية ، فإن أول مسجد في الإسلام بني على ذلك الطراز كان جامع دمشق الأموي الذي بناه الوليد بن عبد الملك سنة 69هـ وهو النظام المعروف بالنظام الشامي، ونجد قلة من المساجد الجامعة التي بُنيت وفقا لهذا النظام

ومن الأمثلة التي بنيت على النظام الشامي جامع القرويين بمدينة فاس الذي أسس سنة 245هـ . وإذا ما استثنينا هذا الجامع فإننا لانجد ما يماثله في نظامه التخطيطي ببلاد المغرب والأندلس لإلا قلّة من المساجد وليس الجوامع

وقد اتخذت مساجد الأحياء من هذا النظام المعماري نظاما لها ومنها مسجد الشرفاء بمدينة تلمسان الذي سبق الحديث عنه، ويمكننا أن نذكر مساجد الأحياء بمدينة تلمسان التي تخضع للنظام التخطيطي الديني مسجد سدي السنوسي بحي مسوفة ومسجد باب زير بحي باب زير ومسجد سيدي الجبار بحي باب علي ، أما المساجد الأخرى التي خضعت لنفس النظام التخطيطي الشامل فضلا عن مسجد الشرفاء الذي ذكرناه فكان مسجد سيدي البناء بالقرب من سوق القيصرية ومسجد سيدي اليدون بالقرب من درب النعيجة

إنما يقال عن مساجد الأحياء بمدينة تلمسان من حيث موقعها ونظامه المعماري ينطبق على نفس المساجد بمدينة فاس القديمة

المحاريب :(شكل 17 لوحة 5- 6)

إن محاريب هذه المساجد ،وهي عناصر أساسية ومكانتها هامة ومتميزة في المنشآت الدينية فإنها تخضع لنمطين في التخطيط هما :

النمط الأول / محاريب مضلعة خماسية، وهو طراز مغربي متوارث من جامع القيروان الذي انتقل منه إلى الأندلس في جامع قرطبة ، وقد ميز هذا النوع من التخطيط محاريب المساجد الجامعة ببلاد المغرب والأندلس فضلا عن مساجد الأحياء وهو ما نجده كأمثلة سابقة في جامع سوسة الكبير وجامع صفاكس والزيتونة ، وفي جامع القلعة وقسنطينة الحماديين وجامع الجزائر وتلمسان المرابطين ومعظم الجوامع الموحدية بالمغرب الأقصى كتازا وتنمل والكتبية وجامع القصبة بمراكش (15)

وتوارثته المساجد الجامعة المرينية والزيانية مثلما نجده في جامع الحمراء وجامع فاس الجديد كما نجده في المساجد الجامعة الزيانية كسيدي بلحسن وأولاد الإمام وسيدي ابراهيم (16)

وهو النمط الذي اتخذته مساجد الأحياء بتلمسان وهو نفسه بمساجد الأحياء بفاس ومن أمثلته التلمسانية محاريب مساجد : سيدي السنوسي وسيدي اليدون وسيدي البناء ومسجد الشرفاء ومسجد سيدي الجبار .

والنوع الثاني من المحاريب في الجوامع والمساجد ببلاد المغرب هي المحاريب المجوفة الغائرة في حائط القبلة على شكل تجويفة نصف دائرية، وهو عنصر قليل الاستخدام في المنشآت الدينية ببلاد

المغرب والأندلس.. وقد استخدم بالمغرب في الجزائر وتونس بكثرة في العهد العثماني، وكان الأتراك هم الذين أعادوا إدخاله إليها (17)

إن مسجد الأحياء التي استحدثت عنصر المحراب المجوف النصف دائري مسجد باب زير (شكل ...) .

ومن الخصائص العامة لمساجد الأحياء في تخطيطها وعناصرها المعمارية مداخلها، وهي مداخل بسيطة صغيرة الحجم، وتفتح مصراعيها على بيت الصلاة، من أماكن مختلفة، وفي جل الحالات تقتصر على باب واحد للدخول والخروج وتتميز بخلوها من مظاهر الزينة والزخرفة وخلوها من الهيكل البنائي البارز الذي يجعل منها مدخلا تذكاريا، وهو ما نجده في مساجد الأحياء بمدينة تلمسان كمسجد سيدي السنوسي، وباب زير وسيدي الجبار وسيدي اليدون اما مسجد الشرفاء فقد احتوى على منظومة زخرفية شبيهة بالمنظومة الزخرفية في جامع سيدي ابراهيم .

أما من حيث العناصر المرتبطة بالجانب الإنشائي، فإن مساجد الأحياء تخلو من الأعمدة والتيجان، وهي عناصر ثمينة لاعتمادها على مادة الرخام ، وهي المادة والعناصر التي تستخدم في بناء الجوامع الرسمية أو المساجد الجامعة وإذا كانت تلك المساجد تخلو من الأعمدة الرخامية فإنها تستخدمها بصفة خاصة في حمل

عقد المحراب كما ؛ أالحال في سيدي أبي مدين وسيدي الحلوي وفي المساجد الزيانية (18).

فمساجد الأحياء مقتصرة في حمل العقود والسقف على الدعامات المبنية بالآجر أو الحجر وهو ما يتجلى في كل مساجد الأحياء بمدينة تلمسان . ودعاماتها إما مربعة أو مستطيلة، وذلك لكونها لاتحمل كل منها إلا منبتي عقدين من الجهتين، وبعض تلك الدعامات وضع عليها كتف حامل أو طبلة زيادة في التسوية والارتفاع مثلما نجده في دعامات مسجد باب زير. ودعامات مربعة لُبست بجص حول بعضها إلى شكل مستدير بدت كعمود.

أما العقود التي تحملها الدعامات فهي على نوعين رئيسيين:



(17) محراب مسجد حي باب زير

عقود حدوية (19): (لوحة 1- 2)

وهي العنصر المعماري الأصيل في عمارة المغرب والأندلس التي اختارته من بين بقية العقود المستخدمة في المشرق والعالم القديم وظل المغرب والأندلس أوفياء في عمارتهما لهذا العنصر المعماري حتى انضمت الجزائر فب بداية العصور الحديثة لحضيرة الدولة العثمانية. فدخل على عمارتها عقود أخرى أهمها العقد النصف دائري والعقد المنفرج، وهي من مظاهر التأثير العثماني على عمارة الجزائر مثلما يتضح ذلك في عقد محراب مسجد سيدي السنوسي وعقد محراب مسجد الشرفاء، فإن عقد المسجدين عقد منفرج يقل عن نصف دائرة في مسقطه وغير تام الاستدارة في مفتاحه.

أما من حيث التسقيف العام لمساجد الأحياء فإن مظهرها الداخلي يبدو على شكل هيكل خشبي مجوف منحدر، ومن الخارج يظهر على جذع هرم مقطوع منحدر يتمشى مع مناخ المنطقة المطير الماطر. (شكل 15،12- 17)

إن أهم عنصر معماري في مساجد الأحياء حافظ على أصالته المعمارية والفنية الجمالية التي تشترك بواسطته مع المساجد الجامعة، هي عنصر المئذنة، فإن هناك عدد من هذه المساجد يحتوي على مئذنة مبنية على الطراز المغربي، ومنها مسجدي سيدي السنوسي وجامع باب زير ومسجد سيدي البناء .

مئذنتا سيدي السنوسي وباب زير :لقد أتينا على تشخيص المظهر الفني الخارجي للمئذنتين فيما سبق . والمعروف أن المئذنة عنصر معماري مرتبط بالآذان والدعوة إلى الصلوات وكان المؤذن يرتقي درجات ودورات المآذن إلى أعلاها خمس مرات في اليوم بعدد الصلوات الخمس الشرعية (الفجر ، الظهر، العصر، المغرب، العشاء).

وقد شرع الآذان منذ الأيام الأولى للإسلام في المدينة ومكة ورافق انتشار الإسلام وبناء المساجد حتما حل في البلاد المفتوحة مشرقا ومغربا، وإذا كانت مآذن الجوامع والمساجد المبكرة في المشرق والمغرب قد اندثرت بتقادم الزمن وحتمي التجديد وضغط المسايرة للأساليب الحديثة، فإن واحدة منها على ،لأقل قد نجد من عبث السنين، و قهر الإنسان للمادة، وهي مئذنة جامع القيروان التي بنيت في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك وتعود لسنة 105هـ، وهي أقدم مئذنة مازالت قائمة من العهود المبكرة للإسلام في العالم الإسلامي (20) لقد أجمعن الأراء على أن فكرة طراز المئذنة القائم على التخطيط المربع كانت فكرة شامية حافظت المئذنة المغربية على أصالته على الأقل إلى بداية العصور الحديثة وانضواء بلاد المغرب تحت راية الدولة العثمانية، فدخلت عليه أنظمة معمارية جديدة للمئذنة في تخطيطها وتركيبها، وهي المآذن المضلعة المثمنة والقلمية الشكل(21) .

اتخذت مئذنة جامع القيروان نموذجا لمآذن المغرب منذ بنائها، فقد أثرت تأثيرا مباشرا على مئذنة جامع صفاكس التي بنيت سنة 381هـ/...م في العهد الزيري وعلى مئذنة قلعة بني حماد التي أسست حوالي 407هـ (22)

وكانت قبل ذلك قد أثرت على مئذنة جامع قرطبة التي شيدت في عهد هشام وعهد الحكم المستنصر (23)

لكن المآذن المغربية بدأت تشهد تطورات عميقة معماريا وفنيا من مئذنة قلعة بني حماد ومئذنة الحكم المستنصر بجامع قرطبة، واتجهت تلك التطورات إلى الشكل المعماري والمنظومة الفنية الجمالية لتبلغ أقصى تطور لها في العهد الموحدي مع مئذنة جامع تازا والكتبية وجامعي حسن في الرباط والكتبية والقصبة بمراكش(24).

وقد ركز المعمار المغربي اهتمامه في بناء المآذن على الجانب الإنشائي المعماري ليتواكب المظهر المعماري مع المظهر الفني الجمالي، وذلك بالإعتماد على القوانين الرياضية والقواعد الحسابية مستفيدا من التطور العلمي في مجال العلوم الرياضية والحساب، ويتضح ذلك في مظهر الانسجام والتوازن للمبنى، ويمكن التدليل على ذلك بثلاثة مآذن موحدية حققت الانسجام والتوازن في نسبها الجمالية الإنشائية من حيث التركيب العمودي لها ونسبة برجها السفلي بجوسقها العلوي

اتساعا وارتفاعا ونسبة ذلك كله بالحجم الكلي للمسجد، وهي مئذنة حسن في الرباط ومئذنة جامعي الكتبية والقصبة بمراكش.

لقد ورثت المآذن المغربية بعد الموحدين: المرينية والزيانية نفس المظاهر المعمارية والفنية، بل يمكن القول أن المآذن في هذه الفترة وخاصة من خلال القرنين 7- 8هـ/13- 14م بلغت أوج تطورها وقمة ازدهارها، فمن الناحية المعمارية حدث تناسب بين الطابقين الأول والثاني بطريقة شبه مثالية تتحقق نسبة الجمال فيها بشكل واضح وهي نسبة تصل إلى الربع 1/4 بمعنى أن ارتفاع الجوسق يتراوح بين 1/4 و 1/5 ارتفاع البرج، وأن مقاس قاعدة البرج والجوسق يتناسب بنفس النسبة مع ارتفاعها وهي نسبة 1/4 إلى 1/5.

كمئذنة سيدي السنوسي ارتفاع برجها يقرب من 16م وجوسقها يقدر بحوالي 4م بينما يقدر ارتفاع مئذنة مسجد باب زير بحوالي 19م وجوسقها بحوالي 5م وهي نسبة تتراوح بين 1/4 و1/5.

هذا من الناحية المعمارية، أما من الناحية الفنية فإن النظام الزخرفي في المئذنتين متقارب لدرجة التطابق في بعض الأوجه

فالمئذنتان يتكون برجها السفلي من ثلاثة أقسام: القسمان السفلي والأعلى متطابقان في عناصرها الزخرفية، ويتكونان من عقود حدوية مفصصة، وهي نفس العقود في القسم الأوسط بمئذنة مسجد

باب زير، أن هذا القسم الأوسط في مسجد سيدي السنوسي فتتكون من عقود حدوية متقاطعة.

وتتحقق ظاهرة الانسجام والتوازن والتناظر في المنظومة الزخرفية في مئذنتي سيدي السنوسي وباب زير.

فالأول/ قسمها الأسفل عقدان مفصصان يليهما ثلاثة عقود متقاطعة ويعلو ذلك كله ثلاثة عقود أخرى مفصصة، بينما الوضع الفني في مئذنة باب زير يتحقق معه ظاهرة الإنسجام والتناسب بصورة أعمق وذلك في تشكلها من عقد مفصص سفلي يعلوه عقدان مفصصان، ويعلو ذلك كله ثلاثة عقود بنفس النمط المفصص (الشكل.)

وبهذا التوزيع الفني للعناصر الزخرفية تتحقق ظاهرة الانسجام والتوازن والتناظر بمعنى تحقق الوحدة الفنية المؤدية إلى الوحدة الجمالية للعمل الفني.

. إن العقود المفصصة كظاهرة فنية زخرفية تعود لما قبل الإسلام في الزخارف الجصية الساسانية التي كانت تعطي واجهات المنشآت الدينية والقصور ، وقد انتقلت للزخارف الإسلامية مثلما يتضح ذلك في زخارف القصور الأموية ببادية الشام كقصير عمرة وقصر المشتى وخربة المفجر وقصر الحير الغربي.

ونجد نفس العنصر للعقد المفصص في زخارف منبر جامع القيروان الخشبي، وظهر كعنصر زخرفي في واجهة مئذنة قلعة بني حماد وفي المنشآت الدينية المرابطية في جامع تلمسان والقرويين بفاس (25) ثم تردد صداه بعد ذلك في جل المنظومة الزخرفية ببلاد المغرب والأندلس.

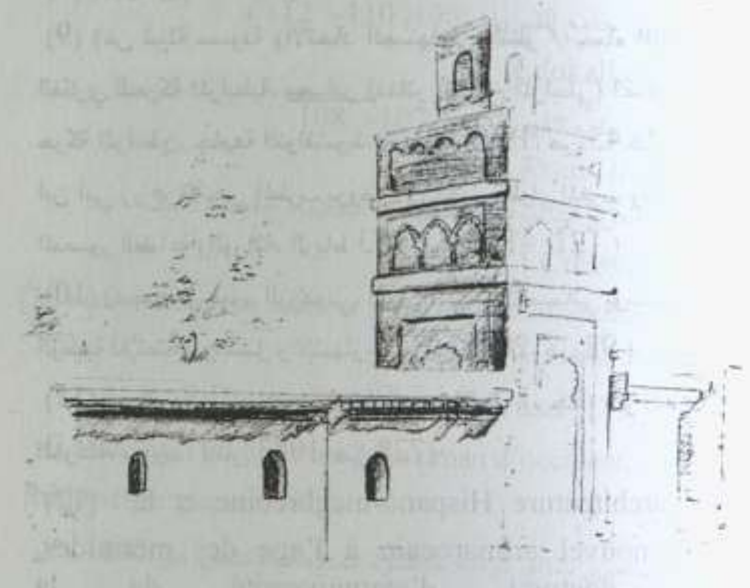
وبلغ أقصى تطوره وازدهاره في زخارف مآذن المساجد الموحدية ومحاريبها، في جامع حسن في الرباط والكتبية والقصبة بمراكش ومئذنة جامع اشبيلية.

وتلقفته العمائر الدينية المرينية الزيانية والحفصية، مثلما يتضح في مآذن مساجد تلمسان كأغادير والجامع الكبير وأولاد الإمام وجامع المشور وسيدي بلحسن، وسيدي بومدين وسيدي الحلوي (26) فضلا عن مآذن المساجد المرينية لمدينة فاس. كمئذنة جامع الحمراء والجامع الكبير بفاس الجديدة وجامع ابي الحسن والقرويين(27).

وبالرغم من تراجع المنظومة الزخرفية في المنشآت الدينية الزيانية خلال القرنين 9- 10هـ/ 15- 16م واتجاهها نحو الضعف، فإن آثار القرون السابقة وتقاليدها ظلت قائمة يلجأ إليها الفنان والمعماري ليستمد منها المواضيع والعناصر الزخرفية في المآذن

وغيرها مثلما يتضح في مئذنة سيدي عبدالرحمن ومئذنة جامع سيدي امحمد ببلكور (28).

أما العقد المفصص كعنصر معماري فبالرغم من الأفكار التي ترجعه لما قبل الإسلام فإن أصالته ظهرت في جامع قرطبة بالأندلس(29) ومنه انتشر لبقية مناطق الأندلس والمغرب والمشرق، تطور بدوره تطورا كبيرا تعددت فيه الفصوص من سبعة إلى أحد عشر إلى ثلاثة عشر وهكذا ، وقد أصبح على عمارة المغرب والأندلس منذ العهد الأموي ليزداد تعقيدا وتركيبا (30).



(17) مئذنة احد مساجد أحياء مدينة تلمسان

الهــوامش

(1) المدينة الإسلامية،عالم المعرفة ، الكويت 1988، ص.236.

(2) (عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ص.219، 220)

(3) (حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، جـ2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1992 ، ص.146)

(4) (ابن مريم، البستاني ، ص.238) .

(5) (ابن مريم، نفس المصدر، ص.239)

(6) نفســه

(7) (نفسه، ص. 242)

(8) (ابن مريم، نفسه)

(9) (عن قبيلة مسوفة والاتحاد **الصنهاجي، أنظر** / حماه الله بن السالم، الإطار الفكري للحركة المرابطية، مصادر (دفاتر التاريخ المرابطي) أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين، جامعة النواقشوط، موريتانا 1999، ص.45،هـ7، وعن مسوفة أنظر/ ابن أبي زرع، الأنيس المطرب بروض في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1973،ص.119- 121.)

(10) (محمد بن عمرو الزرهوني، ديوان الشيخ التلمساني بومدين بن سهلة، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار، الجزائر 2001، ص.92).

(11) عبدالرحمن بن خلدون، كتاب العبر، المجلد 1، جـ2، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت - لبنان 1983، ص.728)

(12) M.Terrasse,L'architecture Hispano-meghrebine et la naissanced'un nouvel artmarocain à l'age des merinides, thése de doctorat d'etatuniversité de la sorbonne,paris1979,p.350

(13) د.السيد عبدالعزيز سالم،المغرب **الكبير**، ج2، العصر الإسلامي، دار النهضة العربية ،بيروت لبنان 1981،ص.423.

H.terrasse,l'art hispano-mauresque ...pp.304,306 (14)

Terrasse, H. et Basset, H. (15)
Sanctuaires et forteresses almohades , 1932,
Collection Hespéris,. Larose,, Paris,.54,57,184-185

(16)

R.dokali, les mosquée de la periode turque à alger, alger (17)
s.n.e.d 1975,p.30

Bourouiba, R.L'art religieux musulman,p.112 (18)

(19) عن العقود الحدوية، ينظر/ د.احمد فكري ،جامع القيروان، ص.71- 81.
Golvin, L. *Essai sur l'architecture religieuse musulmane*
,p.2141970. éditions Klincksieck,, Paris

(20) (د.احمد فكري، جامع القيروان، 105، 110- 112).

R.dokali,op.cit,p.13. (21)

(22) د.احمد فكري، جامع القيروان، ص.107- 108
Golvin, L *Essai...t1,pp.56,58*

(23) د.السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، ج1،ص.323.

Creswell, K.A.C. (24)
The evolution of the minaret ,. Barlington Magazin 1926.p8

Golvin, L.Essai...,t.4,p.214 (25)

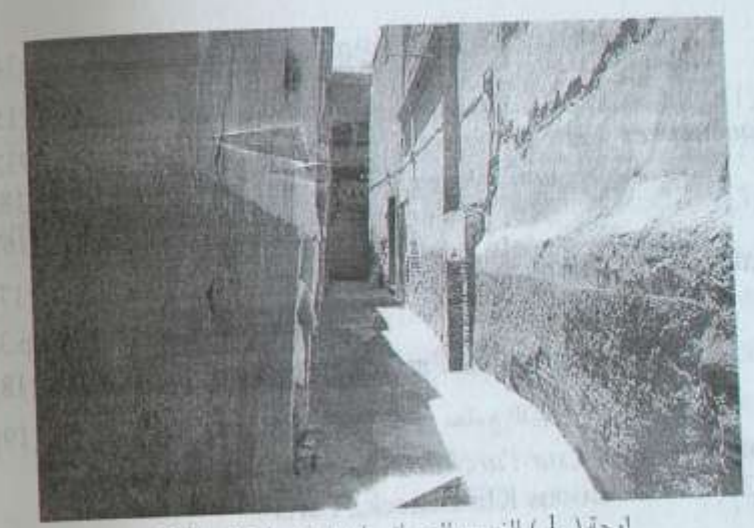
R.Bourouiba ,l'art religieux,P.179_182,198 .(26)

G.Marcais, l'architecture Musulman d'occident, p 432-435.(27)

ibid,méme page (28)

(29) د.السيد عبدالعزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة بالاندلس، ص.140

Golvin, L.Essai...,t.4,p.160 (30)



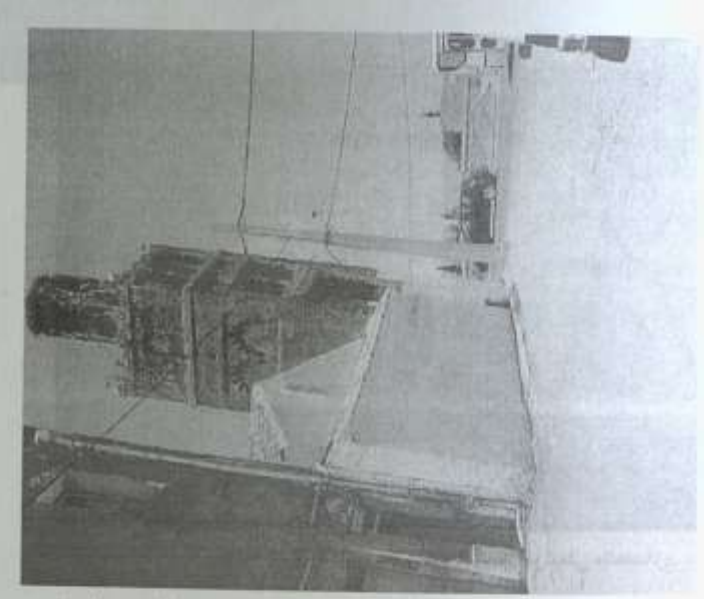
لوحة (1) النسيج العمراني لمدينة تلمسان أحد الأزقة



لوحة (2) مدينة تلمسان : زقاق مفتوح على طريق عام



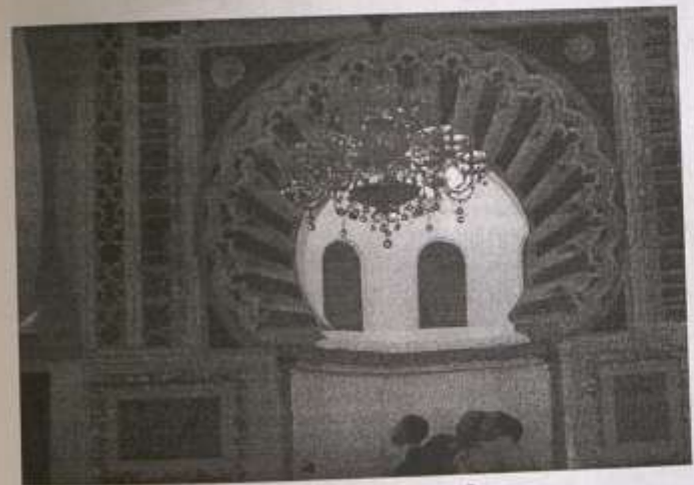
لوحة (3) احد مساجد الأحياء : حي سيدي اليدون وساحة الحي



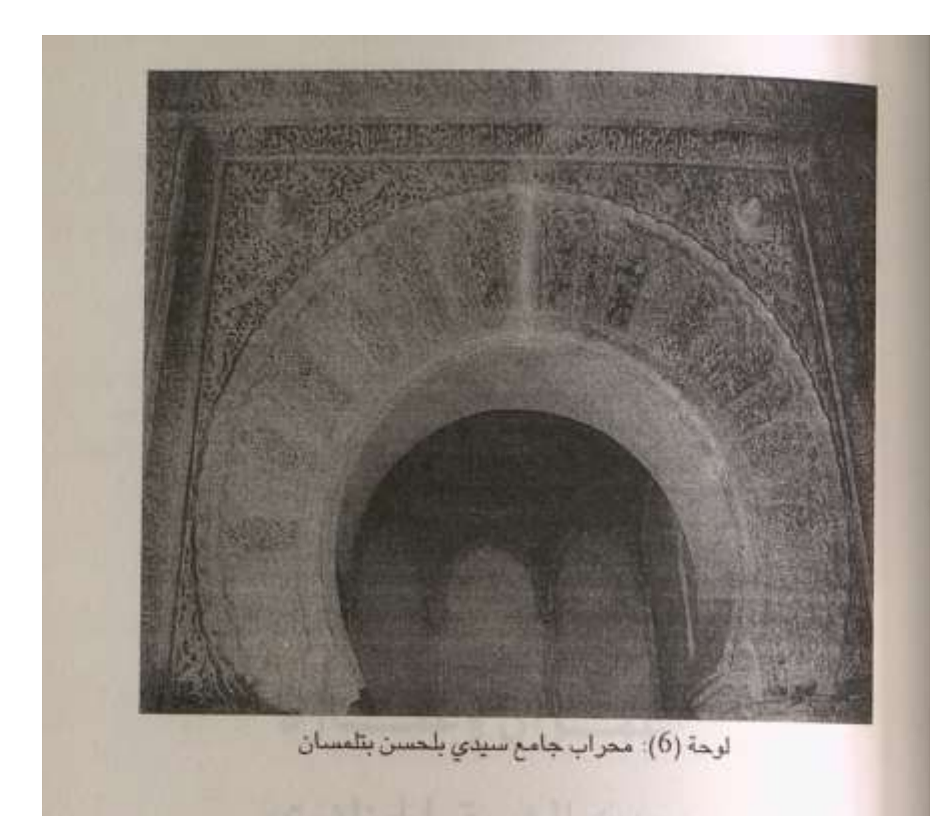
لوحة (4)مسجد حي باب زير – مسجد الحي ومئذنته وساحته



لوحة (5) عقد بفتحة لوضع القناديل للإضاءة الليلية قبل ظهور الكهرباء



لوحة (5): محراب الجامع الكبير المرابطي بتلمسان



لوحة (6): محراب جامع سيدي بلحسن بتلمسان

الفصل الثـــاني

عمـــران وعمــــارة
مدن الشرق الجزائري

- قلعة بني حماد
- قسنطينة
- ميلة

قلعة بني حماد

مقـدمة:

تمثل مرحلة التواجد الإسلامي في بلاد المغرب الأوسط (الجزائر)احدى الصفحات المشرقة في تاريخه، وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وذلك لما جاء به الفاتحون من فكر جديد لسكان المنطقة، يحثهم على التطور، والتحضر في جميع الميادين، وكانت نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة من المدن، والمراكز الحضارية التي تطورت، وازدهرت، وصدّرت الكثير من التأثيرات الفنية، والمعمارية، والعلمية الى مختلف المناطق من العالم الإسلامي آنذاك، ولقد تطرق لها الكثير من المؤرخين في كتاباتهم، نظرا للمساهمات الكبيرة التي أضافوها للحضارة العربية الإسلامية.

ومن الأمثلة التي نذكرها في هذا المقال، مدينة قلعة بني حماد الأثرية بالمسيلة، والتركيز على المخلّفات المادية التي تركوها هناك، ونقصد بها الآثار التي تشهد بحق عن مقدرة الفنان الحمادي وبراعته في مجال العمارة والفنون، بالرغم من أن معظم آثار القلعة لم تكتشف بعد، فهي من المدن المصنفة ضمن التراث العالمي لدى منظمة اليونيسكو.(UNESCO)

إن الدارس للآثار الحمادية، يستخلص بحق بأن ظهور الحضارة بأتم معناها في العهد الإسلامي بالجزائر يبدأ من قلعة بني حماد، فالحضارة الحمادية محلية جزائرية وأصيلة.

إن الهدف من هذه الدراسة، هو استنطاق الآثار الباقية بغية التوصل الى بعض الحقائق العلمية للحضارة الحمادية، مع التركيز على التأثيرات الفنية والمعمارية التي صدّرتها الى المناطق المجاورة، والدور الذي أدته في تاريخ الحضارة الإسلامية، رغم المدة القصيرة التي عاشتها المدينة حيث لم تعمر أكثر من نصف قرن، ولذلك فحالها يشبه ثلاث مدن في العالم الإسلامي :سامراء في العراق، والزهراء في الأندلس، والمنصورة بتلمسان.

1- الموقع الجغرافي لقلعة بني حماد وطبوغرافيته:

تقع قلعة بني حماد على بعد 36 كلم شمال شرق مدينة المسيلة، وتبعد عن الجزائر العاصمة بـ185كلم، وعن مدينة بجاية بـ104كلم، على خط عرض5 شرقا، وجنوب خط طول[1] .36

يتميز موقع قلعة بني حماد باستراتيجية هامة، كما وصفته المصادر التاريخية على أنه قلعة حصينة[2] .بنيت القلعة على سطح منحدر على سفح جبل تقربوست وارتفاعه 1481م على الحدود الشمالية لسهول

---

[1]- Gsell (st); Atlas Archéologique de l'Algérie. F N° 25 Paris Alger-1 .1911

[2] - البكري(ابو عبد الله)، وصف افريقيا ..ترجمة دوسلان .باريس .1965 ص49

الحضنة، يحدها شرقا وادي فرج الذي يجري من الشمال الى الجنوب، أما غربا فتوجد قمة الغورين1190 م، وجنوبا يقع المدخل الوحيد للمدينة وهو عبارة عن طريق كثير التعاريج يساير وادي فرج.

يبلغ مستوى السطح الذي بنيت عليه القلعة 850م فوق مستوى سطح البحر، وهويشكل امتدادا لجبل تقربوست، أما مناخ المنطقة فيمتاز بشدة الجفاف .أما عن كمية التساقط، فهي منخفضة نظرا لاحتجابها عن المؤثرات المناخية البحرية بجبال القبائل الصغرى، وجبال الدابور، وسلسلة جبال البيبان، وتتميز القلعة بهضابها العليا التي تكثر فيها الشطوط، وانعدام الأشجار، وتعدد الوديان الصغيرة التي تأخذ مجراها من الجبال لتشق الهضاب العليا ،بالإضافة الى التضاريس الوعرة التي تشكله مرتفعات الحضنة[3].

2-لمحة تاريخية عن قلعة بني حماد

تعد دولة بني حماد ثاني دولة إسلامية تقام على أرض الجزائر بعد الدولة الرستمية[4]، تنسب الدولة الى مؤسسها حمادين بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، وتعتبر قبيلة صنهاجة من أوفر قبائل

---

[3] - la Kalaa des Beni - Hmmades. rapport de mission polono-Algérienne 1987-1988-varsovie 1990 . vol I. p.5.

[4] - الجيلالي) عبد الرحمن(: تاريخ الجزائر العام ،المطبعة السادسة ،دار الثقافة بيروت 1983 ج1ص275

البربر، حيث تتفرع الى عدة بطون بلغ عددها سبعين بطنا اهمها تلكاتة بطن الزيريين والحماديين، ومسوفة ولمتونة بطنا المرابطين[5].

امتدت حدود الدولة الحمادية ما بين عنابة شرقا، وتلمسان غربا، وورلة والزاب جنوبا، ووصلت أحيانا الى افريقية وفاس غربا في أوج ازدهار الدولة) أنظر الخريطة رقم.(1)

كان نظام الدولة الحمادية ملكيا وراثيا منحصرا في أسرة حماد، ولقب حكامها بالأمراء والملوك، وكانت القلعة حاضرة ملكهم الأولى ثم تحولوا الى بجاية[6] .ويبدأ تاريخ القلعة في حدود سنة 387هـ997/م مع ظهور شخصية حماد الذي واليّ على أعمال الجزائر الشرقية، ومقاطعة أشير وضواحيها من قبل الأمير باديس بن المنصور الصنهاجي، وفي خلال ولايته اظهر حماد مقدرة كبيرة على الصعيدين السياسي والحربي مما مكّنه من الإنفراد بزعامة منطقة المغرب الأوسط، الأمر الذي شرع في تجسيده سنة 398هـ1007/م حيث بدأ في اختطاط اول عاصمة للدولة الحمادية، وتم تمصيرها في عامين بعد أن نقل إليها حماد سكان المسيلة ووادي حمزة، كما استقدم قبيلة جراوة من المغرب الأقصى .وفي أوائل القرن الرابع الهجري، انتهى حماد من بناء وتعمير المدينة التي أحاطها بسور، بعدما بنى بها عدة مساجد، وخانات،

---

[5] -ابن خلدون) عبد الرحمن(: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر .تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب .الجزائر 1263هـ1847/م.ج.1ص.309

[6] - العربي) اسماعيل(: دولة بني حماد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر1980 ،ص.118

ومبان عمومية، وهذا استنادا الى بعض النصوص التاريخية التي تطرقت لوصف المدينة، وما تحتويه من مبان وملحقات.

وعلى العموم حكم الحماديون المغرب الأوسط من408 هـ1018/م الى 547هـ1152/م [7].وتعاقب على العرض خلال هذه المدة تسعة أمراء، أولهم مؤسس حماد ثم يليه ثمانية أمراء.

بلغت الدولة أوج تقدمها وتطورها بعد غزو قبائل بني هلال لافريقية، وفرار الكثير من أصحاب الثراء في المغرب الأدنى من التجار والعلماء والحرفيين الى القلعة ليضيفوا اليها قوة اقتصادية، وازدهارا ثقافيا لم يشهده المغرب الأوسط في تاريخه، ولكن سرعان ما لحق بها الخراب الهلالي الذي أدى الى تدمير عمرانها كما يصف ذلك ابن خلدون ...« "ثم لحق بالقلعة فنازلوها، وخربوا جنباتها، وأحبطوا عروشها، فخربوها وأزعجوا ساكنيها، واعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعا صفصفاً [8]

وفي ظل هذه الأحداث، اضطر الحماديون الى نقل عاصمتهم من القلعة الى بجاية في حدود سنة460 هـ1067/م.

---

[7] بورويبة) رشيد(: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية .الجزائر 1977.ص116.

[8] – ابن خلدون) عبد الرحمن(: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، 1959.ص43.

-1 -تأسيس المدينة:

لم يكن تأسيس القلعة ضربا من ضروب الصدفة، إنما جاء وفق خطة محكمة واختيار مسبق، مراعاة في ذلك كل ما من شأنه أن يؤثر بالسلب على المدينة. فاختار حماد موقعا حصينا بجبل المعاضيد وشرع في بنائها وتعميرها في سنة 398هـ1008/م[9] وذلك على غرار باقي المدن كالقيروان، المهدية وتونس، وعمرها بالسكان حيث يذكر ابن خلدون« :واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين، وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال، ونقل إليها أهل المسيلة، وأهل حمزة وخربهما، ونقل جراوة من المغرب وانزلهم بها، وتم تمصيرها على رأس المائة الرابعة. ...[10]

أحيطت قلعة بني حماد بسور يساير قمة الغورين، ويتسلق جبل تقربوست ويستدير بقمته، حيث يوجد حصن دفاعي، وعند التقاء الجبل بالسهل فتحت أحد الأبواب الرئيسية للمدينة وهي باب الأقواس، وفي الجنوب الشرقي فتحت باب جراوة، وفي الجنوب الغربي باتجاه المسيلة يفتح باب الجنان[11].

---

[9] – هذا هو التاريخ المتفق عليه من قبل غالبية المؤرخين كابن خلدون والنويري وابن الأثير باستثناء ياقوت الحموي الذي يذكر تاريخ370 هـ.

[10] - ابن خلدون، العبر ج. ا ص222.223

[11] – اسماعيل) العربي(: دولة بني حماد...ص123

ولعل حماد قد راعى في تأسيسه للمدينة دعائم العمران من جلب المنافع ودفع المضار .فالموقع الحصين يصعب حصاره، كما أحيطت بأسوار لضمان أمنها، كما لم يهمل إمداد المدينة بالمياه، وهو شرط أساسي في تخطيط المدينة.

ومن خلال ما تبقى من آثار، يتبين أن المدينة كانت دائمة التموين بالمياه .[12] والجدير بالملاحظة أن حماد بعد الإعتراف باستقلالية الدولة الحمادية عام 408هـ1018/م، اغتنم هذا العهد من الإستقرار لتزيين حاضرته، وجعلها مركز إشعاع لاستقطاب طلاب الفنون والعلوم[13]

2- بنو حماد من القلعة الى بجاية

لقد أفل نجم القلعة الحمادية حيث لم تعمر أكثر من نصف قرن من الزمن، لتنتقل الى العاصمة الثانية وهي بجاية، ولذلك فحالها يشبه ثلاث مدن في العالم الإسلامي :سامراء في العراق، الزهراء في الأندلس والمنصورة بتلمسان .ولذلك تعتبر مدينة بجاية التي تأسست في عهد المنصور بن الناصر، إلا أن إنشاء المدينة كان في إمارة أبيه الناصر بن علناس بعد انهزامه في معركة سبيبة سنة 457هـ1065/م والتي كانْ من نتائجها أن قويت شوكة بنو هلال في المغربْ الأوسط[14]،

---

[12] - Golvin (L); Recherches Archéologique à la Kalaa des Beni Hammad GP Maisoneuve et la rose Paris 1965.p36.

[13] - ابن خلدون: المصدر السابق،ص.223

[14] - ابن خلدون: العبر، كتاب الدول الإسلامية،ج1ص.227

وحسب ابن خلدون، فإنه السبب الرئيسي الذي جعل الناصر يغادر القلعة ويختط مدينة بجاية، وينتقل من مدينة داخلية الى مدينة ساحلية.

ويعتقد كل من دوبيلي وجول ان نفس رأي ابن خلدون، غير أن هناك سببا آخر يبدو أساسيا في انتقال العاصمة الى بجاية، ويتجلى في طموح الناصر الى فتح مدينة المهدية الذي سبق وأن استعصى عليهم بدليل أن قلعة بني حماد كانت غير مهددة من قبل الهلاليين في عهد الناصر، وفي عهد ابن المنصور، وبقيت عاصمة ثانية للحماديين وأنشأ فيها عدة مبان.

ولم يبدأ انحطاط المدينة إلا في عهد العزيز ابن المنصور [15]، وهذا يسمح لنا بالقول بأن الحماديين اتخذوا من بجاية قاعدة توسع لسلطانهم الشيء الذي نلتمسه بوضوح في نص ابن الأثير..«إن وزير الناصر بن علناس أبا بكر ابي الفتوح أرسل رسولا من عنده إلى تميم يعتذر ويرغب في الإصلاح فقبل تميم، وأرسل الى الناصر محمد بن البعبع.» [16]..

ولذلك ارتبط اسم العاصمة الثانية للحماديين بمؤسسها وهو الناصر، حيث وردت في الكثير من المصادر التاريخية باسم« الناصرية.»

---

[15] - بوروبية) رشيد (المرجع السابق.ص.68

[16] - ابن الاثير، الكامل في التاريخ .ج.12طبعة القاهرة1353 هـ.

-3قلعة بني حماد من خلال المصادر التاريخية:

نشير في البداية الى أنه من الصعب جدا معرفة النسيج العمراني لقلعة بني حماد، لأن المدينة اندثرت ولم يبق إلا القليل من اثارها التي تم اكتشافها في حفريات سابقة .فلم يبق بين يدي الدارس لعمران القلعة إلا تلك النصوص التاريخية التي أشادت في وصف القلعة، ومدى التطور والرقي الذي وصلته في مختلف الميادين، وعلى أنها كانت حقا حاضرة إسلامية ذائعة الصيت، والقلعة وردت في الكثير من المصادر التاريخية التي لا يتسع المجال لذكرها، ولذلك سوف نقتصر على ذكر أهمها فقط.

-عبد الرحمن ابن خلدون ...«:واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ثمان وتسعين، وهو جبل عجيسة، وبه لهذا العهد قبائل عياض من عرب هلال، ونقل إليه أهل المسيلة، وأهل حمزة، ونقل جراوة من المغرب، وانزلهم بها، وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة، وشيد من بناياتها واسوارها، واستكثر فيها من المساجد والفنادق، فاستبحرت في العمارة، واتسعت في التمدن، ورحل اليها من الثغور القاصية والبلد البعيد، طلاب العلوم وأرباب الصنائع[17]

-البكري)أبو عبد الله« :(وهي قلعة كبيرة ذات منعة وحصانة تمصرت عند خراب القيروان، انتقل اليها أكثر أهل افريقية، وهي

---

[17] - ابن خلدون، العبر ،كتاب تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب ،الجزائر ،1847 ج1،ص 221

مقصد التجار، وبها تحل الرحال من العراق والحجاز ومصر والشام، وسائر بلاد المغرب، وهي اليوم مملكة صنهاجة.[18].

-ياقوت الحموي« :قلعة بني حماد مدينة متوسطة بين أكم واقران، لها قلعة عظيمة قمة جبل يسمى تاقربوست، تشبه في التحصين ما يحكى عن قلعة أنطاكية، وهي قاعدة ملك بني حماد.[19].

-الإدريسي الشريف ...«:ومدينة القلعة من اكبر البلاد قطرا، وأكثرها خلقا، وأغزرها خيرا، وأوسعها أموالا، وأحسنها قصورا ومساكن، وأعمها فواكه وخصبا، وحنطتها رخيسة، ولحومها طيبة سمينة، وهي في سند جبل سامي العلو، صعب الإرتقاء، وقد استدار سورها بجميع جبل تارقوبست، وأعلى الجبل مقصل بسيط من الأرض، ومنه ملكت القلعة.[20]...

4 -تاريخ الأبحاث الأثرية بقلعة بني حماد

رغم الدراسات التي أجريت حول قلعة بني حماد من الناحية الأثرية، فهي مازالت تحتاج الى المزيد للكشف عن مخزون أثري آخر، بإمكانه أن يضيف رصيدا أثريا آخر لها، وهنا لا بد من الإشارة بأن الأبحاث بها انطلقت من قبل الكاتب الفرنسي (FERAUD)ضمن دراسة تناول

---

[18]- البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب - بغداد.د.ت ص.49

[19] ياقوت) الحموي(، معجم البلدان، طهران1965 ، المجلد .4 ص.164 163

[20] – الإدريسي) الشريف(: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، لندن1864 ، ص.86

فيها عدد من مدن مقاطعة قسنطينة في ذلك الحين، موجها الإهتمام فيه الى ذكر القيمة التاريخية والأثرية لآثار قلعة بني حماد[21] لكن أول من قام بإجراء حفرية أثرية منظمة بالمنطقة هو الباحث الفرنسي (BLANCHET) لمدة لا تتعدي ثمانية أيام[22]

ثم يليه السيد (ROBERT) مدير بلدية المعاضيد في تلك الفترة بنشر دراسة تناول فيها وصف أثار قلعة بني حماد[23] وبقي الحال على ذلك الى غاية 1908 حيث قرر اللواء دوبيلي GENERAL DEBEYLIE اكمال ما بدأه BLANCHET، وخلال مدة حفريته التي امتدت ما بين 01 افريل و 15 سبتمبر 1908. ركز أبحاثه على ثلاث وحدات من المدينة بدت له رئيسية وهي :برج المنار، وقصر الأمراء، أي قصر البحر، والمسجد[24]، ومنذ ذلك التاريخ توقفت الأعمال كلية في قلعة بني حماد الى أن جاءت سنة 1951 حيث بدأ LUCIEN GOLVIN[25] بعدة حفريات لباحث جزائري، وهو الأستاذ رشيد بورويبة، واستغرقت

[21] - DEBEYLIE (GLDE); la kalaa des Bni Hammad. une capitale Berbére dans L'Afrique du nord 11em siècle .Paris 1909 p 2.
[22] - DEBEYLIE; OP.CIT.P2.
[23] - Robert (m); LA Kalaa et tihammamine in Recueil des notices et mémoires dela société archiologique de canstantine 1903 p217.
[24] - DEBEYLIE; OP.CIT.P2.
[25] - GOLVIN (L) ; Recherches archéologiques à la Kalaa des Beni Hammad Paris 1953.

أبحاثه سبع سنوات توصل فيها الى نتائج طيبة نشرت في كتاب خاص بالأبحاث التي قام بها.[26]

وإثر انتهاء هذه الأعمال عرفت القلعة صيانة وترميم بعض معالمها من قبل خبراء منظمة اليونيسكو UNESCO وذلك لإعداد برنامج خاص بترميم القلعة[27].

وفي سنة 1987 الى 1988 تم إجراء بحث أثري من طرف بعثة مشتركة بولونية -جزائرية وذلك في إطار ترميم معالم قلعة بني حماد[28]، هذا دون الإشارة الى تلك الأعمال ذات الطابع الوصفي التقريري، فإن القلعة مازالت تحتاج الى المزيد من الأبحاث، لأن معظم آثارها لا يزال دفين الأطلال.

5-تحديد الموقع الأثري للقلعة

يحيط بالمدينة سور من الحجارة يبلغ محيطه سبعة كيلومترات «شكل 2»، ويتراوح سمكه بين 1.20م و1.60م، يمكن التعرف عليه من خلال معاينة الأرضية، ولكن هذه الأسوار موجودة في أماكن ومندثرة كلية في أماكن أخرى، وإن كانت الموجودة بأعلى قمة جبل تقربوست قد

---

[26]- بورويبة) رشيد (الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية .الجزائر1977

[27] - Herman (f); qalaa de Beni Hammad rapport de mission UNESCO Paris 1982.

[28] - La qalaa de Beni Hammad rapport de mission polons Algerienne Varsovie 1990 vol 1-7.

اندثرت كاملا .وكانت هذه الأسوار تساير قمم الجبال والمنحدرات لتوفر الأمن للقصور المشيّدة عند سفوح المنحدرات، مانعة بذلك محاولات الإعتداء على القلعة من اعالي الجبال[29]

تتكون القلعة من ثلاثة أبواب هي:

باب الأقواس من الناحية الشمالية، باب الجنان من الناحية الغربية وباب جراوة في الناحية الجنوبية .وكلها اندثرت ولم يبق منها إلا معالم باب الأقواس.

ويمكن من أعالي برج المنار مراقبة الجهة الجنوبية، وهي أسهل الطرق المؤدية الى القلعة، أما فيما يخص الأحياء السكنية التي كانت موجودة في القلعة، فنفترض التعرف عليها بتتبع التوزيع العمراني للوحدات السكنية التي تمت تهيئته على شكل أحياء يضم كل واحد منها في جهته الشمالية قصرا يؤمن الدفاع عنه.

وانطلاقا مما سبق، يمكننا تكوين فكرة وراء مكان إنشاء قلعة بني حماد الأثرية من خلفيات ومعايير، بما تشمله من كل المقاييس الدفاعية والناخية والجغرافية، وما كان لها من دور مؤثر سواء من قريب، أو بعيد في اختيار مواقع المدن في تلك الفترة، وتوزيع وحداتها المعمارية، بما فيها الأسوار، المساجد، القصور، الأحياء السكنية، الطرق وشتى أنواع الملحقات.

---

[29] – LA QALAA DES BENI - HAMMAD. OP.P9.

3-عمارة قلعة بني حماد

1-العمارة الدينية

ترك الحماديون في مجال العمارة الدينية ثلاثة مساجد نذكر منها : مسجد أبي مروان بعنابة، ومسجد قسنطينة، والمسجد الجامع بقلعة بني حماد .غير أن المسجدين الأولين لم يبق منهما اي اثر، ماعدا بعض التفاصيل المعمارية القليلة جدا، أما جامع أبي مروان، فلم يتبق من المسجد ماعدا قاعدة المئذنة فقط، وهذا ما يجعل دراستنا تتركز أساسا حول المسجد الجامع بقلعة بني حماد.

أ -المسجد الجامع بقلعة بني حماد:

لم يعد المسجد بناية قائمة بذاتها، بل اندثر ولم يبق إلا بعض من معالمه سمحت للكثير من الباحثين معرفة التخطيط المعماري العام للجامع، حيث يتحذ شكل مستطيل طوله من الداخل 64م ويبلغ سمك جدران الجامع نحو .105م، يتوسطه صحن مستطيل الشكل، ويتألف بيت الصلاة فيه من 13بلاطة عمودية على جدار القبلة، و 8اساكيب موازية لجدار القبلة .ولقد ضاعت معظم الأعمدة التي كانت ترتكز عليها عقود الجامع، ولم يتبق منها سوى قواعدها .وكان يفصل بيت الصلاة عن باقي أجزاء الجامع جدار، كما يدعم جدران الجامع من الخارج ركائز ساندة ينفتح فيها أبواب وعددها سبعة، ويحيط بقبلة الجامع بناء يضم خمسة أساطين، ربما كان مسجدا صغيرا بني

بداخل بيت الصلاة بعد أن قل عدد سكان القلعة إثر هجرتهم الى بجاية، وقد يكون هذا البناء حدا لمقصورة الجامع)[30] الشكل .(3)

ومن الملاحظات المعمارية حول هذا الجامع، تلك الركائز الضخمة التي كانت تدعم جدران المسجد من الخارج، وهي شبيهة بتلك الموجودة في جامع القيروان، وجامع قرطبة، وجامع اشبيلية .وكل هذه الخصائص المعمارية تجعلنا نسلم بأن القلعة كانت بالفعل مينة عسكرية، وأن مسجدها الجامع اتخذ طابعا عسكريا بحتا كما تدل بقاياه.

ب -مئذنة المسجد الجامع بقلعة بني حماد

تعتبر المئذنة من الآثار التي مازالت قائمة لحد الآن، كما أنها تعد من اقدم مآذن الجزائر، بعد مئذنة جامع سيدي أبي مروان بعنابة التي لم يبق لها أثر .[31] وتكتسي هذه المئذنة أهمية أثرية كبيرة بالنسبة لمآذن المغرب الإسلامي خاصة، والعالم الإسلامي عموما، وذلك لخصوصياتها، ومظاهر الجدة فيها، والتي لم نعهدها في بقية المآذن السابقة، كما تعتبر بعمارتها مساهمة كبيرة في الحضارة الإسلامية. بالنسبة لموقعها، فهي تتوسط الجدار الشمالي للجامع على نفس المحور الرئيسي له، وهو تقليد اتبع في المسجد بالقيروان بداية القرن

---

[30] -Marçais (g); Architecture Musulmane d'occident. Arts et metiers grafhiques. Paris 1954 p 75.

[31] - Bourouiba (R). Mihrabs hammades in Revue des études islamique 18/2 pp 329-344.

2-/8م، ومئذنة جامع صفاقس ومئذنة جامع قرطبة، ومن المرجح انهم تأثروا بوضع مئذنة جامع القيروان[32].

تتكون المئذنة من قاعدة مربعة علوها بدن، تتألف من طابق واحد مربع الشكل بدوره، وزخارف المئذنة تقتصر على الواجهة الجنوبية المقابلة للصحن، اما الواجهات الأخرى فعاطلة من الزخارف باستثناء بعض الفتحات للإضاءة والتهوية، وربما للمراقبة أيضا.

وواجهة المئذنة تقسم الى ثلاثة قطاعات، طبق في توزيعها الايقاع والتماثل، وكانت الواجهة مزخرفة بكسوة من الخزف الأخضر الزليجي الذي شاع استخدامه في كثير من مآذن المغرب في العصور التالية، وهذه ظاهرة فنية جديدة في العالم الإسلامي ككل، وابتكار يعود الفضل فيه لفنان مئذنة قلعة بني حماد ومعمارها، كما أن تقسيم واجهة المئذنة بهذا الشكل هو تقليد مبتكر سيطبق في عصر دولة الموحدين في مئذنة جامع "القصبة بإشبيلية المعروفة بالخيرالدا .[33] كما تكشف أيضا هذه التقسيمات الهندسية بواجهة المئذنة عن بعض التاثيرات المغربية المتمثلة في الحنايا المسطحة التي تشهد نظائرها في مدخل المسجد الجامع بالمهدية، وكذلك في الفتحات المعقودة بعقود منكسرة التي تزدان بها مئذنة جامع صفاقس[34]

[32] - Beylie; la kalaa... p80.
[33] - Bourouiba (R); cités disparues tahert-sedrata-Achir et kalaa des beni hammad in collection Art et culture Alger 1982p113.
[34] - GOLVIN (L) ; Recherches Archéologiques... p53.

المئذنة فقدت جوسقها العلوي، فلا المصادر التاريخية، ولا المراجع الحديثة أشارت الى وجوده، وأغلب الظن أنه تهدم في وقت قريب من إنشاء القلعة، ويعتقد كمال الدين سامح أنه تهدم على أيدي الموحدين في سنة 547هـ1152/م)[35] شكل.»4

أما عن مقاسات المئذنة فيقدر طول كل ضلع من قاعدتها 6.50م، ويبلغ ارتفاعها بدون الجوسق 25م، وهي مقاساتها الحالية، وينفتح في الواجهة الرئيسية للمئذنة باب يؤدي عبر سلم يتكون من 133درجة الى أعلى المئذنة، وينفتح على جدران المئذنة فتحات للمراقبة والإضاءة والتهوية تتوزع على مختلف الجهات من المئذنة، ولها علاقة مباشرة بالأبراج التي كانت تحيط بالمدينة مما يجعلنا نستدل بالغرض الوظيفي العسكري للمئذنة أيضا، بالإضافة الى الخصائص المعمارية التي انفردت بها كالعلو الشاهق لها وطول ضلع قاعدة المئذنة، وسمك الجدران المقدر بـ1.50م، وتوسط موقع المسجد والمئذنة للمدينة، وهذا الموقع المركزي يتيح مراقبة سائر الجهات، بالإضافة الى المظهر الخارجي العام للمسجد الذي يؤكد الدور العسكري الذي كان يقوم به تسمح بالقول بأن المئذنة جمعت بين وظيفتين الأولى دينية خالصة والثانية عسكرية حيث اتخذت كبرج للمراقبة، والإشعار بخطر اقتراب العدو، وأن الجمع بين هاتين الوظيفتين كان مقصودا من البداية.

[35] - Kamal el din (SAMAH) minaret in north Africa and spain in Bulletin of the faculty of Arts . vol ..... cairo 1954 p181.

إن أهم ظاهرة فنية تلفت الانتباه في مئذنة القلعة بالإضافة الى عمارتها، هي زخارفها الفريدة من نوعها بين المآذن، فهي مزخرفة على واجهة واحدة فقط بزخارف هندسية فريدة بين مآذن المشرق والمغرب كله، فهي مزخرفة ببعض الأشكال المحارية التي شاع استعمالها في العمارة الحمادية، بالإضافة الى بعض التشكيلات الزخرفية من قوالب الآجر المتراكبة في أشكال منتظمة، وهذه القوالب مطلية بالمينا أخضر اللون، وبعض القطع الفسيفسائية الخزفية المربعة والمعينة الشكل مطلية باللون الأخضر، وهنا تتجلى مقدرة الفنان الحمادي على التنويع والتلاعب بالألوان مما يضفي على المئذنة جمالا ورونقا، وبفضل ذلك امتازت مئذنة قلعة بني حماد بأصالة فنية بين مآذن المغرب الإسلامي كله في فتراته المبكرة، وكان لهذه الأشكال الزخرفية تأثيرا على القصور والكنائس في باليرمو بصقلية[36].

واستنادا الى الأدلة المادية يتبين لنا ان البلاطات الخزفية ظهرت لأول مرة في مئذنة جامع قلعة بني حماد، ويعتقد ليزين أن استعمالها جاء بتأثير شرقي ايراني[37].

ولكن في الحقيقة ليس هناك مثال أقدم من قلعة بني حماد، لأن مآذن ايران المزخرفة بالبلاطات الخزفية تعود الى القرن 6هـ/12م،

---

[36] - Blanchet (paul) la kalaa des beni hammad in Accadémie des insciption et belles . comptes des séances de l'année 1897 p 468.
[37] - LEZINE (A) le minert de la kalaa des beni hammad in bulletein d'Archéolpgie Algérienne.Tome 1 1962 1965 édition E de Boccard. Paris 1967.

ويرى جورج مارسيه بأن قلعة الحمادية تضم أمثلة للبلاطات الخزفية سبقت بنحو قرن من الزمن مجموعة بلاطات «قونيا »التي تعد أقدم البلاطات الخزفية [38] ولذلك فهي ابتكار حمادي يمكن أن يضيف أشياء جديدة ومساهمات لمؤرخي الفن الإسلامي وللحضارة الإسلامية عامة .

د- مصلى قصر المنار

اكتشفه الأستاذ رشيد بورويبة في حفرياته سنة .1968ولهذا المسجد أهمية كبيرة حسبه، إذ يعتبر أصغر مسجد في العالم الإسلامي كله، وهو المسجد الجزائري الوحيد تابع لقصر يرجع تاريخه الى القرون الوسطى، وأن رخارف محرابه لا مثيل لها في الفن الإسلامي، والمحراب الوحيد الذي يشابهه هو المحراب الموجود بقبة الصخرة بالقدس، الذي يرجع تاريخه الى عبد الملك بن مروان .ومقاسات هذا المصلى تقدر بـ1.70* 1.80م، وعرض بابه0.74 م[39]«شكل.»5

2-العمارة المدنية بقلعة بني حماد

تتجلي العمارة الحمادية المدنية في قلعة بني حماد بشكل أكثر وضوح في عمارة القصور التي تم الكشف عنها من قبل الباحثين الأجانب،

[38] - Marçais (g); porteries et fatences de la la kalla des beni hammad 18em siécle D BRAHAM. ètudes constantine 1913 p 10.

[39] بورويبة، الدولة الحمادية ..ص.216

ونقصد بها كل من قصر المنار، قصر السلام، قصر البحر وقصر النجمة، وسنحاول التطرق لها باختصار.

أ -قصر المنار

يحتل بموقعه في الجهة الشرقية للمدينة أعلى حي جراوة، بالمحاذاة مع الخطوط المرسومة للأسوار «شكل »6، وهو عبارة عن مركب بنائي متكون من ثلاث مجموعات اخذ تسميته من الوحدة الواقعة في جزئه الشمالي الشرقي والمسماة برج المنار .ويتكون من طابق تحت ارضي «شكل »7ندخل اليه من الواجهة الغربية للبرج تحت مستوى سطح الأرض عبر باب عرضها 1.25م، يعلوه طابق ارضي «شكل »8، والضلع الغربي لركن هذا البرج يحتوي على باب مفتوحة في عمق قاعة كبيرة ذات إنكاسارات يظهر لنا من خلال المخطط «شكل »9 أنها كانت واسطة بين البنايات السّكنية والبرج[40]

ويلي هذا الطابق السطح «شكل »10الذي يفترض انه كان مجهزا لإرسال واستقبال الإشارات الضوئية نهاراً، والإشارات النارية ليلاً . وهنا لابد من القول بأن هذه البناية لم تقتصر وظيفتها على المراقبة والدفاع والإتصال، بل تعدتها لتكون دار حكم، المهمة التي تنطبق على القاعة المركزية تماما للطابق الأرضي .ولقد اكتشف الأستاذ جول□ان على مقربة من قصر المنار اثار مجموعة سكنية تتكون من عدة قاعات

[40] - DEBEYLIE OPQT.P42.

وغرف موزعة حول صحن مركزي[41] وتم تقسيمها الى ثلاث مجموعات تضم الواحدة منها مجموعة من القاعات والغرف ذات أبعاد متوسطة، بالإضافة الى بعض العناصر المعمارية .ومن الملاحظ أنه صعب على الباحثين إعادة تصور الأجزاء المندثرة، وذلك لغياب عامل التناظر في المجموعات السكنية الثلاث، والذي حلت محله سمة عدم انتظام مخططات المجموعات، وقد يعود هذا الى مراعاة طبيعة الأرضية على حساب التخطيط .بالإضافة الى تعاقب الزيادات والتعديلات التي لم تأخذ بعين الإعتبار تناسق وتوجيه الوحدات التي كانت موجهة لتأدية وظائف ملحقات مختلفة يتطلب بعضها تخطيطا خاصا بها.

ب -قصر البحر

يعتبر هذا القصر أكبر مركب معماري كشفت عنه الحفريات في قلعة بني حماد .يقع في وسط الجهة الشمالية للمدينة على بعد 200م شمال المسجد عند أسفل المنحدر الجنوبي لقمة تقربوست «شكل 11»، ولذلك جاءت وحداته على أرضية متدرجة الإجدار .أما المخطط العام للمركب، فيقترب شكله عموما من مثلث طوله الحوري من القاعدة الى الرأس250 م، واقصى عرضه159 م« شكل.»12

ومن الناحية المعمارية، فهو يتشكل من تسع مجموعات معمارية متمايزة، ومتصلة بتجانس داخل أسوار حصينة[42] غير منتظمة

[41] - GOLVINI OP.CIT.P84.

[42] انظر دوبيلي اول من قام بدراسته واعداد تصميمه55 DEBEYLIE OPCIT.P54 .

التخطيط سمكها 2.50م ومحيطها العام 560م[43] يتوسط المدخل الرئيسي للقصر الواجهة الشرقية.

عن كتلتين معماريتين بارزتين تزين واجهاتها حنيات نصف دائرية، والمدخل يؤدي الى القاعات المتوزعة على الواجهات الأربعة للقصر، وكل واحدة منها تطل على الحوض المائي الكبير الذي أخذ القصر تسميته منها .والبحيرة عمقها 1.60م .وأول إشارة لهذا القصر كانت من طرف صاحب كتاب الاستبصار حيث قال ...« :ولبني حماد بالقلعة مبان عظيمة وقصور منيعة متقنة النباء، عالية السناء، منها قصر يسمى دار البحر، وقد وضع وسطه صهريج عظيم تلعب فيه الزوارق، يدخله ماء كثير، من ماء مجلوب على بعد، وهذا القصر مشرف على نهر كبير وفيه من الرخام والسواري ما يقصر عنه الوصف، وفيه قصور غيرهذا[44].

ولقد توصل دوبيلي في أبحاثه [45]الى أن الأروقة التي كانت تحيط بالحوض كانت مغطاة بسقف يرتكز على عقود تحملها أعمدة كبيرة . أما الرواق الشمالي المطل على الحوض، فتتوسطه قاعة شرفية مربعة الشكل أبعادها 7.50م7.50م [46].وما الملاحظات أن هذه المجموعات

---

[43] - GOLVINI'RECHERCHES...P.54.

[44] – أنظر صاحب كتاب الاستبصار.

[45] - debeylie op.cit.p.62

[46] -GOLVINI RECHERCHES...P60

العمارية تشكل كتلة معمارية واحدة نظرا لوحدة توجيهها، وأن عهد بنائها اعتبر أحدث من عهد بناء مجموعات الكتلة الأولى، كما أن المجموعة البنائية التي تحتوي على ديوان الأمير، وموضع عرشه جاءت منفردة عن المجموعات الأخرى.

د- قصر السلام

يقع في الجهة الشمالية الغربية من المدينة عند سفح قمة القورين على بعد حوالي 400م شمال باب الجنان، بدأ الحفر فيه الأستاذ جولفان سنة 1951.واستمر الى غاية 1960.[47] واوصلت أعمال الحفر الى أن القصر كان يتكون من جزءين علوي وسفلي .العلوي عبارة عن مبنى مربع الشكل محصن في أركانه بأربعة أبراج على شكل ثلاثة أرباع الدائرة، وتذكرنا بتلك الأبراج الموجودة في قصور الشام، والأردن التي تعود للعهد الأموي.

بالنسبة لمدخل القصر، فيوجد في الجهة الجنوبية للمبنى، يليه شكل يوحي بانه كانت هناك باب حديدية منزلقة يليها بهو طوله 17.75م ، وعرضه 2.75م مفتوح على الصحن بباب منخرف بالموازاة مع المدخل المركزي للقصر عرضه 1.60م «شكل 13.» ويوجد بالقصر سلم يودي الى أعلى الطابق الأول، أو السطح، أو الى برج المراقبة.

---

47 - IBID P.72.

أما الصحن فتتوزع عليه مجموعة من الغرف، وفي الجهة الخارجية أمام مدخل القصر، توجد بناية متكونة من قاعة ومقدم قاعة، وهي شبيهة بتلك الموجودة في الجهة الغربية من قصر البحر .والملاحظ أن أعمال البحث لم تكتمل بهذا القصر، ولكن ما تم العثور عليه سمح بإعادة تصور تمييز بعض الأجزاء منها تقسيمها.

د -قصر الكوكب

يعد من بين المعالم التي لم تحظ بحفريات الباحثين لحد الآن، وذلك على الرغم من اثبات وجوده الذي تم بالاعتماد على وثائق مكتوبة ومادية أولها هي المصادر التاريخية [48] **أما الدليل** المادي، فيتمثل في الجدار الساند الذي عثر عليه بين **قصري البحر والسلام**، والذي اعتبر الوثيقة المادية والوحيدة التي تم بها تحديد موقع قصر الكوكب [49].

هـ - قصر بلارة وقصر العروسين

على غرار القصور السابقة الذكر، لا نعرف شيئا عن هذين القصرين الذين اندثرا، رغم ما يثبت وجودهما بالفعل، وهو ما يرثيه ابن حماد في احدى قصائده: [50]

إن العروسين لارسم ولاطلل   فانظر ترى ليس إلا السهل والجبل
وقصر بلارة أودى الزمان به   فأين ما شاد منها السادة الأول

---

[48] -ابن خلدون، العبر، مصدر سابق.

[49] - GOLVINI op.CIT....P83.

[50] - عبد الرحمن) الجيلالي(: تاريخ الجزائر العام،ج.1،ط .6،دار الثقافة ،بيروت .1983 .

3-مميزات القصور الحمادية

بعد استعراض مجموعة القصور الموجودة بقلعة بني حماد، نستطيع أن نخرج بعدة ملاحظات يمكن حصرها فيما يلي:

يمكننا استنتاج ميزتان أساسيتان في المواقع التي اختيرت لإقامة القصور الحمادية وهي :العلو والإشراف كونها تقع في أماكن عالية تشرف على أحياء المدينة، مما يوحي بأن هناك أولوية أعطيت لموقع القصر على حساب بنائه في منحدر، جعل المعمار يلجأ الى البناء على شكل مدرجات، وهذا مانلاحظه في قصري البحر، والسلام .كما وضعت أيضا هذه القصور في أماكن فسيحة، وعلى أطراف المدينة بعيدة عن مركزها لترك مكان للتوسع بالنسبة للأحياء والقصور.

أما بالنسبة لتوجيهها، فأغلبها كان يتجه جنوبي غربي - شمالي شرقي، وأحيانا نجده جنوبي شمالي كما هو عليه الحال في قصر المنار.

ومن الملاحظات أيضا، أن قصور القلعة جاءت محصنة تحددها أسوار خارجية عالية، ومدعمة تتخللها أبراج وممرات المراقبة .كما أن المركبات المعمارية التي عليها القصر تتميز بالإستقلالية في وظائفها ووحداتها مما جعلها أشبه بمدينة تتعد فيها الأحياء.

لقد امتازت واجهات القصور الحمادية بارتفاع شاهق، واحتوت على مداخل منكسرة، وهي ميزة تتكرر من قصر لأخر.

العمارة العسكرية بقلعة بني حماد

الواقع أن قلعة بني حماد مدينة عسكرية، واسمها كقلعة يدل دلالة واضحة، على أنها مكان محصن الغرض منه دفاعي بالدرجة الأولى، فهي محصنة طبيعيا بحكم موقعها الذي يصعب الإرتقاء اليه . ومحصنة أيضا بحكم مبانيها ذات الغرض الدفاعي .ولذلك فإن مباني القلعة بأكملها تجمع بين وظيفتين الدينية والدفاعية، كما هو الحال بالنسبة للمسجد الجامع، والمدنية والدفاعية بالنسبة لقصورها .لذلك فدرستنا للعمارة العسكرية بقلعة بني حماد ستكون دراسة عامة تجنبا لتكرار ما سبق.

من المعلوم أن معظم المدن الإسلامية السابقة واللاحقة للقلعة كانت تحاط بسور تفتح عليه أبواب، لذلك نجد بأن القلعة التي احتلت موقعا حصينا بجبل المعاضيد محاطة بسور يمتد على طول محيط المدينة من قمة ال□ورين الى جبل تقربوست، أين يوجد حصن دفاعي للمدينة فتحت عليه أبواب نذكر منها :باب الأقواس، وباب جراوة في الجنوب الشرقي، وباب الجنان في الجنوب الغربي [51].ولقد قدر الأستاذ بورويبة سمك السور الخارجي لقعلة بني حماد بين1.20 م و1.60م[52].

---

[51] - اسماعيل) العربي(: دولة بني حماد...ص.123

[52] – بورويبة) رشيد(:« اسوار المدن الإسلامية في العصر الوسيط.»مجلة الجامعة العدد .1983 -18 ديوان المطبوعات الجامعية .الجزائر ص.41

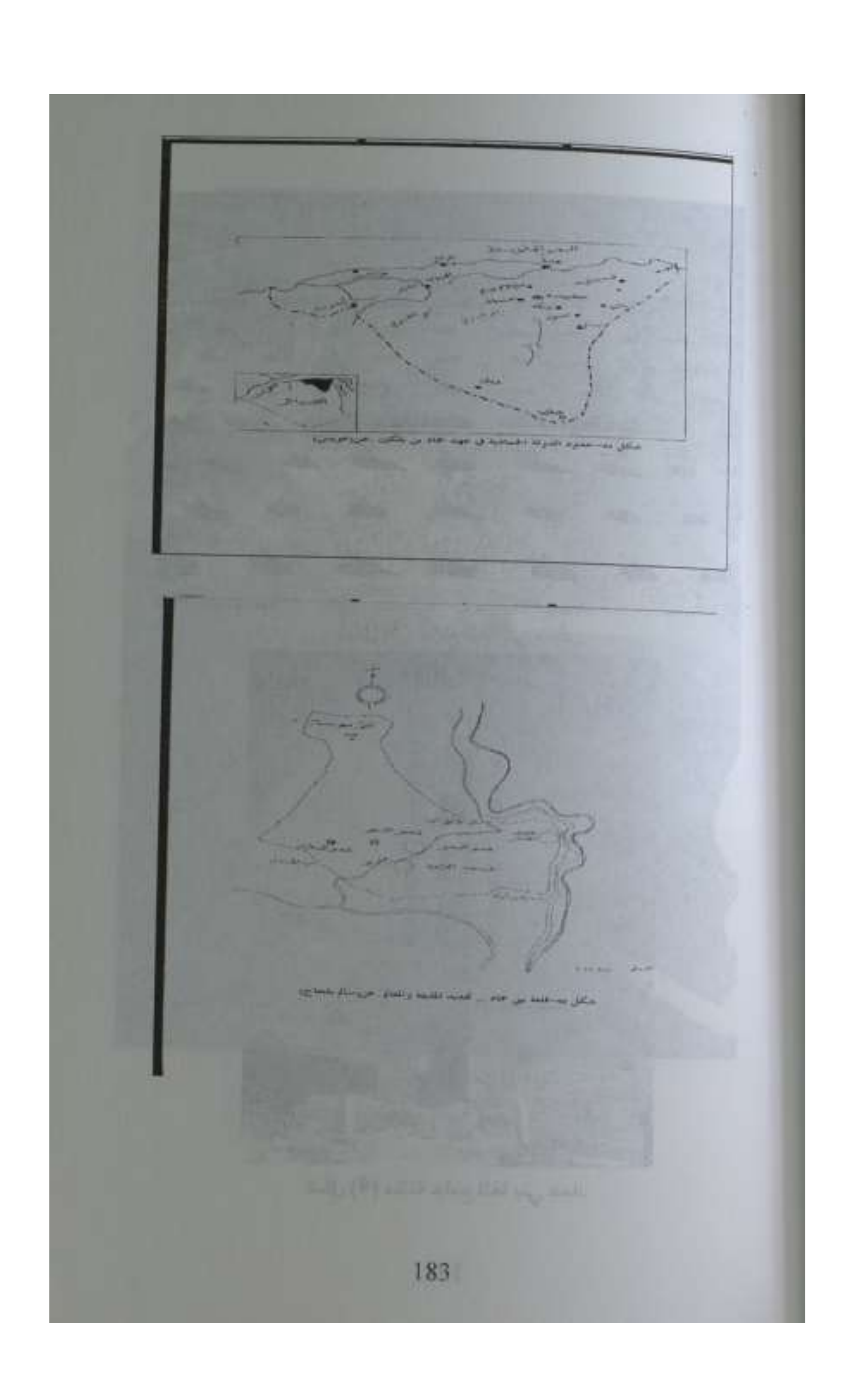
ومن الأمثلة المنفردة للعمارة العسكرية، نأخذ برج المنار بالقلعة الذي بقي محتفظا بخصائصه الى حد ما، باعتبار أن معظم الأبراج قد اندثرت مع اندثار السور ،يأخذ البرج شكلا مربعا تقدر أبعاده بـ20*20م، ومدعم في الواجهتين الجنوبية والشرقية بكتلة بارزة عن الجدار الخارجي بمقدار1.50 م، وكانت البناية أصلا من طابقين : ارضي وتحت أرضي، يصل بينهما ممر داخلي عرضه1.80 م مسقوف بقبو مهدي تتخلله أقبية متقاطعة في أركانه.

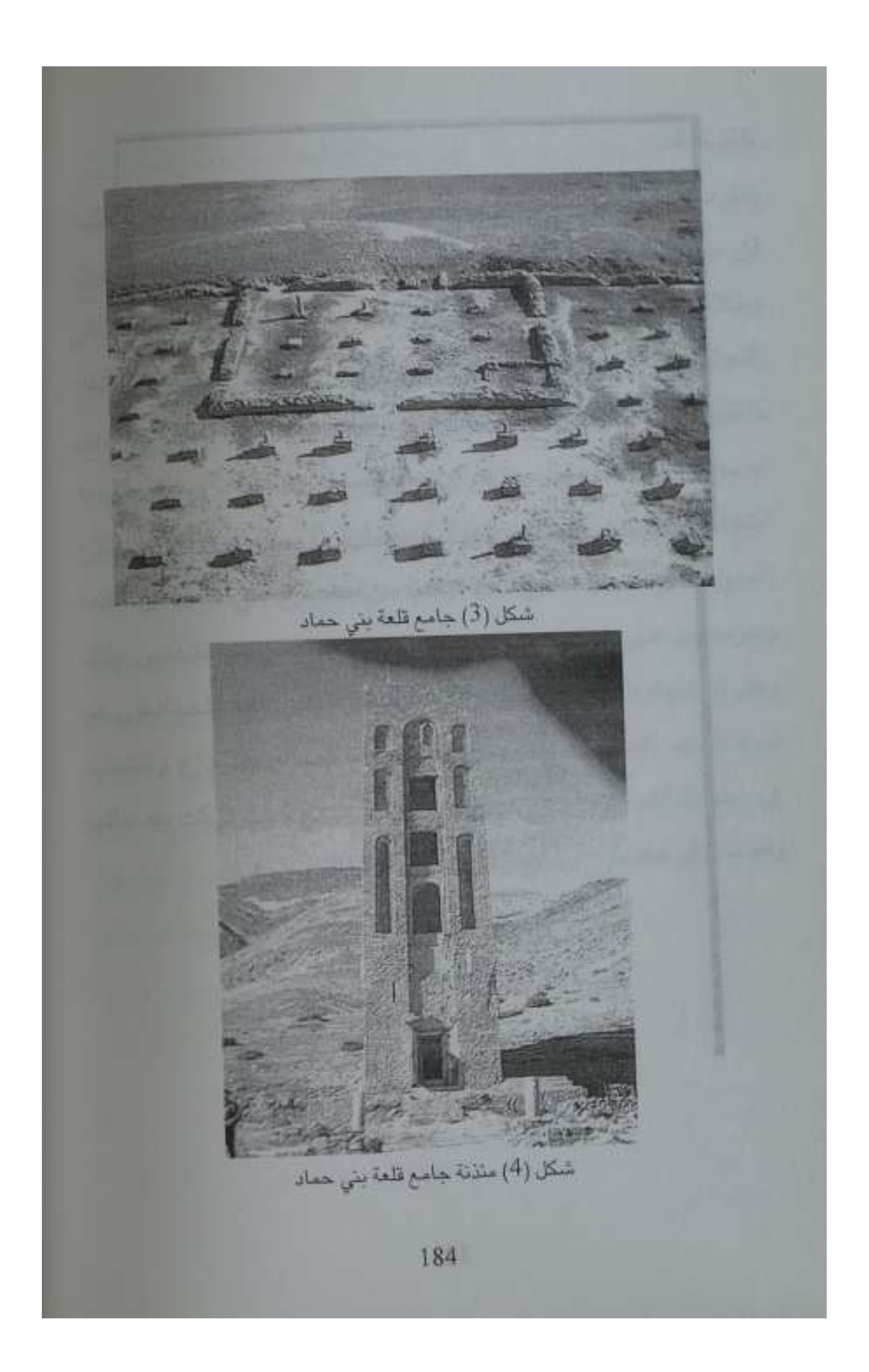
كما يمكن أيضا أن نسجل من بين الملاحظات حول العمارة الدفاعية، تلك التحصينات الموجودة في سبيل المثال في قصور قلعة بني حماد، فهي محاطة بأسوار خارجية عالية ومدعمة تتخلل محيطها أبراج وممرات المراقبة، وقد توج كل هذا النظام الدفاعي بمدخل رئيسي بارز، ومنكسر تدعم جانبيه كتل بنائية ضخمة.

وهنا لابد من الإشارة في هذا العنوان اننا لانستطيع الفصل بين العمارة المدنية والدينية والعسكرية في قلعة بني حماد، لأن هناك تداخل واضح بينهما.

خاتـــمة

بعد دراسة ما تبقى من الآثار التي خلّفها الحماديون في القلعة، يمكننا أن نستخلص بأنها تمثل ذروة ما وصل اليه عطاء الفنان الحمادي، وخلاصة تجاربه الخاصة، في مجال العمارة والفنون، بالإضافة الى التجارب المستوردة والقادمة من خارج حدود الدولة الحمادية، كالقيروان، مصر وجنوب ايطاليا .ولذلك يمكن اعتبار الحماديين أصحاب طراز معماري جديد يرتبط بأصوله ومحيطه، ويعتبر كل ما أنتجه الحماديون إضافة جديدة للحضارة الإسلامية .ولعل النماذج المدروسة في البحث صورة عن جانب من حضارة بني حماد في القلعة وحرصهم على توفير عناصر الحياة في حاضرتهم متحدين بذلك وعورة وقساوة المنطقة .ولذلك فإن التطور الذي بلغه الحماديون هو ثمرة للجهد البشري، وأن عمارتها تتسم بالأصالة والابداع والتجديد في مختلف المجالات، وهي مازالت شاهدة عليهم حيث تركت بصماتها واضحة في حضارة وتاريخ المغرب الأوسط (الجزائر).



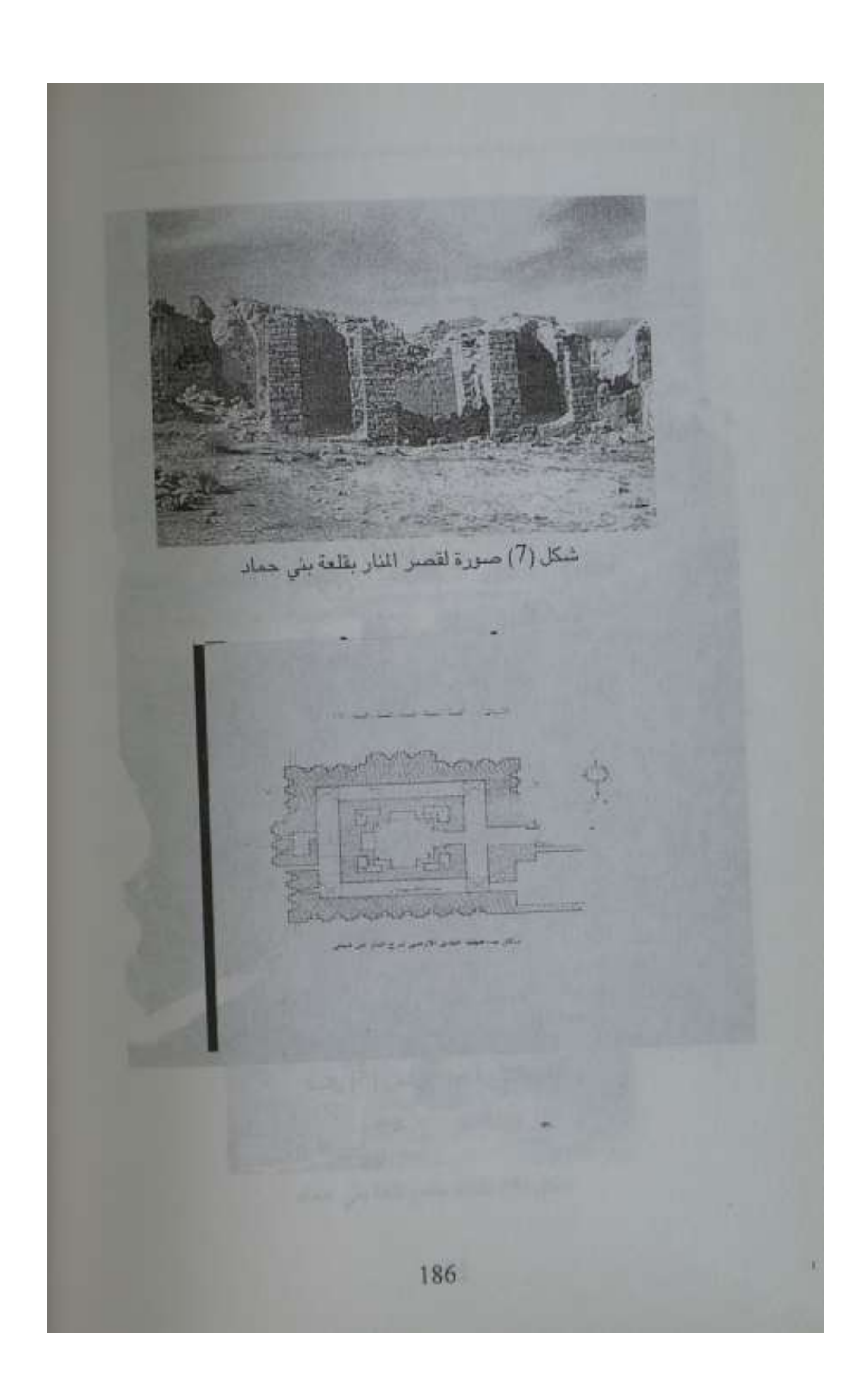


شكل (3) جامع قلعة بني حماد

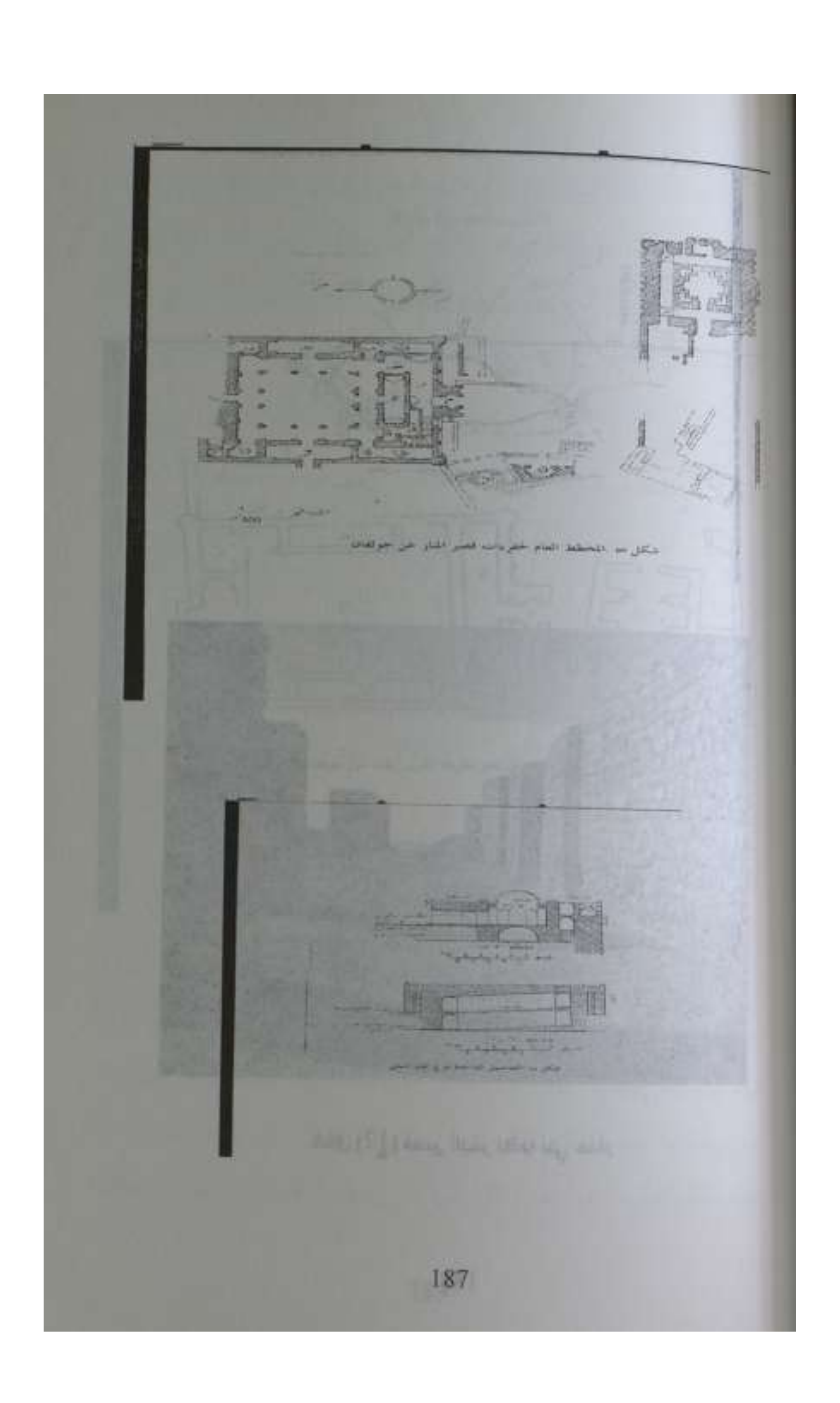
شكل (4) مئذنة جامع قلعة بني حماد

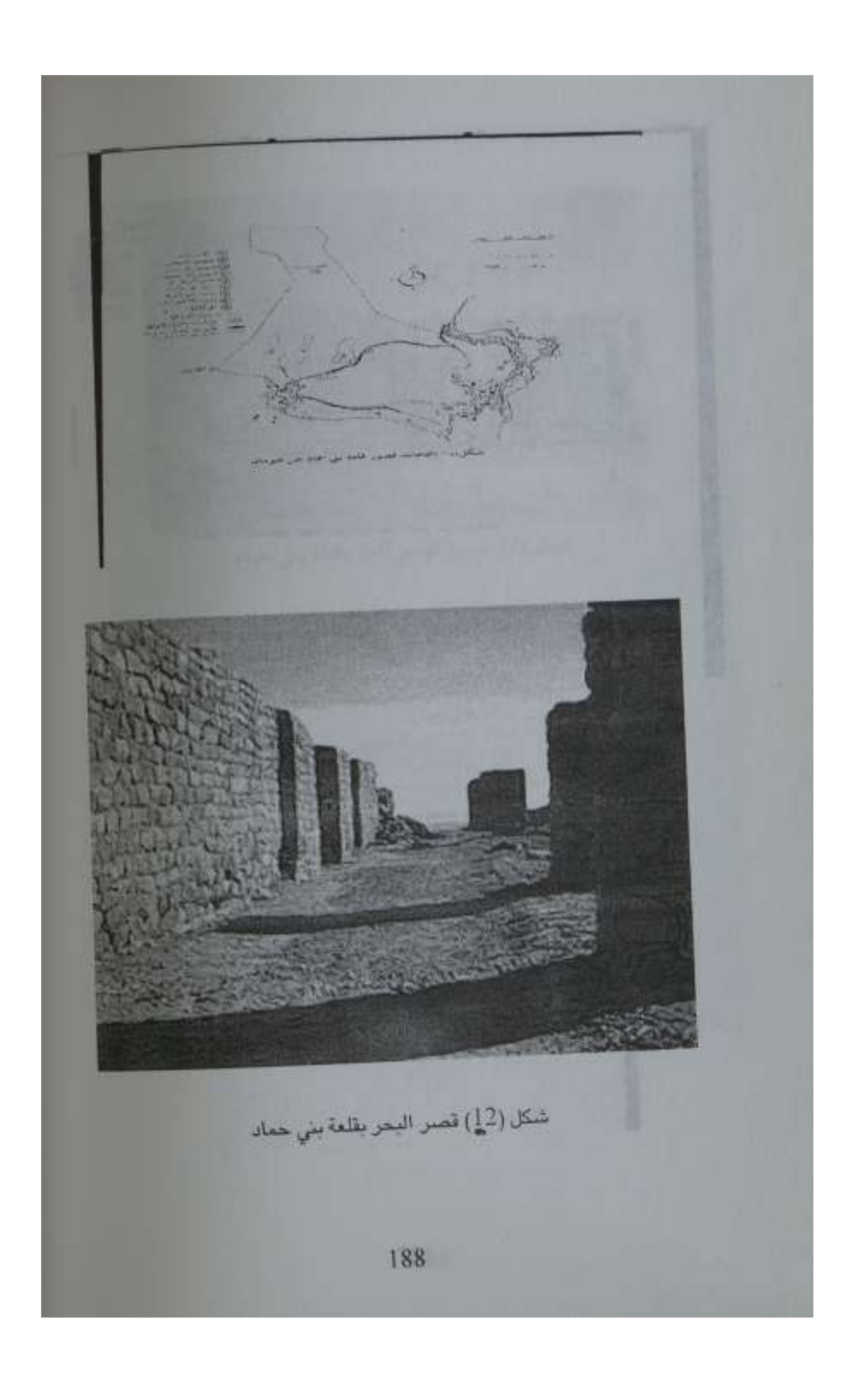


شكل (5) زخارف مصلى قصر المنار

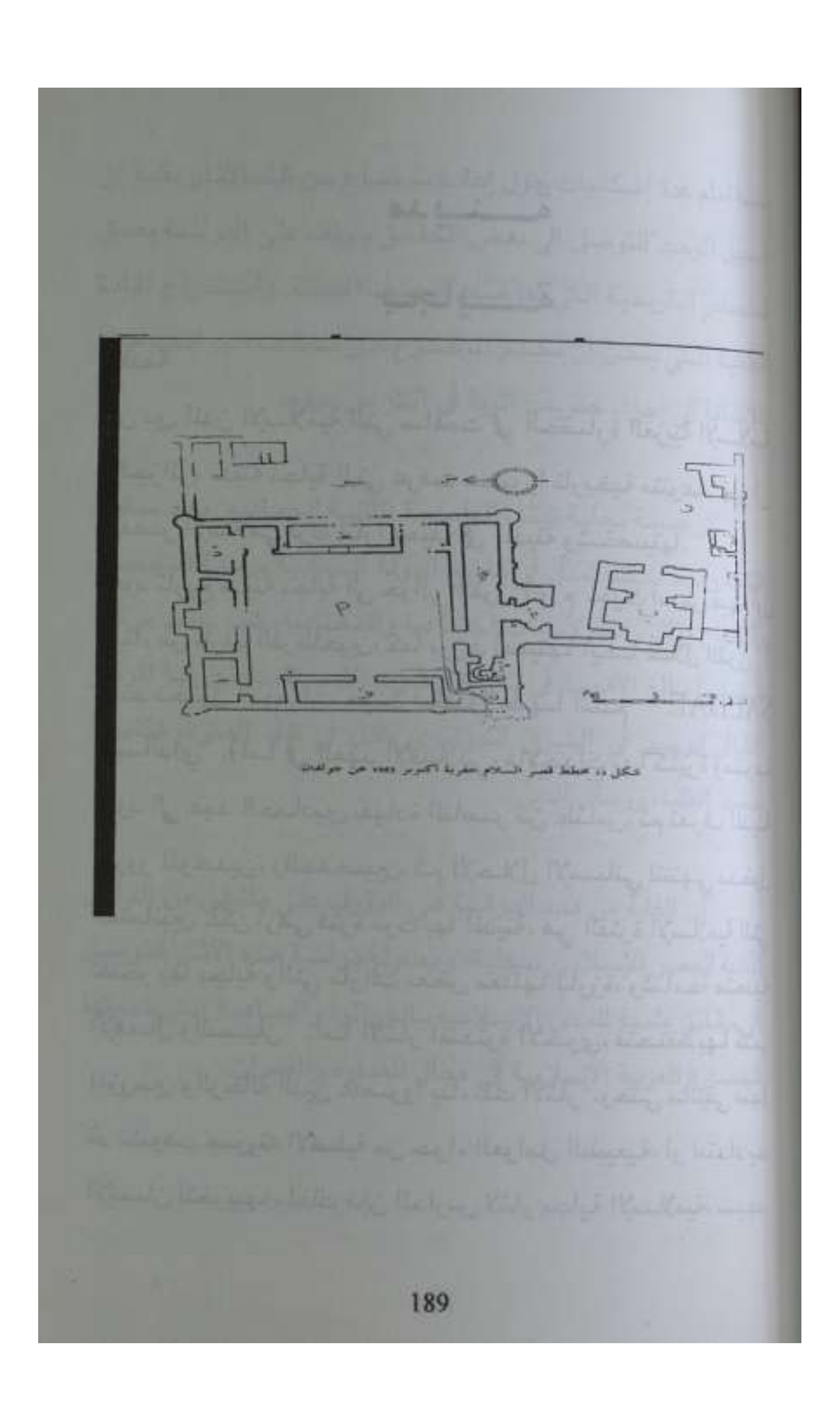


شكل (7) صورة لقصر المنار بقلعة بني حماد





شكل (12) قصر البحر بقلعة بني حماد



شكل ٥٥: مخطط قصر السلام بطرية الكبرى ١٩٩٩ عن جوالفان

مدينـــــة

بـجايــــــة

مقدمة

من بين المدن الإسلامية التي ساهمت في الحضارة العربية الإسلامية بالجزائر، مدينة بجاية التي عرفت عصورا تاريخية متنوعة، غير أن العصر الإسلامي ترك آثارا عميقة في المدينة وشخصيتها.

يعود تاريخ مدينة بجاية الى حوالي القرن 4ق م .حيث أسس فيها أول ميناء من طرف القرطاجيين، كما برزت أهميتها أيضا خلال القرن 1 عند دخول الرومان، حيث أطلقوا عليها اسم SALDAE)صالداي .(أما في العهد الإسلامي، فالأحداث بها كثيرة ومتنوعة تعود الى عهد الحماديين بقيادة الناصر بن علناس، ثم تعرف المدينة مرور الموحدين، والحفصيين، ثم الإحلال الإسباني لتنتهي بدخول العثمانيين .لكن أزهى فترة مرت بها المدينة، هي الفترة الإسلامية التي تفتخر بها بجاية والتي مازالت بعض معالمها بارزة، وشامخة متحدية الإهمال والنسيان .أما الآثار المندثرة الأخرى، فتحتفظ بها كتب المؤرخين والرحالة الذين عاصروا بناء تلك الآثار .وحتى ماتبقى منها قد تشوهت صورته الأصلية من جراء العوامل الطبيعية، أو امتداد يد الإنسان لتخريبها، لذلك فإن الدارس لآثار بجاية الإسلامية، سيجد

نفسه أمام عدة إشكاليات حول إعادة ما ضاع من تلك الآثار .كما أن السبيل الوحيد للتوصل الى بعض الحقائق يتوقف على الدراسة بعمق المصادر التاريخية التي تعرضت لوصف المنطقة، واستخراج المادة العلمية التي يمكن أن تخدم الموضوع من مختلف الجوانب، هذا بالإضافة الى إجراء حفريات اثرية في أكثر من موقع.

ان مدينة بجاية تمثل العاصمة الثانية للحماديين بعد سقوط القلعة وهـ.ـه المدينة تمثل في تاريخ الدولة الحمادية مرحلة التحضير والإنفتاح وذلك راجع لأسباب اجتماعية واقتصادية، كمـ ـانت مركزا حضاريا بالغ الأهمية في تاريخ المغرب الأوسط، بإعتبارها المركز الثقافي الوحيد في الشرق الجزائري ككل في تلك الفترة، فكانت مقصد العلماء ورجال الدين.

إن الغاية من هذه الدراسة هي الوقوف على ماتبقى من الدلائل المادية للعصر الإسلامي ببجاية، ومحاولة دراسة هذه الآثار للتوصل الى حقائق علمية للمدن الإسلامية بالجزائر، والمساهمة التي قدمتها للحضارة العربية الإسلامية في مجال العمارة والعمران.

طبوغرافية الموقع الجغرافي لبجاية

اسم بجاية كان معروفا منذ أقدم العصور، حيث كانت تعرف في العصر الروماني، وماقبله باسم)صالداي (saldae[53] بحيث تقع على سفح جبل وجاء ذكره في المصادر التاريخية إذ كان يسمى أمسيون[54] .وبجاية مدينة ساحلية تقع على بعد 236كلم شرق العاصمة بالمنحدرات السفلية لجبل ورايا على خط طول 9و 5درجة شرق قرينش، وخط عرض 49و 36درجة شمال خط الإستواء، وهي بذلك تحتل مكانا وسطا بين الجزائر العاصمة وقسنطينة .توجد بساحلها الشمالي الشرقي ثلاثة رؤوس ساحلية هي :رأس بوحاي في الوسط والمعروف في الخرائط الفرنسية باسم le cap noir، ورأس بواك في الجنوبle cap bouac ، والرأس المثقوب في الشمال..le cap carbon يحد بجاية من الجنوب هضبة وادي الصومام، ومن الغرب جبل وريا 672م التابع للسلسلة الشرقية للأطلسي التلي .ومن أهم أودية بجاية وادي الصومام حاليا، وهو دائم الجريان .أما عن مناخ المنطقة فهو معتدل.

[53] -gsell (st), atlas archeologique de l'algerie .f.n° 07 . 12.paris, alger, 1902-1911.

[54] - الإدريسي) الشريف(: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس .مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق تحقيق وتعليق اسماعيل العربي .ص .160 الجزائر.1983

أصل إسم الموقع

كانت بجاية في العهد الروماني تدعى صالداي، وهي أيضا حسب أقوال المؤرخ ابن خلدون لقبيلة بربرية كانت تقطن هذا المكان، ويعرف باسم بجاية في اللغة العربية، و(فايث) بالبربرية.

كما حملت اسم بانيها الناصر بن علناس فيما بعد، وأصبحت تعرف بالناصرية[55].

اسست بجاية من طرف الدولة الحمادية في القرن 5هـ/11م على يد الناصر بن علناس، واتى ذكرها في الكثير من المصادر التاريخية[56]، وكان موقع بجاية معروف منذ أقدم العصور، وذلك لوجود المدينة على سفح جبل، كما جاء ذكره في المصادر التاريخية إذ كان يسمى (أمسيون)[57].

لمحة تاريخية عن بجاية في العصر الإسلامي

كان لموقع بجاية الساحلي الحصين ومرفئها الطبيعي أثرا في ظهور عدة حضارات متنوعة، جعلت استراتيجيتها غنية تاريخيا، وهذا منذ أقدم العصور، ولذلك سنحاول التطرق الى أوسع حقبة تاريخية .

---

[55] - إبن خلدون (عبد الرحمان)، العبر ....ج6 ص 857 . لبنان 1959.

[56] -bougie dans l'ancyclopédie de l'éslam. tomel . paris . 1913.PP785-786.

[57] - الإدريسي: المرجع السابق ص160

عرفتها المدينة، وهي العصر الإسلامي الذي اثر فينا تأثيرا عميقا وصنع شخصيتنا المعاصرة.

جاء تأسيس بجاية من طرف الناصر بن علناس الحمادي في سنة460 هـ1067/م، وذلك بعد رحيل الحماديين من القلعة، حيث تم بإحاطة المدينة بسور، وشيّد قصر اللؤلؤة، ومباني ضخمة وسماها "الناصرية."

وتألقت سمعتها في عهد الحماديين، وعرفت عمرانا لا مثيل له. وفي عهد المنصور، أتم بناء قصر اللؤلؤة الذي يعد من أعجب قصور الدنيا.

كما بنى قصر **النجمة، وقصر** أميمون، وبنى المسجد الجامع [58]. وفي عهد المنصور عرفت بجاية الإستقرار والرفاهية واشتهرت بعلمائها وبناياتها . [59] وكانت بجاية في العصر الحمادي دارا لصناعة السفن من كل الأنواع، وكان يجلب الخشب من المناطق المجاورة لها .ولقد وصف الإدريسي المدينة في عصره حيث قال« إن مدينة بجاية في وقتنا هذا هي مدينة المغرب الأوسط، والسفن اليها مقلعة، ولها القوافل متجهة، والأمتعة اليها برا وبحرا مجلوبة، والبضائع بها نافقة، وأهلها مياسير، وبها من الصناعات والصناع

---

[58] - الغبريني) أحمد أبو العباس(: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض .دار الكتاب اللبناني لبنان.1979 ص07

[59]- IDRIS H.R LA BERBERIE ORIENTALE SOUS LES ZIRIDES PARIS 1962 PP 267-270

مالبس بكثير من البلاد، وأهلها يجالسون تجار المغرب الأقصى، وتجار الصحراء، وتجار المشرق، وبها تحل الشدود وتباع البضائع بالأموال المقنطرة، ولها بواد ومزارع، والحنطة والشعير بها موجودان بكثرة، والتين وسائر الفواكه بها ما يكفي لكثير من البلاد[60]

وكان للمدينة آنذاك مجموعة من الأبواب، إندثر الكثير منها ولم يبق إلا بابان هما :باب البحر وباب البنود .ومن هذه الأبواب نذكر : باب أميسون وباب المرسى الذي يحتمل أن يكون في منطقة بريجة السفلى .باب البنود الذي يقع في الجانب الشمالي الغربي، وكان المدخل الرئيسي للمدينة [61] بالإضافة الى باب اللوز الذي إقتحم منه بنو غانية القصبة، ثم باب البحر الذي يفتح مباشرة على البحر، حيث كان المدخل الرئيسي للسفن القادمة من البحر، وكذلك باب الجديد، وباب الدباغين[62]

ولقد أعطى البلنسي في كتابه :الرحلة المغربية وصفا رائعا ومفصلا للمدينة حيث قال ...« :وهي كبيرة، حصينة، منيعة، شهيرة، برية وبحرية، سنية سرية وثيقة البنيان ...رفيعة المباني، غريبة المعاني موضوعة في أسفل جبل وعر مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما

[60] - الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق .قسم المغرب العربي .تحقيق محمد الحاج صادق .باريس .1983ص ص90.91

[61] - المراكشي) عبد الواحد(: المعجب في تلخيص اخبار المغرب .تحقيق سعيد العريان القاهرة .1963ص.164

[62] - الغبريني: مرجع سابق ص ص.82; 69

إشراف الطليعة ...فلا مطمع فيها لمحارب، ولا متسع فيها لطاعن وضارب، ولها جامع عجيب.»[63]

ونظرا لهذه الأهمية الكبيرة للمدينة، والازدهار الذي بلغته في عهد بني حماد، نجد أن بابا روما)كريكوار السابع (كان يتودد للناصر ويكاتبه مكاتبات يلاطفه فيها، ويوصيه خيرا برعاياه من النصارى[64] وبعد قدوم الحملة الموحدية، وعلى رأسها عبد المؤمن بن علي سنة 546هـ1152/م [65] .وبذلك أصبحت بجاية تحت راية الموحدين الى غاية القرن 13م .وقد تعرضت المدينة أثناء هذه الفترة الى احتلال بني غانية، **ثم استعادها الموحدون بعد ذلك** .وعرفت المدينة أيضا في هذا العهد **ازدهارا ورخاءً وتقدما تجاريا** وعمرانيا [66] .وبعد سقوط الموحدين، أصبحت بجاية تابعة للحفصيين حين استقل أبو زكرياء عن الحكم الحفصي بتونس سنة 629هـ1298.م وكان الصراع قائما عليها ما بين بني عبد الواد من تلمسان الذين دخلوها في السنوات1310 :و1316و1318و1319م .والمرينيين الذين دخلوها سنة 746هـ[67]

---

[63] البلنسي(محمد العبدري): الرحلة المغربية .تحقيق أحمد بن جدو .نشر كلية الآداب الجزائرية .دت ص ص .24 .23

[64] – مصطفاي) رشيد(: تاريخ بجاية .مجلة الأصالة .السنة الأولى .العدد الأول .مارس .1971 ص.90

[65] - ابن خلدون، العبر، ج .6 ص .363 لبنان.1959

[66] -ا لغبريني .مرجع سابق ص07 .

[67] – نفسه ص07

وفي ظل الحكم الحفصي، تمكن أمراؤها عدة مرات من التحرر من سلطان تونس، وجعلوا من بجاية عاصمة لولاية مستقلة، وتمكنوا من صد هجمات بني عبد الواد والمرينيين.

واثناء الإحتلال الإسباني، حاول عروج عدة مرات افتكاكها منهم خاصة سنة 1513م[68] لكنه لم يتمكن من ذلك، الى أن قام بعده صالح رايس سنة 1555م من تحرير المدينة، وأصبحت بجاية تابعة لبايلك الشرق منذ عام 1567م[69].

وهنا لابد أن نسجل أن مدينة بجاية، عاشت خلال العهد العثماني فترة تتسم بالعقم الثقافي، والإنكماش الحضاري الذي يلاحظ على مستوى الإنتاج الفكري المفقود خلال هذه الفترة الطويلة، وأخذ مجدها العلمي ينمحي جيلا بعد جيل دون أن يترك أي أثر.[70]

تأسيس المدينة

يذكر ابن خلدون أنه بسبب زحف عرب بنو هلال على القيروان وقدومهم الى القلعة، اضطر الناصر الحمادي بأن يهجر سكنى القلعة ويختط مدينة بجاية، وكان ذلك في حدود 460-461هـ -1067-

[68] - WINTZER P' BOUGIE PLACE FORTE ESPAGNOLE. ALGER 1932. PP213 220.
[69] - GAID M HISTOIRE DE BEDJAIA ET SA REGION,SNED,ALGER-2 1976.PP:115-123.
[70] - FERAUD CH. HISTOIRE DE BOUGIE .IN.R A.1858,1859.PP:45-46 275.276.

1068م، فسماها الناصرية، ويقول نفس المؤرخ في هذا الصدد ...« :
فلما افتتح هذا الجبل اختط به المدينة وسماها الناصرية، وتسمى عند
الناس باسم القبيلة وهي بجاية ونقل اليها الناس.

وأسقط الخراج عن ساكنيها، وانتقل اليها سنة احدى وستين[71]. وبذلك أصبحت من المدن الكبرى في العالم الإسلامي انذاك، وملتقى للقوافل التجارية، ومركزا ثقافيا كبيرا.

ويعتقد الكثير من الدارسين بأن تأسيس مدينة بجاية جاء كملجئ اخذه الحماديون هروبا من عبث بني هلال، غير أن هناك أسبابا أخرى لتأسيسها، إذ يرى الأستاذ رشيد بورويبة [72]أن السبب الرئيسي لإنشاء المدينة هو طموح الناصر بن علناس الى فتح مدينة المهدية الذي صعب عليهم في وقت مضى، وذلك بدليل أن القلعة الحمادية بالمسيلة لم تكن مهددة من قبل الهلايين في عهدي الناصر والمنصور، حيث بقيت كعاصمة ثانية للحماديين، لأن انحطاط القلعة بدأ في عهد العزيز بن منصور[73].

وهذه الأحداث التاريخية تجعلنا نرجح بأن الحماديين قد اتخذوا من بجاية قاعدة توسع لسلطانهم، الشيء الذي نلتمسه

---

[71] ـ ابن خلدون: العبر ...ج .6لبنان .1909 ص.357

[72] بورويبة) رشيد(: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها الجزائر.1977 ص.116

[73] ـ نفسه ص.68

بوضوح في نص ابن الأثير ...« :[74] إن وزير الناصر بن علناس أبا بكر بن أبي الفتوح أرسل رسولا من عنده الى تميم يعتذر ويرغب في الأصلاح، فقبل تميم وأرسل الى الناصر محمد ابن البعبع.»...

بجاية من خلال المصادر التاريخية

نظرا للمكانة التاريخية والحضارية التي كانت تحتلها بجاية في عصرها، وقف كل مؤرخ راها أو سمع عنها، أو مر عليها فدوّن وصفه في ثنايا الكتب ولذلك سوف نقتصر على ذكر الأهم منها:

البكري ...« :ثم مرسى بجاية أزلية آهلة عامرة بأهل الأندلس، بشرقيها نهر كبير تدخله السفن محملة، وهو مرسى مأمون ...مرسى بجاية هو ساحل قلعة أبي الطويل ...وجزيرة جربة قبل مرسى بجاية، ثم يلي مرسى بجاية، مرسى سبيبة.»[75]

الادريسي« :مدينة بجاية على البحر، لكنها على جرف حجر، ولها من جهة الشمال جبل يسمى أمسيون، وهو جبل سامي العلو، صعب المرتقى ...ومدينة بجاية في وقتنا هذا مدينة المغرب الأوسط، وعين بلاد بني حماد[76].»

---

[74] - ابن الأثير: الكامل في التاريخ .ج.12طبعة القاهرة1353 هـ

[75] -البكري: المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب.ص .82 بغداد د ت،

[76] - الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، ليدن1864 ص ص.91-90

ابن خلدون ...« :فلما افتتح هذا الجبل، اختط به المدينة وسماها الناصرية، وتسمى عند الناس باسم القبيلة، وهي بجاية وبني بها قصر اللؤلؤة، وكان من أعجب قصور الدنيا، وأسقط الخراج عن ساكنيها، وانتقل اليها سنة احدى وستين، وفي أيام الناصر هذا كان استفحال ملكهم[77]

صاحب كتاب الإستبصار« :بجاية هي مدينة عظيمة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها، وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة أصحاب قلعة ابن أبي طويل ...وانتقل ملكهم من القلعة الى بجاية ... وبينها وبين قلعة بني حماد مسيرة أربعة أيام ...ولها داران لإنشاء السفن ...وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم ...ومدينة بجاية كثيرة الفواكه والثمار وجميع الخيرات ...فيها قصور من بناء ملوك صنهاجة لم ير الراؤون أحسن منها بناءً ولا أنزه موضعاً.»[78]

العبدري« :إن مدينة بجاية مبدأ الإتفاق والنهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة، منيعة شهيرة، برية بحرية غريبة العاني، موضوعة في أسفل جبل وعر، مقطوعة بنهر وبحر، مشرفة عليهما إشراف الطليعة، متحصنة بهما، منيعة فلا مطمع فيها لمحارب، ولا متسع فيها لطاعن وضارب ولها جامع عجيب منفرد في حسنه، من الجوامع المشهورة

---

[77] – ابن خلدون: العبر.ص.226

[78] - صاحب كتاب الإستبصار .نقلا عن اسماعيل العربي، المدن المغربية.ص.321

الموصوفة المذكورة وهو مشرف على برها وبحرها، وموضوع سحرها ونحرها، فهو غاية في الفرجة والأنس، ينشرح الصدر لرؤيته، وترتاح النفس .وأهلها يواظبون على الصلاة فيه مواظبة رغاية ...وهذا البلد بقية قواعد الإسلام، ومحل حلة من العلماء والأعلام[79] .»

الآثار المعمارية الباقية ببجاية

اندثر الكثير من المعالم المعمارية التي كانت موجودة ببجاية في العهد الإسلامي، خاصة تلك التي تعود الى العهد الحمادي.

وهذا راجع للغزو الإسباني الذي هدم الكثير من المباني، وغير حتى من النسيج العمراني للمدينة الإسلامية، ولم يبق منها إلا بعض المباني الإسلامية المتناثرة هنا وهناك شامخة متحدية الإهمال والنسيان، والتي تشهد بالتاريخ العريق للمنطقة في وقت مضى .ونذكر على سبيل المثال من هذه المباني بعض بقايا الأسوار والأبراج التي تعود للعهد الحمادي، بالإضافة الى أبواب المدينة التي كان عددها آنذاك سبعة لم يبق منها إلا بابان وكلها تعود للعهد الحمادي .هذا بالإضافة الى برج موسى شمال غرب باب البحر، ويعود الى الفترة الإسبانية، وبني على أنقاض قصر النجمة الحمادي المشيد من طرف الأمير المنصور بن الناصر، ثم حصن سيدي عبد القادر جنوب شرق باب البحر، ويعود الى الفترة الحمادية، وكذلك مجموعة كبيرة من

---

[79] - البلنسي) محمد العدري(: الرحلة المغربية، ت أحمد بن جدو ، ص.23

الأضرحة منها ضريح سيدي تواتي على سبيل المثال والذي كانت تلحق به مدرسة خلال العهد الحمادي [80]

ومن الأبنية المدنية نذكر قصر أميمون جنوب غرب سيدي تواتي بناه المنصور بن الناصر خلال القرب5هـ 11/م ومازالت بعض اثاره لحد الآن .ونذكر كذلك القصبة ومسجدها الذي يعد من المباني الهامة فيها إذ يحمل إشكاليات تأريخية كثيرة، ونفس الملاحظة تنطبق على جامع سيدي السوفي الذي يعتقد أنه يعود للفترة العثمانية.

عمارة بجاية في العهد الإسلامي

1-العمارة الدينية

أ -مسجد القصبة

تضاربت الآراء حول تاريخ المسجد، لكن استنادا الى قول الغبريني [81] يفترض أن المسجد الجامع بالقصبة هو ذلك المسجد الأعظم الذي ذكر في مورد زحف الموارقة على مدينة بجاية، هذا إذا سلمنا بأن القصبة شيدت في القرن 6هـ12/م بما فيها المسجد الجامع، ليتحول فيما بعد الى الجامع الأعظم في عهد الحفصيين افتراضيا.

---

[80] - اسماعيل) العربي(: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، ص ،192الجزائر.1980

[81] -الغبريني) ابو العباس احمد(: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ،تحقيق رابح بونار ، الجزائر.1981 ص.140

وفي أقوال أخرى، يذكر بأن المسجد حديث الإنشاء بني في سنة 1212هـ/1797م تحت إشراف مصطفى باشا، لذلك فهو بني تحت الحكم التركي[82].

ولكن المتصفح لمختلف كتب التاريخ التي تحدثت عن المنطقة، يجد بأنها تجمع على أن القصبة كان بها مسجدا ذكر في مختلف الكتب وعلى مر العصور الإسلامية.

أما من الناحية المعمارية، فالمسجد يأخذ شكلا مستطيلا تقدر أبعاده بـ 19.35 طولا و 16.54عرضا، ومساحته قدرها 320.05م« 2شكل.»1

يتكون المسجد من أربع واجهات، إثنتان منها صماء، بينما الواجهة الجنوبية الشرقية والغربية تفتح عليها بعض الفتحات والعقود .يختلف بيت الصلاة في المسجد عن انماط المساجد الإسلامية المعروفة، والتي تتميز بصحن اوسط تحيط به أروقة .وإذا افترضنا بأن الجدار الجنوبي هو جدار القبلة فإن المسجد يتألف من خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة.

عرض كل واحدة منها 3.10م، ماعدا البلاطة الوسطى المستعرضة، فعرضها 3.76م، وهذه تحمل ثلاث قباب مثمنة الشكل، وأربع بلاطات موازية لجدار القبلة عرض كل واحدة منها 3.10م

[82] – FERAUD CH NOTES SUR BOUGIE.IN.REVU AFRICAINE N 03 ANNEE 1858 1859.P296

ماعدا البلاطة الأخير، فعرضها 3.50م .حددت البلاطات بواسطة دعامات مربعة الشكل تحمل عقودا منكسرة ومتجاوزة بالإضافة إلى عقود نصف دائرية.

أما عن أسلوب التغطية في المبنى، فيتألف المسجد من ثلاث قباب مثمنة الشكل تمتد على طول البلاطة الوسطى العمودية على جدار القبلة، أما عن بقية التسقيف، فيتخذ شكلا جملونيا هرميا يتألف من عوارض ولوحات خشبية من الداخل تغطيه صفائح من القصدير من الخارج، وغطي سقف القباب بسقف مسنم أيضا.

أما جدران المسجد الداخلية، فتتخللها فتحات ونوافذ وحنيات وأبواب.

إن ما يمكن ملاحظته على تخطيط هذا الجامع، أنه يتبع نظام تخطيط المساجد التي ظهرت في المشرق، أو في المغرب .فهو ذو عرض أكبر من العمق، ويشبه في شكله المساجد التي شيدت في المشرق، كالمسجد الأموي في دمشق، والجاماع الأزهر الفاطمي فهو توزيع يشبه المساجد التي ظهرت في بداية العصر الإسلامي الى حد الآن. فالمسجد عبارة عن بيت صلاة في شكلها، ويختلف في ذلك عن أنماط المساجد الإسلامية المعروفة التي تعتمد على توزيع مركباتها على صحن أوسط .

ونلاحظ على المسجد كثير من التأثيرات الفنية القادمة من القيروان كشكل التيجان مثلا، وكذا التأثيرات الحمادية القادمة من

القلعة، لأن الكثير من مظاهر الفن والعمارة في العهد الحمادي نلمحها في بجاية عاصمة الحماديين الثانية، وهذا ما يفسر باستمرار الفن الحمادي في بجاية.

وما يمكن ملاحظته أيضا بجامع القصبة ببجاية هو خلوه من عنصر المحراب، حيث يفترض أن ذلك المدخل المعقود الذي يتوسط الضلع الجنوبي هو مكان المحراب، لأن سمك الجدار الذي يقدر بـ0.80م يمكننا من الحصول على حنية مجوفة تؤدي وظيفة المحراب وموقع هذا الأخير باتجاه القبلة يسمح لنا بالإدلاء بهذا الرأي واعتباره الرأي الأرجح.

هذا وينعدم أيضا بالجامع عنصر المئذنة، ولكن يفترض أن الإنكسار الموجود في الواجهة الجنوبية الغربية، والذي يشكل حيزا أبعاده تقدر بـ1.30م، وعليه يمكن أن تكون هذه المساحة تشغل مئذنة مربعة المسقط على غرار المآذن المغربية .وتجدر الإشارة الى خلو المسجد من مختلف الزخارف مما صعب تحديد الأسلوب الذي قام عليه المسجد.

وفي الأخير يمكننا القول استنادا الى بعض الدلائل المعمارية بأن أصل المسجد والقصبة موحدي، ثم تعرض لبعض التوسيعات في العهد الحفصي، خاصة في البلاطة الأخيرة، ثم بدخول الإسبان بجاية، تعرضت معظم مبانيها الإسلامية بما فيها القصبة وجامعها الى الهدم

تنفيذا لوصية)إزبيلا (الكاثوليكية وهي تمسيح شمال افريقيا، مما جعل)برو نافارو PEDRO NAVARROيعيد تشييد القصبة الحالية بأبراجها، وبدخول العثمانيي أعادوا بناء المسجد من جديد، أوأدخلوا عليه تعض التعديلات والترميمات والإضافات المعمارية ما تتجلى داخل المسجد بوضوح.

ب -أضرحة بجاية

إن دراسة الأضرحة ببجاية يهدف الى محاولة الوقوف على القيمة التاريخية والأثرية وحتى الإجتماعية للأضرحة والمزارات بصفتها معالم حضارية، كما تهدف أيضا الدراسة الى الكشق عن أهميتها المعمارية والفنية وبعض أصولها .والحديث عن بجاية يدفعنا حتما الى الحديث عن الأضرحة وولاتها الصالحين، وما تحمله هذه الأمكنة من معان ورموز بالنسبة للمجتمع البجاوي الذي يكثر من زيارة هذه الأضرحة .ولقد كثر الحديث عن دور هذه الأضرحة في حماية المدينة باعتبار أن معظم أحياء بجاية اليوم تسمى على أوليائها.

والشائع لدى المجتمع البجائي، أن بجاية كان يطلق عليها إسم «مكة الصغيرة»، وعرفت تسع وتسعين وليا صالحا، ويقال إنه لوزاد ولي آخر لأصبحت ارضا مقدسة .كما أن العدد الكبير من هذه الأضرحة قد اندثر ولانعرف له أثرا ما عدا بعض الإشارات في ثنايا

الكتب التاريخية التي تحدثت عن بجاية .كما يجب أيضا أن نتساءل عن العدد الكبير والحضور لهذه الأضرحة في هذه المنطقة؟

المساجد والقصور، وبقية المباني التي هدمها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.

المعروف أن أزهى عصر مرت به المدينة هو العصر الإسلامي التي مازال بعض آثاره شامخة متحدية الإهمال والنسيان .كما عرفت المدينة الكثير من العلماء والفقهاء طلبا للعلم والزهد، وهناك من استقر بها، حتى إن الغبريني أحمد أبو العباس أفرد مؤلفا لعلماء بجاية في القرن 7هـ/13م حيث أعطى فيه حوالي مائة ترجمة لعلماء وفقهاء بجاية خلال ذلك العهد.

والملاحظ أيضا أن معظم الأضرحة التي نجدها قائمة في بجاية تظهر في مواقع مرتفعة، أي في أعلى الربوات والتلال والهضاب، بحيث يمكن مشاهدتها في نقاط مختلفة من المدينة .ويبدو أن أصحاب هذه الأضرحة قد اختاروا مواقعهم بعيدا عن صخب المدينة، وليتسنى لهم التعبد بعيدا عن الحياة الإجتماعية التي تتطلب المعاشرة والإختلاط، كما تعطي هذه الأضرحة هيبة للمدينة.

ومن الأضرحة التي كان لها دورا هاما في مسيرة بجاية الحضارية والثقافية نذكر بعضها ومنها :ضريح سيدي معمر، سيدي عبد الحق، سيدي الصوفي، سيدي الأخيضر، سيدي محمد أمقران،

سيدي والي، سيدي عبد الرحمن الصباغ، سيدي البتروني، سيدي تواتي، سيدي عيسى، سيدي يحيى أبي زكريا وغيرها...، ويبدو أن الإستعمار الفرنسي قد وجد في هذه الأضرحة والمزارات فرصة لترويج الأساطير والخرافات.

مستغلا بذلك أمية وسذاجة المجتمع لإبعادهم عن المواقع الإستراتيجية وعدم مهاجمتها، هذا ونشير إلى أن العديد من هذه الأضرحة كان عبارة عن معاهد تدرس فيها مختلف العلوم، خاصة معهد سيدي تواتي، وسيدي محمد أمقران في العهد العثماني، كما أدت دورا كبيرا في محاربة المد الصليبي، والفكر الاستعماري الفرنسي مثل الزوايا التي كانت منتشرة في حوض الصومام، والجزائر ككل .ولو حاولنا أن نسلط الضوء على بعض منها كضريح سيدي تواتي على سبيل المثال، فهو يمثل جزء من المدرسة التي وجدت في العهد الحمادي خلال القرن 5هـ 11/م [83] فهو يقع أسفل جبل وريا، فالضريح يتخذ شكلا مربعا تقدر أبعاده 3.51م، ويتربع على مساحة 12.32م2، أما ارتفاعه فيبلغ 3.25م «شكل »2 و«صورة »1. ويتوسط سطح الضريح من الخارج قبة مركزية ملساء، تذكرنا بقباب الأضرحة المنتشرة في شمال افريقيا.

---

[83] – إسماعيل) العربي(: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية .المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1980.ص192.

أما من الداخل، فالضريح بسيط في عمارته، فالمدخل يؤدي الى غرفة مربعة أبعادها 3.31 م، ويوجد على يمين المدخل تابوت الولي الصالح سيدي تواتي، والمصنوع من الخشب استعملت فيه تقنية الخرط والتعشيق.

لقد أصبحت القبة شائعة الإستعمال على الأضرحة والزوايا في المغرب الإسلامي خاصة عند التونسيين الذين يعتبرونها من ملحقات الزوايا، إذ لا يمكنهم تصور قبة إن لم يكن تحتها ضريح ولي صالح([84])

أما القبة المستعملة في ضريح سيدي تواتي، فهي القبة نصف الكروية الملساء بسيطة في عمارتها، ولا تحتوي على زخارف .أما الحنايا الركنية فهي هيئة مثلثات مقلوبة الرأس نحو الأسفل، وهذا التحويل مسقط القبة من مربع الى مثمن.

ولابد من الإشارة الى أن الضريح الملحق بالزاوية كان يحتوي في عهده على ثلاثة آلاف طالب يدرسون التعليم الجامعي وكل المواد بما في ذلك العلوم الفلكية .ويروى أنه خلال ملتقى علمي ألقت طالبة محاضرة حول «بروج الشمس »دامت ثلاثة أيام، وذلك أمام مجموعة من العلماء الأجانب [85]

---

[84] - ربيس) سليمان(: القباب التونسية في تطورها .المعهد القومي اللآثار والفنون تونس.1959 ص.06

[85] - بوروبة) رشيد(: بجاية .سلسلة فن وثقافة . قسنطينة .ص ص.56.57

أما المثال الثاني الذي نسلط عليه الضوء، فهو ضريح سيدي محند أمقران الذي يقع في هضبة مرتفعة خارج باب اللوز .أما عن شخصية صاحب الضريح فيرجع تاريخها الى العهد العثماني، وبالضبط بعد تحرير بجاية من الإسبان، ودخول صالح رايس لها سنة 1555م، وكان لسيدي محند أمقران تاثير في المناطق الواقعة بين بجاية وجيجل، ويرجع أصله الى عائلة المقرانيي بقلعة بني عباس حوالي نهاية القرن16 م.

تربى سيدي مقران بقرية (امعدن)في قبيلة بني مسعود، وكان له قدرة عالية ومكانة بين سكان هذه القرية .ولما دخل العثمانيون بجاية خصه رئيسه باحترام خاص ومنحه امتيازات تليق به .ثم طلبوا منه الإنتقال الى بجاية تاركا زاويته التي أسسها في بني مسعود بقرية امعدان [86].

أما من الناحية المعمارية، فإن الضريح كغيره يأخذ شكلا مربعا «شكل »3تتراوح اضلاعه ما بين 3.80 * 3.60)م(. ولذلك فهو يتربع على مساحة قدرها 13.69م .2ومازال الضريح في حالة جيدة من الحفظ، يتقدم الضريح مدخل يعلوه عقد نصف دائري محمول على

[86] - FERAUD CH . HISTOIRE DE BOUGIE . IN. REVU AFRICAINE ANNEE 1858 1859 PP 278.281.

عمودين يزينهما بابان بسيطان باللون الأخضر الفاتح، وهو اللون المحبب لدى العثمانيين«صورة.»2

أما من الداخل، فالضريح يتكون من صحن مركزي تحيط به مجموعة من القبور يحتمل أن أصحابها كانوا من أقارب سيدي محند امقران .ويحيط بالضريح غرفتان تحتويان على قبور، أما عن غرفة الضريح فهي مبلطة ببلاطات خزفية ذات لون أحمر داكن .وتوجد أربع حنايا ركنية تحمل بواسطتها القبة الملساء، وهي شبيهة بقبة الجامع الجديد في الجزائر العاصمة من الهد العثماني .أما التابوت فيتوسط قاعة الضريح وهو مستطيل من الخشب يحتوي على زخرفة نفذت بطرية التعشيق والخرط .وفي أركان التابوت أربعة أعمدة من النحاس كل واحد منها يحمل كرة صغيرة يعلوه هلال في وسطه نجمة شعار الدولة العثمانية، وهذه الظاهرة موجودة أيضا على الواجهة الرئيسية للضريح« شكل.»4

ومن العناصر المعمارية الجديرة بالملاحظة في هذا الضريح، عنصر القبة ذات النوع نصف الدائري المستعملة بكثرة في العمارة العثمانية بالجزائر.

إن الأضرحة ببجاية لا تحصى ولاتعد، ولذلك فالمجال لا يتسع لذكرها، مما جعلنا نقتصر على أخذ نموذجين فقط لفترتين متباعدتين من العصر الإسلامي.

العمارة المدنية ببجاية

قبل التطرق الى العمارة المدنية ببجاية، لابد من الإشارة الى انه تبقى بعض الآبار فقط كبئر السلام« صورة (3 الذي يعود الى العهد الحمادي، حيث كان زوار مدينة بجاية يتوضئون منها قبل دخولهم اليها.

لأن المدينة بعلمائها وأوليائها كانت تعلوها هالة من القداسة والتبجيل، وهذه البئر تقع على مدخل المدينة من الناحية الغربية.

هذا بالإضافة الى بعض الابار المتناثرة هنا وهناك أسفل جبل وريا مغطاة بالحشائش ويحتمل انها كانت تستعمل لشرب الخيول .أما فيما يتعلق بقصور بجاية، فمعلوماتنا عنها حسب ما طالعتنا به كتب التاريخ فقط كابن خلدون، وصاحب كتاب الاستبصار، والحسن الوزان، وابن حمديس والبجائي [87] .على أن أمراء بني حماد قد بنوا ثلاثة قصور ببجاية هي :قصر اللؤلؤة، وقصر أميمون، وقصر الكوكب، ولكنها تعرضت للهدم الكلي من طرف الإسبان إثر استيلائهم على بجاية سنة 1509م بقيادة)برو نافارو .(ولذلك سنحاول تقريب القارئ بقدر الإمكان الى ما كانت عليه تلك القصور من خلال ما نملك من وثائق مكتوبة في متناولنا) صورة4 و(5، وهذا وصف موجز لتلك القصور.

---

[87] – نقلا عن بورويبة) رشيد(: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ص.245

1-قصر اللؤلؤة:

بالنسبة لموقعه فقد حدد في المكان الذي يقوم عليه المستشفى العسكري[88] على قمة بريجة [89] وتعتبر القصيدتان اللتان نظمهما الشاعر ابن حمديس [90] في وصف قصر اللؤلؤة من أهم الوثائق المكتوبة التي احتفظت لنا ببعض مواصفات هذا القصر.

وما يمكن استخلاصه منها، أنها تمتاز بالعلو واللمعان، وقد يعود لمعانه الى استخدام الطلاء، أو كسوة معدنية كصفائح الرصاص التي غالبا ما تغطى بها القباب والسطوح في المناطق الممطرة، أما عن ابواب القصر، فكانت مخرمة ومصفحة بالذهب ومسمرة بمسامير كبيرة، وهذا ما تشير اليه قصائد ابن حمديس وصفه القصر .أما عن مساحات القصر، فهي مفروشة بالرخام وهذا يذكرنا بمساحة المجموعة الغربية لقصر المنار بقلعة بني حماد.

وكان سقف القصر مزين بمناظر طبيعية، وأخرى للصيد بالإضافة الى زخارف كتابية منفذة على اللازورد .وبالنسبة لمناظر الطبيعة والصيد، فهي تذكر بزخرفة سقوف قصير عمرة ببادية الشام

88- نفسه ص ص 246- 251.

89 - BEYLIE GLDE, LA KALAA DES BENI HAMMAD UNE CAPITALE BERBERE DANS-3 L'AFRIQUE DU NORD AU 18EM SIECLE P 102.

90- بورويبة نقلا عن ابن حمديس ص.246

من العهد الأموي، وكذلك سقف كنيسة (CHAPELLE PALATINE) بايطاليا.

وكان القصر يشتمل على البساتين والرياض، بها أنواع من الزهور والأشجار يسمع منها خرير المياه الجارية على الشاذروانات والمتدفقة في الأحواض من أفواه الحيوانات الممثلة والتي نجد من بينها الأسود في وضعيات مختلفة والطيور والزرافة وحتى الحيات والحيتان. ولقد ألحق بالقصر مسجدا قد أشار ابن حمديس في قصائده الى محرابه وقبابه، وهذه المعلومة يؤكدها البجائي في مخطوطه الذي يذكر فيه تفاصيل عن القصر والمسجد، إذ يذكر بأن الشروع في بنائه كان في عهد الناصر بن علناس.

وأن الفراغ منه قد تم بعد وفاة الناصر، وأواخر عهد ابنه المنصور، أي في حدود 494هـ1100/م[91] وحسب المخطوط دائما أنه ألحق به مسجد عظيم يدخل اليه من اثني عشر بابا، وهو مكون من طابقين، وتعلوه قبة كبيرة تقوم على 32عمودا من بين 412عمود[92] رخامي كانت تقسم بيت الصلاة الى أربعة عشر رواق . وكان يكتنف محراب المسجد عمودان من الرخام الأحمر النادر .أما صحن المسجد

---

[91] وبهذه المعلومة التاريخية الدقيقة يصبح قصر اللؤلؤة أول قصر حمادي مؤرخ بالضبط.

[92] حسب المخطوط البجائي، فإن بناء هذه القبة قد تم في سنة495 هـ1101/م عندما قام المنصور بتوسيع المسجد، وأطلق على هذه القبة، قبة باب البهو.

نكان يمتد على طول 15ذرعا، وقد زود بخزان كبير للمياه بالإضافة الى بئر في حديقة المسجد، أين كانت تقوم المئذنة التي يبلغ ارتفاعها 70ذرعا، وعرضها 25ذرعا ولها بابان يعلوهما ساكف من الرخام.

وخصص في المسجد جناح كبير للنساء تغطيه قبة، أما الطابق العلوي من المسجد فكانت توجد به المكتبة، وغرف إقامة الأئمة والدرسين بالمسجد.

وهذه بعض المقتطفات من قصيدة ابن حمديس وفي وصف قصر اللؤلؤة، لأن القصيدة طويلة لا يتسع المجال لذكرها كاملة:

وكأنه من درة شفافة	يغشي العيون بشدة اللمعان
مصفح الأبواب تبرا نظروا	بالنقش فوق شكوله تنظيرا
بمرخم الساحات تحسب أنه	فرش المها وتوشح الكافورا
وإذا نظرت الى غرائب سقفه	أبصرت روضا في السماء نظيرا
وضراغم سكنت عرين رئاسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
ومن كل واقعة ترى منقارها	ماء كسلسال اللجين نصيرا
والماء منه سبائك من فضة	ذابت على دوحات شدروان
وإذا أتيح لها الكلام تكلمت	بخرير ماء دائم الهملان
فسماوه في سمكها علوية	وقبابه فلكية البنيان

2-قصر الكوكب

المعلومات عن هذا القصر قليلة جدا ما عدا ما ذكره البجائي في مخطوطه والذي مفاده أن المنصور بنى القصر الذي يوجد فيه عرشه، وهو معروف بقصر الكوكب، وهو أجمل قصور العالم، فهو بناء عال مزين بتصاوير مرسومة بحجر الرنج، ونبات اسمه الرجق يدقان معا، ويزينون الجدران بهما بعد دقهما، ويلمع هذا القصر مثل أشعة الشمس، وله تسعة أبواب ذات مصراعين من الخشب المنقوش لا يفتح إلا إذا دفعه عدة رجال أقوياء[93]

3- - قصر أميمون

المعلومات حول هذا القصر أيضا قليلة جدا في كتب التاريخ، فحسب نص لابن خلدون، فإن المنصور بنى ببجاية قصري اللؤلؤة وأميمون.[94] وإن كانت النصوص فيما بعد وضحت بأن أعمال المنصور في قصر اللؤلؤة لا تتعدى أعمال التجديد فقط .والمعلومة الوحيدة حول هذا القصر ما وصفه الحسن الوزان« :من جهة الجبل نرى حصنا صغيرا محاطا بأسوار ومزين بالفسيفساء والخشب المنقوش.[95] ولم يبق من هذا القصر اليوم سوى بقايا جدار فقط في حي أميمون صورة.(6)

---

[93] - نقلا عن بورويبة، المرجع السابق ص.ص.246-245

[94] - ابن خلدون، مصدر سابق، ص.226

[95] - نقلا عن بورويبة، نفس المرجع ص.245

العمارة العسكرية ببجاية

من المعروف أن العمارة العسكرية أكثر العمائر تعرضا للضرر اثناء الحروب وعدم الإستقرار، على غرار العمارة الدينية أو المدنية، لأن العدو حتى يتسنى له اقتحام المدينة لابد من تهديم أسوارها واختراق أبوابها بأي طريقة كانت، وحال بجاية لا يختلف عن بقية المدن الإسلامية الأخرى التي تعرضت للتخريب .فيمكن أن نحصر ما تبقى من معالم العمارة العسكرية ببجاية في بقايا الأسوار الحمادية (صورة 7.) فالأسوار هي التي تشكل الإطار العام للمدينة من جهاتها الثلاثة (الشرق، الغرب والجنوب) حيث يسير هذا السور بالتدرج مع الجبل في شكل مثلث ضخم، وهو الآن غير منتظم الشكل، ويعود تاريخ بنائه الى عهد الناصر بن علناس الحمادي خلال القرن 5هـ/11م.

-1-الأبواب

كان للمدينة سبعة أبواب [96] وهي باب البحر جنوبا)صورة 8 وشكل (5، باب أمسيون، وباب الجديد، وباب المرسى شرقا، وباب الدباغين وباب اللوز، وباب البنود غربا)صورة 9وشكل .(6وتعود كلها الى العهد الحمادي ولم يبق منها سوى بابان هما باب البنود وباب

---

[96] - الغبريني: عنوان الدراية ...ص ص .82-69 الجزائر.1971

البحر الذي يطل على البحر في اتجاه الجنوب، ويتصل بالسور الجنوبي، أما باب البنود فيفتح في السور الغربي وتعرض الى عدة تغييرات تعود الى فترة الإحتلال الفرنسي) شكل.(7)

-2- حصن سيدي عبد القادر

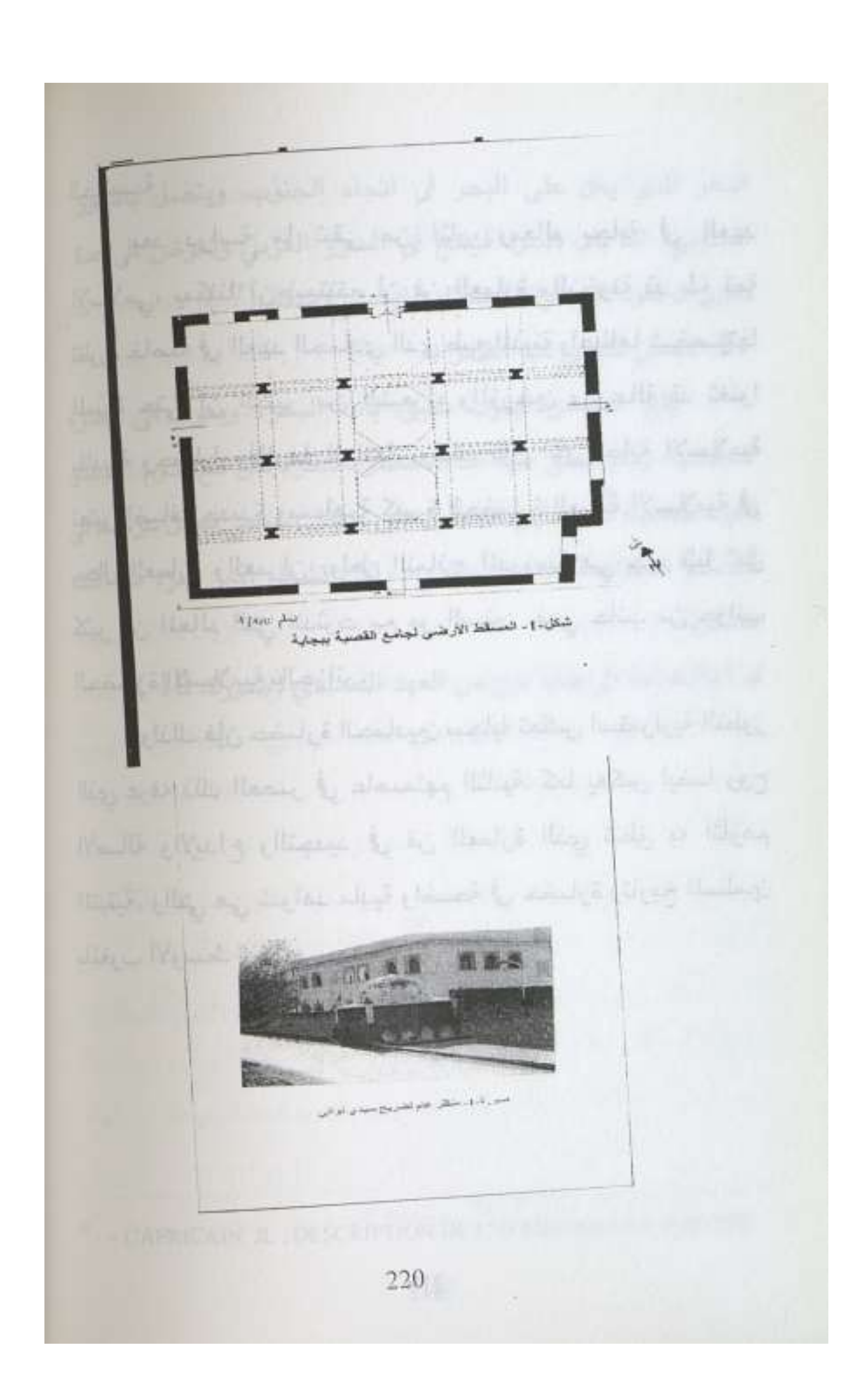
يقع الحصن جنوب شرق باب البحر، ويعود الى الفترة الحمادية، وكان يطلق عليه آنذاك حصن البحر، لكن مع قدوم الإسبان أعيد تحصينه[97] يحتوي الحصن على مدخل رئيسي يصل عرضه الى 1.25م مدعم بعقد نصف دائري، والآن تشغل أكبر جزء منه ثكنه عسكرية.

هذا بالإضافة الى بقايا برج من العهد الحمادي (صورة. 10)

[97] - L'AFRICAIN JL., DESCRIPTION DE L'AFRIQUE.PARIS 1956.P360.

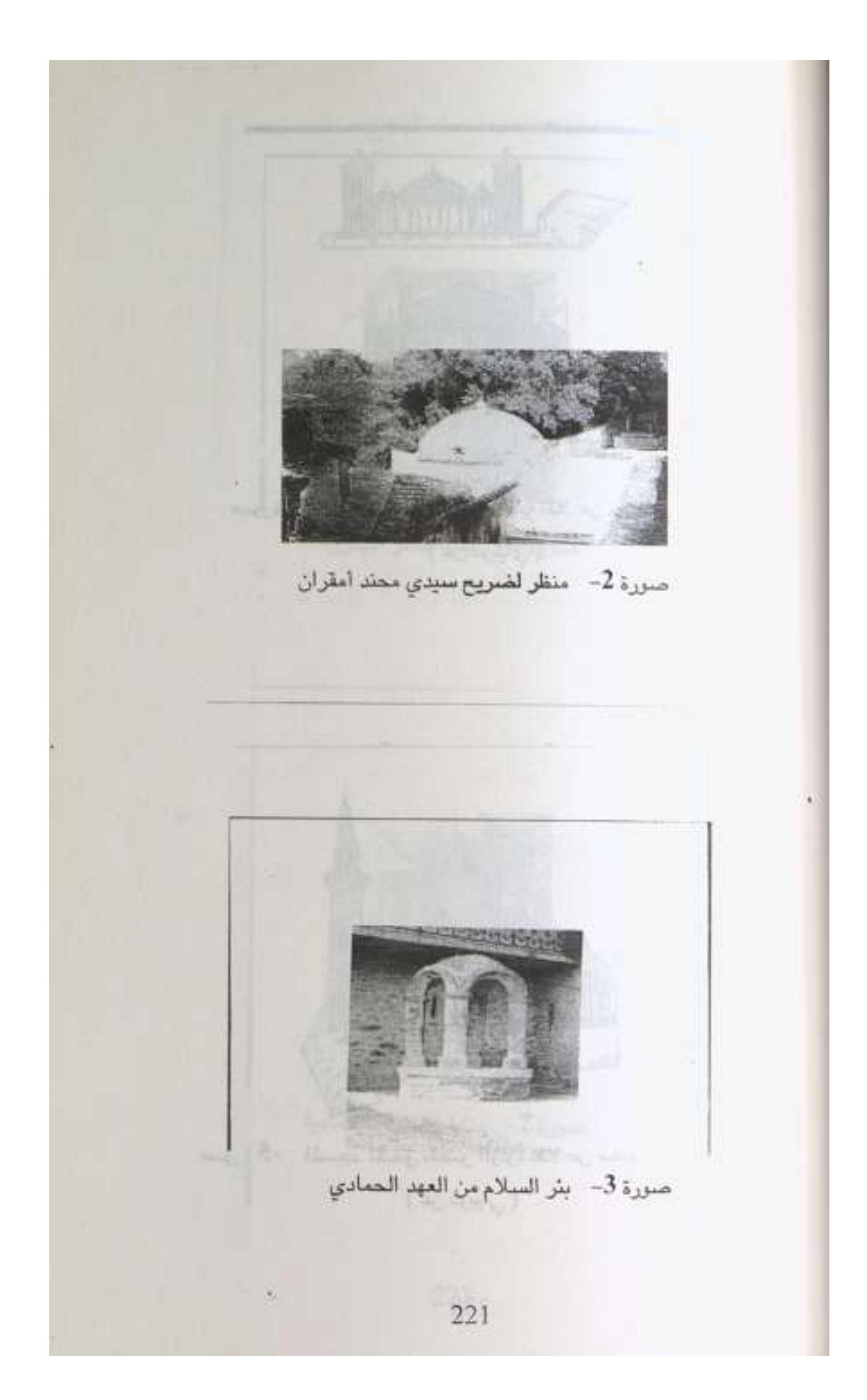
بعد دراسة ما تبقى من آثار، ومعالم بجاية في العهد الإسلامي، يمكننا أن نستنتج أن فن العمارة والزخرفة قد بلغ قمة تطوره خاصة في العهد الحمادي الذي طبع المدينة وأعطاها شخصيتها المميّزة حتى إن الكثير من الشعراء والمؤرخين والرحالة قد تغنوا بالمدينة وجمالها وآثارها الرائعة، وبذلك فإن آثار بجاية الإسلامية تعتبر إضافة جديدة ومساهمة كبيرة للحضارة العربية الإسلامية في مجال العمارة والعمران .ولعل النماذج المدروسة هي جزء قليل من كثير من المعالم التي اندثرت مع مر السنين .فهي جانب من جوانب الحضارة الإسلامية بالجزائر.

ولذلك فإن حضارة الحماديين ببجاية تعكس استمرارية التطور الذي عرفه ذلك العصر في عاصمتهم الثانية، كما يعكس أيضا روح الأصالة والإبداع والتجديد في فن العمارة الذي تنطق به آثارهم المتبقية، والتي هي شواهد مادية واضحة في حضارة وتاريخ المسلمين بالمغرب الأوسط.



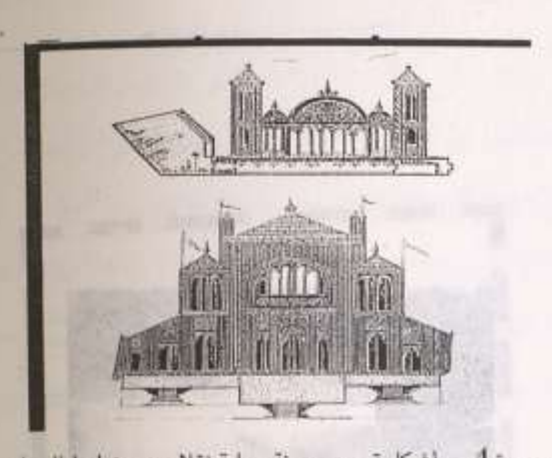
شكل-4- المسقط الأرضي لجامع القصبة ببجاية

صورة -4- منظر عام لضريح سيدي تواتي

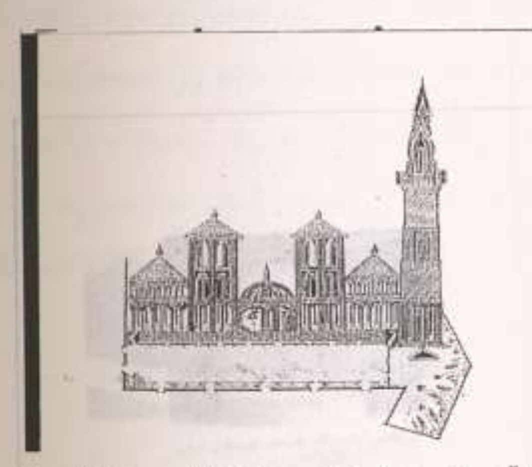


صورة **2**- منظر لضريح سيدي محند أمقران

صورة **3**- بئر السلام من العهد الحمادي



صورة 4- اشكل قصور مدينة بجاية نقلا عن مخطوط البجاوي
(عن دوبياي)



صورة 5- المسجد الملحق بقصر الؤلؤة نقلا عن مخذوذ البجاوي
(عن دوبيلي)



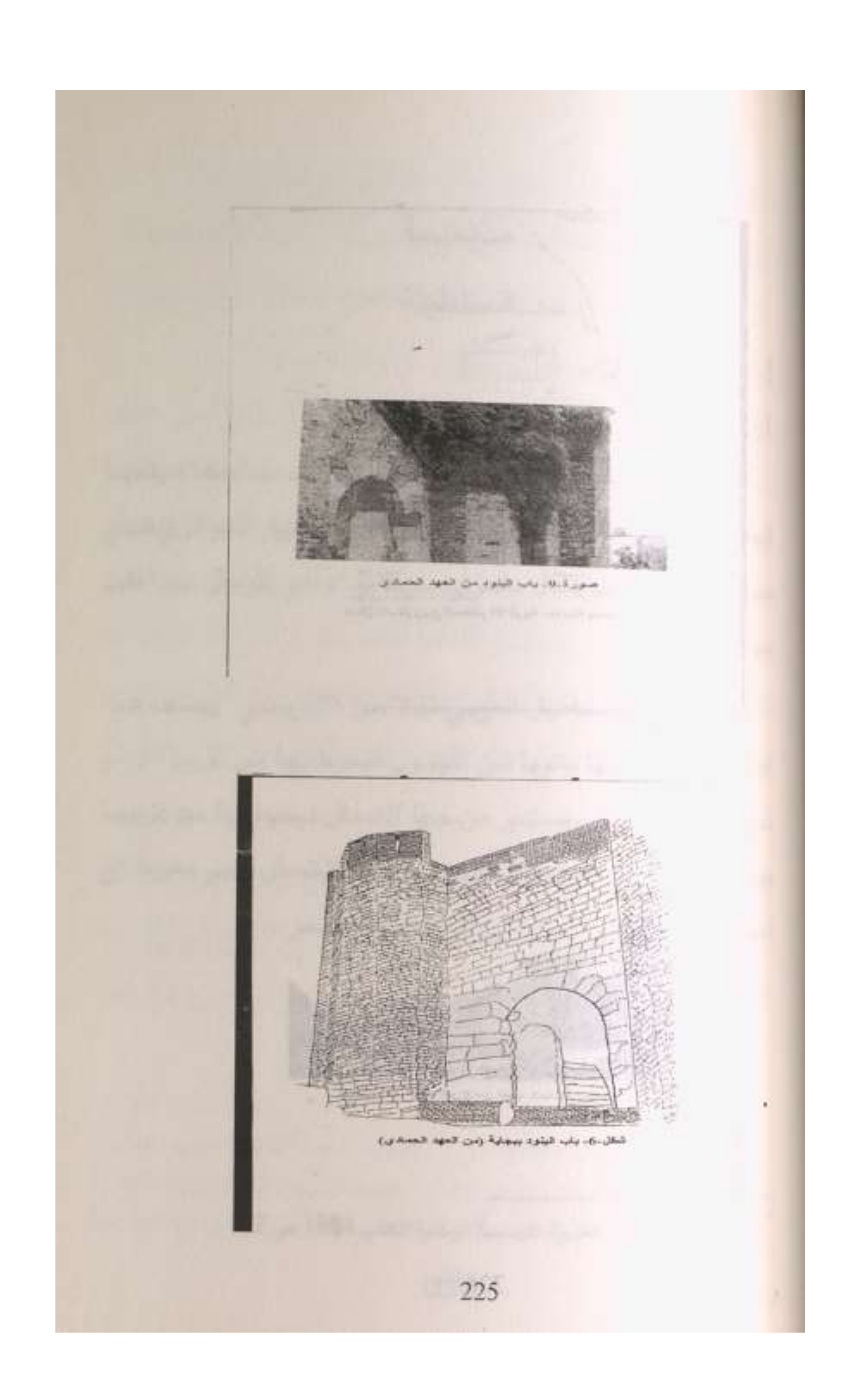
صورة 6- بقايا قصر أميمون

صورة 7- بقايا الأسوار الحمادية



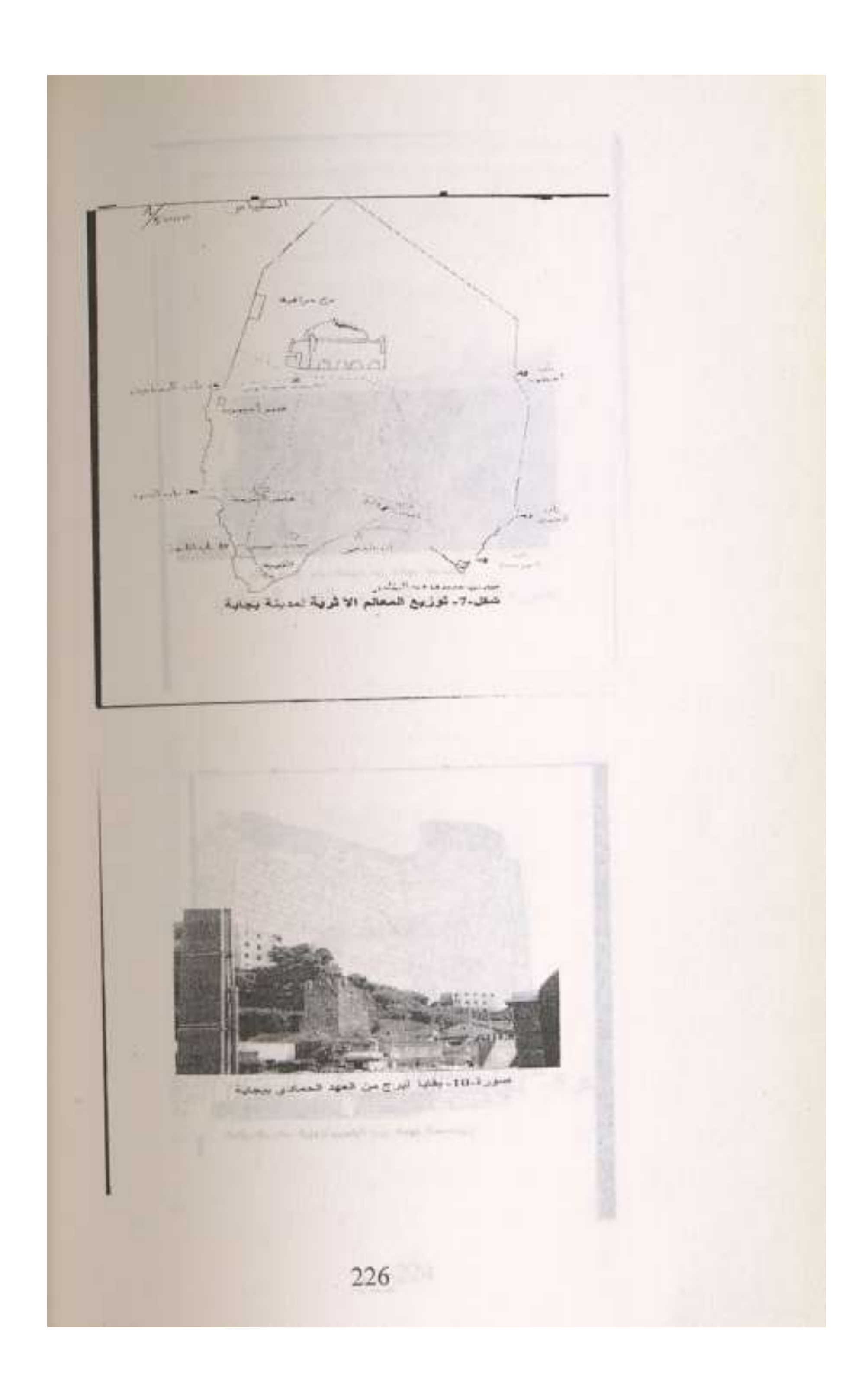
صورة 8 – باب البحر من العهد الحمادي

شكل 5– باب البحر بجاية (من العهد الحمادي)



صورة 3-9: باب البنود من العهد الحمادي

الشكل -6- باب البنود ببجاية (من العهد الحمادي)



شكل-7- توزيع المعالم الاثرية لمدينة بجاية

صورة-10- بقايا ابرج من العهد الحمادي ببجاية

مدينـــة

قسنطينة

I- الإطار الجغرافي:

I- الموقع الفلكي

قسنطينة مدينة بالشرق الجزائري، ولقد ساعدها موقعها الجغرافي المتميز بأن تحتل مكانة خاصة في الشرق الجزائري،فهي مبنية على هضبة ذات شكل منحرف،يحيط بها وادي الرمال من أغلب جهاتها

ولقد نقل اسماعيل العربي نقلا عن الإدريسي[1] وصف هذا الوادي فقال: "وواديها ياتيها من الجنوب،فيحيط بها من غربيها ويمر شرقا في دائر المدينة، ويستدير من جهة الشمال،فيحيط بها من غربيها ويمر شرقا في دائر المدينةنويستدير من جهة الشمال ويمر مغربا إلى اسفل الجبل،ثم يسير شمالا إلى أن يصب في البحر ...".

[1]-اسماعيل العربي،المدن المغربية،المؤسسة الوطنية للكتاب،1984 ص 192

كما أن المدينة محاطة بالجبال من جهاتها،فجبل شتاية من الغرب وجبل سيدي ادريس، وجبل مسيد عائشة من الشمال وجبل الوحش شرقا وهضبة عين الباي جنوبا[1](صورة 01).

ومدينة قسنطينة تتوسط إقليم الشرق الجزائري،وتبعد عن البحر ب:86كلم تحدها من الشمال ولايتي سكيكدة وجيجل،ومن الغرب ولاية ميلة ،أما من الجنوب فتحدها ولاية أم البواقي،كما تحدها قالمة شرقا ،وتبعد بحوالي 245 كلم عن الحدود الشرقية الجزائرية التونسية،وحوالي 437 كلم عن الجزائر العاصمة غربا،و86كلم عن سكيكدة و156 كلم عن عنابة و149 كلم عن جيجل ولقد أهلها هذا الموقع بأن تشكل نواة رئيسة لاتجاهات النقل التي تستقبلها المنطقة الشرقية للجزائر،وبالتالي تعتبر بوابة الشرق الجزائري[2].

2- الموقع الفلكي والبنية الجيولوجية:

تقع قسنطينة على خط طول 7.35° شرقا وخط عرض 36.26°شمالا وترتفع على مستوى

---

[1] -رشيد بوروبية،قسنطينة ،سلسلة فن وثقافة ،وزارة الإعلام الجزائر 1978 ،ص 07

[2] -محمد الهادي العروق ،مدينة قسنطينة ،دراسة في جغرافية العمران ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر 1984،ص16

سطح البحر بارتفاع يتراوح من 621مإلى740م وتتميز بنيتها الجيولوجية الصخرية الصلبة التي تعود إلى أقدم الأزمنة الجيولوجية[1].

ولقد قامت البنية الجيولوجية لمدينة قسنطينة على عدة تكوينات اهمها:

تكوينات الترياسي التي تظهر في الجنوب الغربي من هضبة المنصورة على شكل صخور جيرية،ثم تكوينات الجوراسي التي تظهر في الشمال والجنوب على شكل كلس طباشيري، أما تكوينات الكريتاسي،فتتركز بالقسم الشمالي الغربي للمدينة واخيرا تكوينات الزمن الجيولوجي الرابع التي تتالف من الطمي القديم على شكل حصى مخلوط بالطين،وتتركز هذه الاخيرة بباب القنطرة،وجنوب المنصورة[2].

ولقد أثر هذا التركيب الجيولوجي مباشرة في تخطيط وقيام المدينة،وذلك من حيث نوعية الصخور التي تقوم على سطحها المدينة،ومدى امكانية تحملها للبناء،كما أن صلابة الطبقة الصخرية هي التي تتحكم في تحديد علو المنازل

[1] -محمد الهادي العروق،المرجع السابق ،ص31.
[2] - نفسه ص ص/31- 34- 35- 36.

3- المناخ:

للمناخ أهمية كبيرة في نشأة المدينة،وتأثيرها على الطابع العمراني.ان الموقع الفلكي للمدينة معرض لتأثيرات الإنخفاضات الجوية القادمة من الغرب والناتجة عن تقارب مياه البحر الدافئة مع مياه المحيط الاطلسي الباردة. اما العامل الثاني المؤثر في الموقع الجغرافي هو محاذاتها للصحراء جنوبا والبحر المتوسط شمالا بمناخة المعتدل وهذا ما أكسبها تنوعا مناخيا حسب الفصول كما ان تدخل المؤثرات الصحراوية بصيفها الحار وشتائها البارد يؤدي عدم انتظام الدورة المناخية،مما يساهم في تذبذب درجة الحرارة فتنخفض شتاء، وترتفع صيفا،ويبلغ المدى الحراري السنوي بقسنطينة 18.35°.[1]

II - الإطار التاريخي:

1- أصل التسمية:

عرفت المدينة منذ القدم بعدة أسماء منها اسم (قرطة)[2] ثم تحول هذا الاسم في الفترة النوميدية إلى (سيرتا) وهو اسم كنعاني فينيقي يعني المدينة أو القرية الكبيرة[3].وعرفت بهذا الاسم

---

[1] -نفسه ص ص/36- 37

[2] -احمد المبارك بن العطار ،تاريخ بلد قسنطينة تحقيق رابح بونار .الجزائر .الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ص 17

[3] -احمد توفيق المدني : كتاب الجزائر .المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر 1984 ص232.

خلال القرون الأولى عندما كانت عاصمة نوميديا .ثم عرفت منذ سنة 313م بقسنطينة بضم القاف وفتح السين وتسكين النون وكسر الطاء نسبة لمجدد بنائها قسطنطين.

ولقد تضاربت الآراء حول أصل التسمية.وذكر أحمد بن المبارك بن العطار بأنها مدينة قديمة بناها الذي بنى مدينة قرطاجة التي كانت بقرب تونس وبها كان كرسي افريقية[1].

ولقد استمرت المدينة حاملة لهذا الاسم بعد الفتح الإسلامي لها وبقيت تعرف به أثناء العهد العثماني باعتبارها عاصمة بايلك الشرق ولا تزال الى يومنا هذا تحتفظ به.

2- قسنطينة في العهد الإسلامي :

دخل المسلمون مدينة قسنطينة عند فتح العرب لمدينة قرطاجة،والمدن البيزنطية الأخرى التابعة لها،وكانت تابعة للقيروان في عهد الولاة من سنة 50هجرية إلى سنة 182هـ كما كان للمدينة دورا كبيرا أثناء التواجد الاغلبي بالمغرب الإسلامي من سنة 182 هـ إلى سنة 396هـ ودخلت تحت نفوذ الفاطميين أثناء إقامتهم ببلاد المغرب حيث كانت ميدانا للحرب بين الأغالبة والفاطميين[2]

---

[1] -احمد بن المبارك بن العطار :المرجع السابق .ص ص .32- 33- 34

[2] -نفسه ص ص 18- 19

ولقد دخلت المدينة تحت حكم بني زيري،وامتد استقرارهم بها طويلا حتى سنة 542هـ وبمقتل واليها تحول أمرها إلى الحماديين ،وذلك في سنة 404 هـ إلى 547 هـ ودام تالامر على ذلك حتى سقوط بجاية تحت سيطرة الموحدين سنة 547 هـ، بعد ان توالت عليها هجمات الموحدين، ولقد نزل بها عبد المؤمن بن علي بعد رجوعه من غزوته بافريقية .كما زارها الخليفة الموحدي المنصور،وهو في طريقه إلى افريقية واستقربها لمدة عشرين يوما،كما لم تسلم المدينة من هجمات بني غانية التي لم تتمكن من المدينة وهذا لوفاء أهلها للموحدين[1] .

وبسيطرة الحفصيين على المغرب الأدنى ،أصبحت قسنطينة أهم المدن بعد تونس وبجاية واحتلها الأمير الحفصي الأول أبو زكريا يوم 20جويلية 1229م وادخلت تحت سلطة بجاية وعين على راسها أبو البقاء ابن أبي زكريا سنة 1298م ثم خلفه أبو الحسن علي بن يوسف الهمداني الذي أعلن ولائه لسلطان تونس .

وأثناء هذه الخلافات حاول أبو الحسن المريني احتلالها مما أدى به إلى طرد الحفصيين منها ،لكنه هزم بالقيروان ،فاستقلت المدينة عنه تحت حكم الفضل الحفصي وعادت إلى حكم أبي العباس الحفصي سلطان تونس سنة 771هـ فنعمت بالهدوء فترة أثناء حكمها

---

[1] -رشيد بورويبة :قسنطينة ... ص ص .50- 53

من طرف أبناء صولة وهم من الدواودة وبعض عائلاتها 7،كعائلة عبد المؤمن ،وعائلة ابن الفكون ،وعائلة ابن باديس[1] (شكل 01).

أما في العهد العثماني،فلقد اختلفت الآراء حول تاريخ الدخول اليها فحسب ابن العطار [2] وقايست– vayssettes [3] فإن الإستقرار في المدينة كان في حدود سنة 1517م .أما محمد الصالح بن العنتري ،فيعتبر سنتي 1640 م و1641م التاريخ الحقيقي للاستقرار التركي بقسنطينة[4].

أما (أرنيش مارسي)،فيعتبر سنة 1519م، هي بداية للحكم التركي بقسنطينة[5]،إلى جانب بايلك الجزئر العاصمة

وتمتد حدود بايلك قسنطينة شمالا حتى الساحل انطلاقا من طبرقة والقالة شرقا إلى حدود مدينة بجاية غربا، وتمتد شرقا حتى الحدود التونسية ،أما جنوبا ، فيصل عبر تبسة إلى واحات وادي سوف وورقلة ،وتمتد غربا إلى جبال البيبان ،وقرى بني منصور،وسفوح

---

[1] -احمد بن مبارك بن العطار ،المرجع السابق ،ص 19

[2] -نفسه ص 19

[3] –vayssettes(E) ,Histoire de constantine sous la domination Turque de 1517a 1873 constantine1867

[4] –محمد الصالح بن العنتري ؛ تاريخ قسنطينة ،تقديم يحي بوعزيز ،الجزائر 1991 ص 61

[5] - ernest Mercier ,Histoire de constantine .1903.p.191

جبال جرجرة،وبرج حمزة،وقريتي سيدي هجرس وسيدي عيسى اللتان تفصلانه عن بايلك التيطري في الجنوب الغربي[1].

وبعد الإستقرار التركي بقسنطينة صاحبه استقرار سياسي كبير ،نتج عنه ازدهار اقتصادي وعمراني ،انعكس بشكل واضح على وجه المدينة.

- العمارة الدينية بقسنطينة-

لمحة عن المدينة

اتخذ النمط التخطيطي لمدينة قسنطينة شكلا مشابها للمدن الإسلامية التي كانت قبلها،سواء كان ذلك في المشرق أو المغرب،حيث كان يحيط بها سور تفتح عليه أربعة أبواب هي :باب الجديد ،وباب الوادي وباب الجابية بالجهة الغربية بينما نجد باب قنطرة بالجهة المقابلة متفردا .فباب الرحبة مثلا أنشئت إلى جانبه بطارية دفاعية ذات خمسة مدافع .أما باب الجابية فيعتبر مدخلا كحي السويقة (صورة 02).أما باب القنطرة المشيد فوق حافة جبل ،المنصورة فهو محصن بستة مدافع ،وأقيم هذا الباب عند مدخل الجسر الرومانيالقديم من طرف صالح باي .ويربط هذه الأبواب بباقي أجزاء المدينة جسور،منها

[1] -ناصر الدين سعيدوني دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر .المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر 1985- ص224

جسر القنطرة الذي كان في الأصل جسرا رومانيا ولكن أعاد تشييده صالح باي على أنقاض الجسر الروماني[1]

كما توجد جسور أخرى منها جسر سيدي راشد ،وجسر سيدي مسيد،الذي يبلغ طوله 150م وارتفاعه 175م[2] .(صورة 03- 04)

ومن الأدلة المادية على أن مدينة قسنطينة مقسمة وفق التنظيم المعمول به في المدن الإسلامية عامة، هو تقسيمها إلى أحياء سكنية كبيرة متلاصقة ببعضها البعض.أما ألاحياء ،فكانت تمارس فيها النشاطات الحيوية في المدينة[3]

ولقد قسمت مدينة قسنطينة إلى أربعة أحياء رئيسية ذات طابع سكني وهي على التوالي :حي القصبة بالجهة الشمالية الغربية،حي القنطرة بالجهة الشمالية الشرقية ،ثم حي الطابية الذي يحتل الجهة الجنوبية الغربية .

---

[1] Ernest Mercier, constantine.p.295

[2] SN,Histoire de constantine .constantine une cle pour cirta .N.I.S.D constantine P.10

[3] Zohra Ben senouci ,Sauvgarder de la Medina ,et projet d'habitat .travail de Fin d'etudes.Ecole D'architecture de st.Etienne.1993.p.06

واخيرا حي الجابية،بالجهة الجنوبية الشرقية،بالإضافة إلى حي خامس ذو طابع خاص،وهو حي سوق التجار الذي يحتل قلب المدينة [1] (شكل02)

ولعل بعض الادلة المادية ما زالت قائمة في المدينة،وتشهد على مدى مساهمة قسنطينة في الحضارة العربية الإسلامية من حيث العمارة والعمران،كما هو الحال حي الجابية الذي يحوي عددا كبيرا من المساجد بلغ عددها 14 مسجدا أكبرها الجامع الكبير الذي يعود للعهد الحمادي وأربعة حمامات،بالإضافة إلى بعض الشوارع التجارية الحرفية (صورة 5).

جوامع ومساجد قسنطينة:

أخذت المساجد بقسنطينة مواضع أساسية كنواة أولى في تخطيط الاحياء والمدينة ككل،كما تؤخذ بعين الإعتبار في التخطيط،فإليها تنتهي بعض الممرات والازقة،ومنها تأخذ اتجاهاتها .

---

1 – Bernard Bagand ,La Medina de constantine ,de la cite traditionnelle au centre de l'aglomeration.doctorat 3 sycle universite de poitiers.1989.p.164

فلقد اشتملت مدينة قسنطينة على حوالي خمس وثلاثين مسجدا وجامعا أقدمها الجامع الكبير الذي يعود إلى العهد الحمادي نحو 530هـ/1135م ، ويبلغ طوله 24م وعرضه22م[1]

ونذكر أيضا جامع سوق الغزل الذي شيد سنة 1740م حيث استمد اسمه من السوق الذي وجد بالقرب منه والذي كان مخصصا لتجارة الصوف والغزل ويقدر بيت الصلاة فيه 23.8 طولا و9.3 عرضا (شكل 3)و(صورة 06).

ويمتاز مسجد سوق الغزل ،بسقفه المقبب ، المزود بعقود متعامدة حيث يبلغ عدد قبابه 18 قبة ،أهمها تلك التي تعلو القاعة المضلعة التي توجد بيت الصلاة [2] وللمسجد مئذنة تقوم بالزاوية الشماليوة الشرقية لبيت الصلاة،قاعدتها مستطيلة ،تتكون من قسمين مفصولين عن بعضهما البعض بطنف،كما تنتهي المئذنة في أعلاها بجوسق يعلوه سفود بارز.

بالإضافة إلى هذا الجامع ،هناك جوامع أخرى مثل جامع سيدي الكتاني وجامع القصبة ،وجامع سيدي علي بن مخلوف، ومسجد سيدي لخضر الذي بناه حسن باي بوحنك،ولقد اختار له

[1] -أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10هإلى القرن 14 هالمؤسسة الوطنيوة للفنون المطبعية ،الجزائر 1985 ،ص ص260- 261.

[2] -بورويبة قسنطينة ،ص/101

مكانا بوسط المدينة يقوم على شكل مستطيل مقاساته 15.3 م طولا 12.6، م عرضا مما يجعل مساحته الإجمالية تقدر ب192.78م2 (صورة 7) .ويتكون بيت الصلاة في المسجد من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة، تقطعها خمس بلاطات عمودية عليها (شكل4)و(صورة08).

ومن بين أبرز المساجد في المدينة أيضا، جامع سيدي الكتاني الذي شيده صالح باي ،صاحب الفضل الكبير في ازدهار قسنطينة من الناحية العمرانية

وتبلغ مساحة المسجد الإجمالية 284.58م2 ، حيث يقدر طول ضلعه 18.6م وعرضه 15.3م، ويحتوي على خمسة أبواب ،وصحن تحيط به أروقة،وتتوسطه نافورة رخامية ويلي الصحن بيت الصلاة المتكونة من خمسة أساكيب موازية لجدار القبلة،تقطعها خمس بلاطات عمودية على جدار القبلة [1] (الشكل 5)و(صورة9) وللمسجد منبر من الرخام يعد من روائع الفن العثماني بالجزائر،جلبه صالح باي من مدينة (ليفون) بإيطاليا [2] (صورة 10) .

---

[1] -نفسه ص ص /119- 121.

[2] -Bouroiba (R),les insriptions commemoratives des Mosques d'Algerie.opu.Alger.1984.pp.78-42-37-30.

ويتخذ المسجد في التغطية أسلوب القباب ، وعددها ثلاثة ، أكبرها القبة التي تتقدم المحراب،كما أقيمت مئذنة بالزاوية الشمالية الشرقية للصحن وشكلها أسطوني .

وقد الحقت بهذه المساجد والجوامع، بعض المدارس،كان الغرض منها تعليم الدين وإيواء الطلبة القادمين من بعد [illegible]كر منها المدرسة الملحقة بجامع سيدي الكتاني والتي بنيت سنة 1775م يتوسط ضريح سيدي الكتاني بجانبه أضرحة أخرى لصالح باي وأفراد عائلته ولقد أنشأ صالح باي مدرسة ثانية سنة ٩٥، ام[1].

ولهذا نجد بأن مساجد قسنطينة، قد أقيمت في وسط المدينة، أو الأحياء لتكون قريبة من كل أطراف المدينة،حتى يسهل على المصلين التوجه إليها سواء كانوا من أهل المدينة أو من المناطق المجاورة .ويؤكد ذلك أن الوسطية لم تكن شرطا لازما في التخطيط بقدرما هي مرتبطة بالقرب من سكن العامة[2]

[1] Ernest Mercier",Histoire de constantine .1903.pp :293.294

[2] توفيق عبد الستار،المدينة الإسلامية .المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .الكويت 1988 ص237.

1- البيت الإسلامي بقسنطينة:

تتخذ البيوت الإسلامية في قسنطينة شكلا مربعا،أو مستطيلا،وتنفتح على الخارج على ساحة مركزية،تتوزع حولها غرف مرتبطة بالنمط المعيشي،وكذا الظروف المناخية،والتكوين العائلي،وتشترك البيوت فيما بينها في جميع خصوصاتها ومظهرها العام.

تتوزع الوحدات السكنية في الأحياء ،وفقا للاحكام الإسلامية،ووفقا لضرورتين الأولى هي ضرورة القرابة بين الأسر والعائلات،وبين الجيران، كالإحترام وإعطاء الإعتبار للجار،وهذا ما يولد تلاحما وترابطا بين الأسر المتجاورة .والضرورة الثانية هي ظاهرة التآلف التي ترفضها الخلية العائلية[1] .

ويظهر البيت الإسلامي في قسنطينة من الخارج في منتهى البساطة،وذلك من خلال جدرانه الصماء الخالية من الفتحات،ما عدا بعض النوافذ الضيقة في الطابق العلوي

ويؤدي المدخل الرئيسي للبيت إلى سقيفة خاصة باستقبال الضيوف،يختلف مكانها ومساحتها من بيت لآخر،حيث نجدها في

[1] -Charlier Chanoine ;Encyclopedie d' outre mer.Constantine.S.D.PP15-16

بعضها بسيطة،وتنفتح على الصحن مباشرة،ومجهزة بمقاعد حجرية او رخامية[1] ويلي السقيفة ممرا منكسرا لعزل داخل البيت،وينتهي هذا الممر إلى الصحن الذي يعد بمثابة نواة البيت ويعرف كذلك بوسط الدار،ويعتبر الصحن مركزا للإنتقال بين السقيفة والوسط الداخلي كما أنه يعتبر مركز البيت ووظائفه عديدة منها إدخال الضوء إلى داخل الغرف وكذا الهواء كما يقوم بتعويض الوسط الخارجي بالنسبة للنسوة،حيث تؤدي المراة أعمالها اليومية به من غزل الصوف وغسل الملابس وغيرها ...،وتتخذ الغرف الداخلية شكلا مستطيلا تتراوح ابعاده ما بين 2.5 عرضا و2.40م علوا بالنسبة للطابق الأرضي.

واللاحظ أيضا أن مطبخ البيت يقع في الطابق الأرضي،وله سقف متقاطع الأضلاع يقع بجواره المخزن وهو ذو مساحة صغيرة،وبجانب المطبخ أو فوقه يبنى عادة الحمام الذي يتكون من غرفتين إلى ثلاثة وجدرانه مبلطة بقطع رخامية.

ولا يخلو البيت من البئر الذي تتجمع به المياه وتخزن لاستعمالها في الحاجيات اليومية من نظافة وغسيل هذا بالنسبة للطابق الأرضي في البيت أما العلوي فيصعد إليه عن طريق سلم يقام بإحدى الجهات فالطابق العلوي يكون أكثر روعة وجمالا حيث يحتوي على غرف

---

[1] -محمد الطيب عقاب "المسكن الأصيل في مدينة الجزائر" جريدة الشعب.العدد 1345.08ماي 1989 الصفحة الثقافية ص 9

وقاعات تخصص للجلوس ،والنوم والإستراحة كونها مرتفعة عن الطابق الارضي، وتعرضها أكثر في فصل الصيف للتهوية،وتعرضها للشمس في فصل الشتاء مما يقلل الرطوبة بها كما تكثر بالطابق العلوي النوافذ.

ويبدو واضحا للعيان،بأن مكونات البيت القسنطيني تستجيب لتطلبات،وحاجيات العائلة،كما يتماشى تخطيطه أيضا وفق العادات والتقاليد والقيم الإسلامية السائدة في تالمجتمع بما يحفظ للعائلة في حرمة وأخلاق (شكل6و7).

2- قصر احمد باي :

يعد القصر من أفخم القصور في الجزائر،من حيث مساحته الشاسعة،وجماليته الخلابة.بدأ أشغاله أحمد باي سنة 1826م،وانتهى منه عام 1835م[1] ولقد أدخل في بنائه عدة مواد كالرخام والزجاج والزليج التي جلبت في معظمها من إيطاليا وتونس ماعدا الحجارة والخشب التي جلبت من منطقة القبائل والأوراس.

اتخذ القصر شكلا مستطيلا يغطي أرضية شبه منحدرة يتركب من أربعة أجنحة ذات طوابق ويتكون من أربع واجهات أساسية الواجهة الرئيسية منها تمتد على مسافة 90م،وارتفاع جدارها يقدر بـ15م

---

[1] Auguste Poulete et ses fils,Centenaire de constantine dans la partie francaise 13 octobre 18371937.constantine .p.97

يتوسطها باب رئيسي معقود بعقد نصف دائري،ويعلوا المدخل ضلة خشبية يوجد في الطابق الارضـي المغسل أما في الواجهة الخلفية للقصر فيوجد باب يعتقد انه كان مدخل اسطبلات الأفراس الخاصة بالباي.

إن بساطة القصر في الخارج لاتعكس ما تحتويه بالداخل من روعة وجمالية في إطار منتظم،ومنسجم .ان عمارة القصر في الداخل تقع حول حديقتين،وحوض مائي ،منها حديقة النخيل وحديقة البرتقال هذا بالإضافة إلى الحوض المائي الذي كان يعتقد بأنه تربى فيه الأسماك وتحيط بهما أجنحة سكنية ومرافق معيشية قدرت بـ:22 مرفقا،زيادة عن السقيفة والصحون.

إن اول ما نصادفه عند اتجاهنا نحو الداخل هو السقيفة التي تعتبر المدخل الرئيسي للقصر وتتميز بالإنكسار وتقدر مساحتها بـ:10.50م2، وسقفها خشبي وأرضيتها مبلطة بالرخام الأبيض وتؤدي إلى الأروقة المحيطة بحديقة النخيل الكبرى ثم يليها مسكن نطومة ثم نصل إلى رواق ذو ثلاثة صفوف في الاعمدة وعلى يمينه نجد قاعة الباي وهي مستطيلة الشكل يبلغ طولها 14م×6م،سقفها من

الخشب والجدران مبلطة بالزليج أما الأرضية فمبلطة بالبلاطات الرخامية البيضاء المربعة [1].

ولقد خصصت للباي ثلاث اقامات داخل القصر منها المقر الدائم للبباي الذي يتخذ الناحية الشمالية الغربية،ويشمل الطابق الأول والثاني،ثم هناك المقر الشتوي للباي،الموجود بالناحية الشرقية وهو مكون من طابقين ويتكون من ست غرف موزعة بشكل طولي .والملاحظة أن كل هذه العرف مبلطة بالرخام الأبيض والسقوف خشبية مسطحة وملونة بالازرق والازرق الداكن والأحمر وتتميز بقلة الرطوبة بها ثم يليه المقر المفضل للباي والذي يتركب من قسمين :قسم يشرف على الخارج بأربع نوافذ زجاجية ،وبأربع نوافذ أخرى على حديقة النخيل وبه أربع غرف بالإضافة إلى مرافق أخرى .فالمرافق الخاصة بالنساء والخادمات فاختير لها جانبا بالطابق الارضي ،والطابق الأول كمسكن الحريم الموجود شمال حديقة البرتقال .

إن معظم الغرف تفتح على الصحن بنوافذ وأبواب خشبية،وكذلك مسكن الخادمات الزنجيات الذي حدد بالطابق الأرضي ويحتوي على أربع غرف وميزة هذه المساكن هي البساطة سواء في جدرانها أو سقوفها أو من حيث زخرفتها .أما الطابق الأول فقد حدد فيه مسكن النبلاء الصيفي على الشرفة المطلة على حديقة البرتقال .أما الزاوية

---

[1] رشيد بوروبية ،قسنطينة ،ص.141

الشرقية من القصرنفقد خصصت للمحكمة التي تنفتح على الخارج بواسطة باب خشبي .

هذا ما نستطيع أن نقوله عن هذا القصر من الناحية المعمارية،وما يحتويه من زخارف متنوعة كست معظم أجزائه،من تبليط للغرف بالبلاط الأبيض وكسوة الجدران بالزليج في قسمها السفلي ،أما القسم العلوي فيه طلاء فاتح به رسومات لمشاهد دينية ورسومات تبين المدن الرئيسية للإسلام بالإضافة إلى زخرفة أطر الأبواب والنوافذ والنافورتين (شكل08)

ولعل كل هذه المظاهر التي تدل على مدى الرقي الفني والمعماري الذي حضيت به مدينة قسنطينة في العهد الإسلامي ،له دلالة واضحة على مدى مساهمتها في الحضارة العربية الإسلامية، في جوانبها العمارية والعمرانية المتنوعة.

– العمائر العسكرية بقسنطينة –

يعتبر عامل الامن والإستقرار ضروريا لقيام المجتمع الحضري واستقراره،وهذا كحماية عمران المدينة وتنميته وضمان استمرارها .

وانطلاقا من هذه الاهمية،يعد السور من المعايير الحضارية التي تميز المدن كما يساعد الموقع المحصن طبيعيا على سهولة الدفاع عن المدينة،لكن هذا لا يمنع أبدا من إقامة الأسوار حولها لتحقيق هذه

الغايـة تحقيقـا سـليما في ضـوء الأسـاليب الدفاعية،والهجومية والات الحصار المستخدمة[1].

فقسنطينة تعتبر المدن المحصنة بذاتها،نظرا لطبيعة موقعها الصخري المرتفع،كما أن حدود العمران بها لم يتعد حدود الصخرة ،ومع هذا فقد أحيطت بسور متوسط الإرتفاع (شكل 9)يمر على حافة الصخرة ويحيط بأغلب جهاتها .وغالبا ما يكون السور مزدوجا وذلك في الأماكن الاكثر استراتيجية،والسهلة البلوغ،ومثال ذلك المكان المحصور بين باب الوادي وباب الجابية[2].

وإضافة إلى السور،اشتمل النظام الدفاعي للمدينة على بطاريات مدافع تنتصب فوق كل الابواب،التي فاق عددها الأربعون بطارية ،ستة منها تعلو مدخل باب القنطرة،مع وجود بعض الأبراج للمراقبة،وأعلى برج بالمدينة هو ذلك الموجود بالجهة الغربية،ويعرف ببرج سوس،فهو في غاية الإرتفاع وزودت هذه الأبراج بعدة فتحات على شكل مزاغل وظيفتها مراقبة حدود المدينة،والرمي في حالة الدفاع،أو الهجوم كما استعمل العثمانيون في تحصينهم للمسافة الممتدة بين باب الجابية،وباب القنطرة نبات الصبار بكثافة لتصعيب اجتياز ذلك المكان،ودعم الجهاز التحصيني بفرق عسكرية مهمتها السهر على مراقبة المنطقة .وتتمركز هذه الفرق أساسا في ثلاث

---

[1] -توفيق محمد عبد الستار،مرجع سابق ص ص/135- 136

[2] Bernard Bagand:op.cit.p.150.

ثكنات،واحدة وضعت بالقصبة وأخرى بقصر الباي،وسميت بثكنة الإنكشاريين .

ولقد تحدث الورتيلاني في رحلة عن تحصين مدينة قسنطينة فقال:

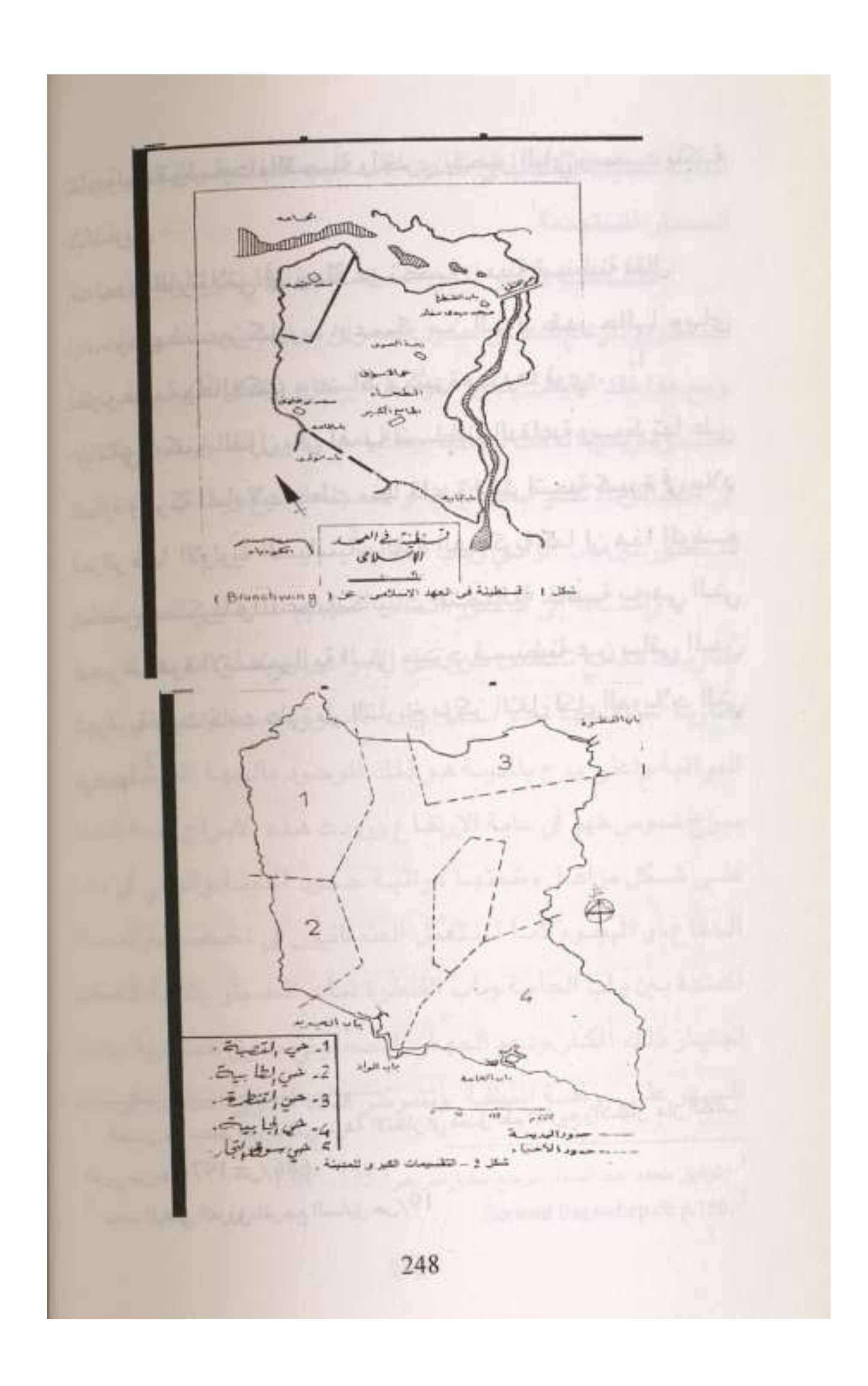
"... وعليها سور كبير ...وعسكر من الترك بقدر حالها ،وباي سطوته عظيمة وحاله كبير ،وعساكره كثيرة،ومددها قوي ..."[1]

وبالتالي تمكننا القول بأن أهمية قسنطينة الدفاعية،وسيطرتها على التجارة وحركة المبادلات،جعلت منها قاعدة استراتيجية كبيرة في بلاد الجزائر فلها الاولوية السياسية،والقوة العسكرية،كما ان هذا الموضع المحصن عسكريا ،والمدعم بإمكانيات اقتصادية خاصة به،هي التي تفسر ظاهرة الإستمرارية التي ميزت قسنطينة عن باقي المدن الجزائرية،حيث كانت على مر التاريخ مركز الثقل لكل الدويلات التي مرت بها [2].

---

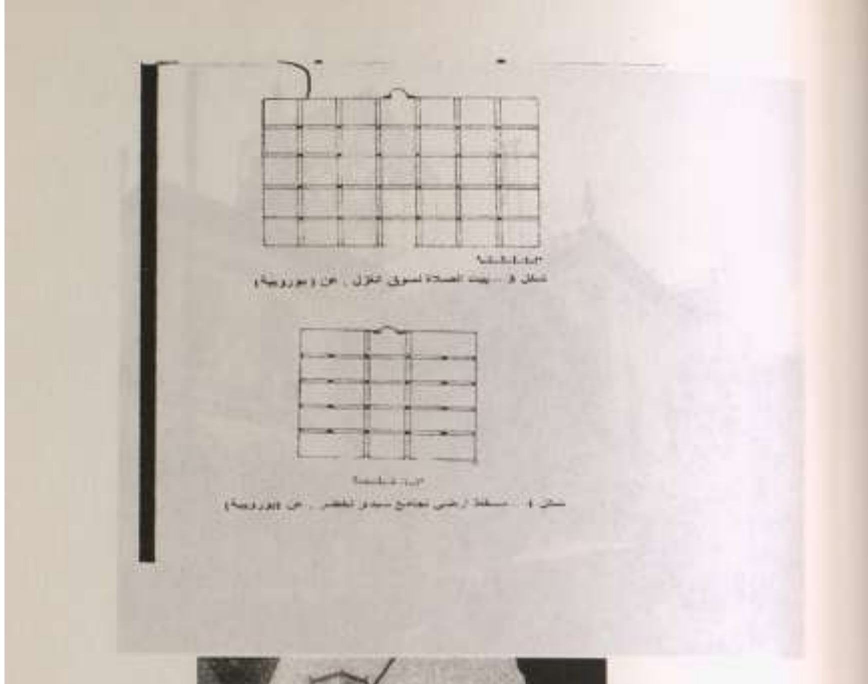
[1]- الحسين بن محمد الورتيلاني ،نزهة الانظار في فضل علم التاريخ والاخبار ،دار الكتاب العربي بيروت 1974 ص/686.

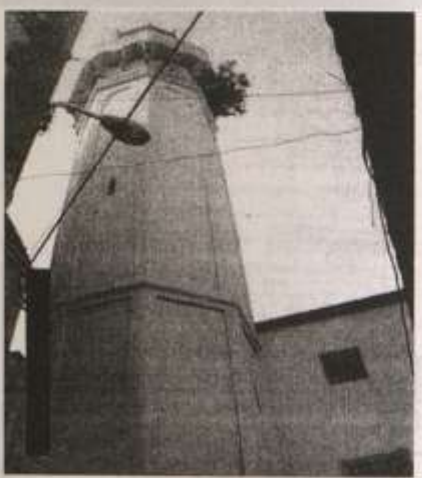
[2]-محمد الهادي العروق،المرجع السابق ص/19



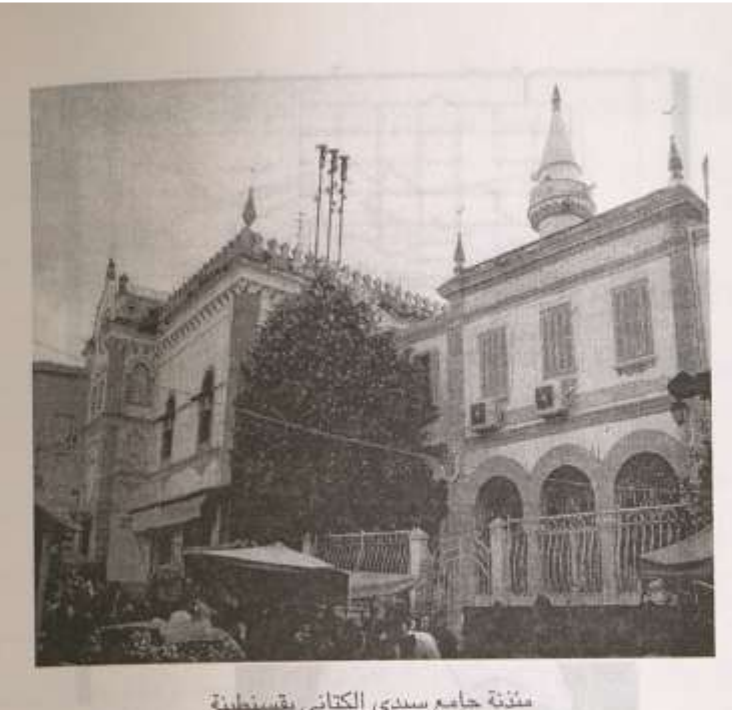
شكل 1 – قسنطينة في العهد الاسلامي . عن (Brunschwing)

شكل 2 – التقسيمات الكبرى للمدينة .

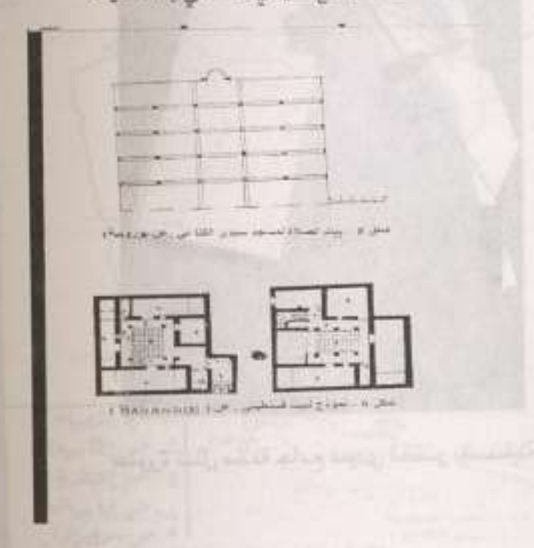


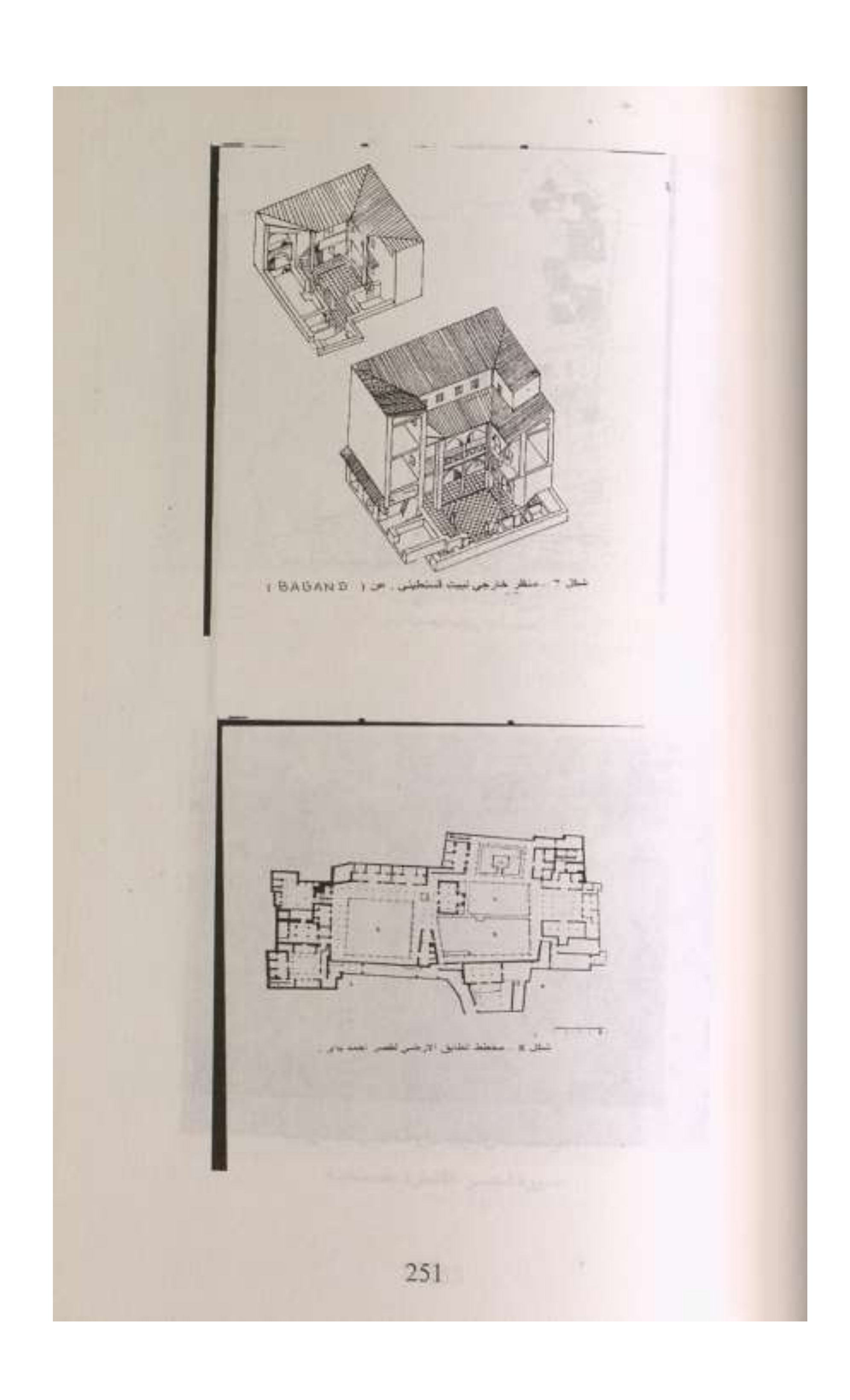


صورة تمثل متذنة جامع سيدي لخضر بقسنطينة



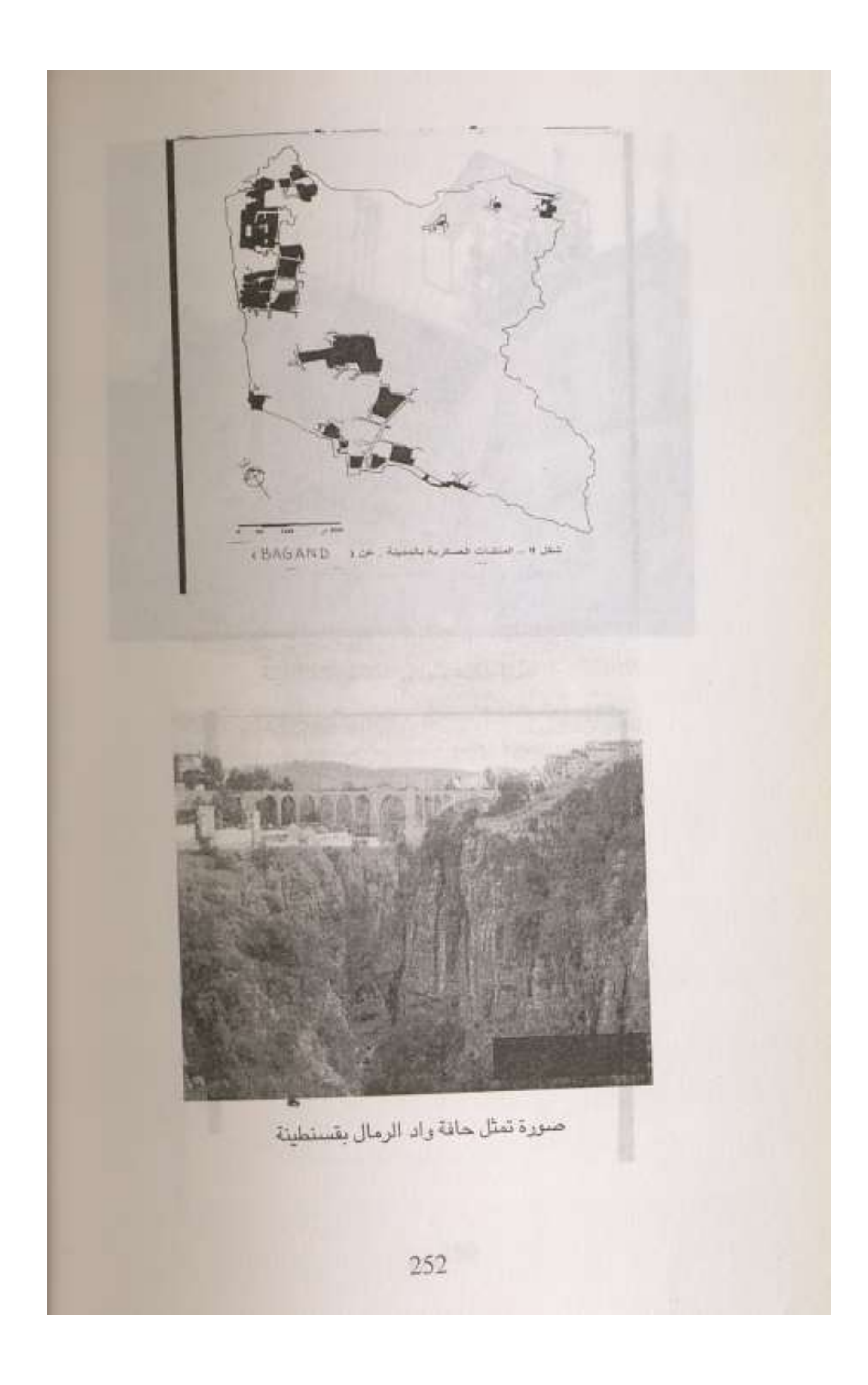
مئذنة جامع سيدي الكتاني بقسنطينة





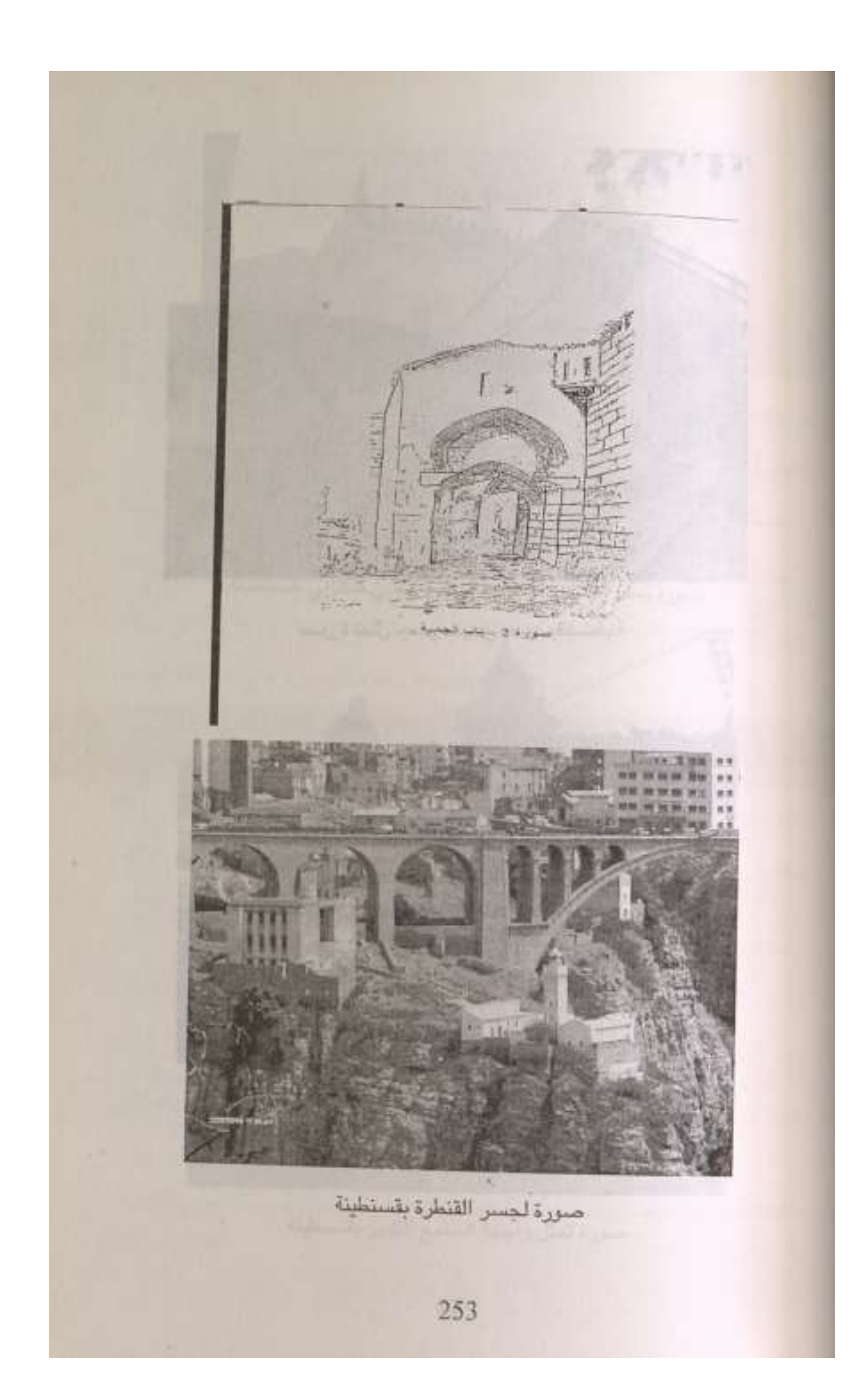
شكل 7 - منظر خارجي لبيت قسنطيني، عن (BAGAND)

شكل 8 - مخطط الطابق الأرضي لقصر أحمد باي.

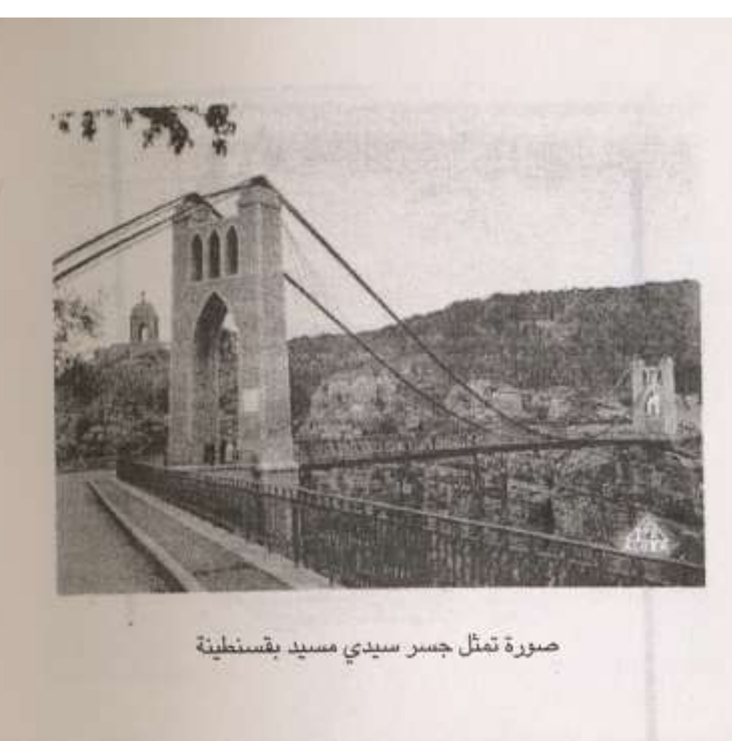


شكل – المنشآت العسكرية بالمدينة – عن (BAGAND)

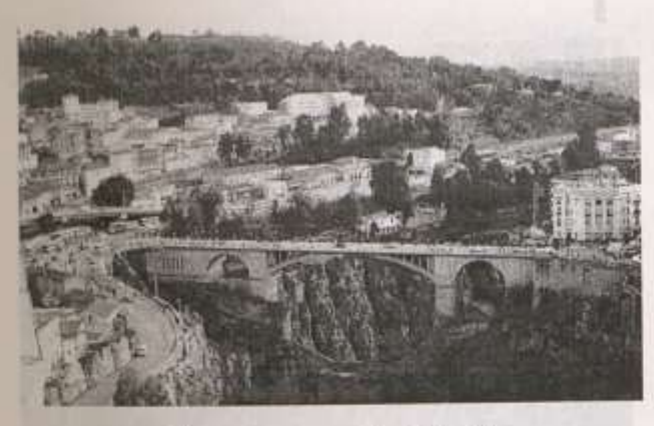
صورة تمثل حافة واد الرمال بقسنطينة



صورة لجسر القنطرة بقسنطينة



صورة تمثل جسر سيدي مسيد بقسنطينة



منظر عام للمدينة يبين جسر سيدي راشد



صورة تمثل الواجهة الأمامية لجامع سيدي الكتاني بقسنطينة

صورة تمثل واجهة الجامع الكبير بقسنطينة

مدينة

ميلـــــة

1- موقع ميلة الفلكي والجغرافي:

تقــع مدينــة ميلــة علــى خــط طــول 34 '36'4 ° شــرق خــط غــرينيتش،وخط عــرض '36,50° شمــال خــط الإستواء،بالــشرق الجزائري شمال غرب مدينة قسنطينة،وتبعد عنها بحوالي 32 ميلا[1] وهي بهذا الموقع حسب ياقوت الحموي :"آخر إقليم افريقية بينها وبين بجاية ثلاث أيام ،وبينها وبين قسنطينة يوم واحد "[2].

ويرى عبد الواحد المراكشي بأنها :" من المغرب غرب افريقية فأول بلدة صغيرة قبل بجاية في البر ،تسمى ميلة ،وبينها وبين بجاية ثلاث مراحل "[3]. ومـا يقـصده المراكـشي بـذكره المغرب،فهـو حسب رأينا،المغرب الأوسط،وليس الأقصى.

---

[1] -سعيدوني ناصر الدين ،معجم تاريخي للاماكن والبلدان الجزائرية ،ميلة م ب عدد 03 1995. ص21

[2] -ياقوت الحموي (شهاب الدين)،معجم البلدان ،ص226 .الجزء08 .القاهرة1906

[3] المراكشي (عبد الواحد)،المعجب في تلخيص اخبار المغرب ،تحقيق سعيد العريان .القاهرة 1963 ،ص442

وتقع مدينة ميلة في سفح جبل (مارشو)،الذي يزودها بمياهه العذبة الباردة وتجاورها بلدية القرارم التي تمتد في سفح جبل (سقاو).

ولقد انتشر عمران ميلة على إحدى الربى المحصورة بين وادين،وهي تحتل بهذا الموقع،نهاية جبل متوسط الإرتفاع 464م يعرف في المصادر القديمة (ببوبية)[1].

2- أصل التسمية :

تعددت التسميات التي أطلقت على مدينة ميلة،بتعدد الحضارات التي عرفتها،حيث أطلق عليها الرومان إسم(ميل- آف MELEV)، ويعني باللغة الرومانية ألف منبع مائي،أو ألف عين،وهذا ما تؤكده الآثار الحالية الباقية للعيون،غير أن أغلبها إندثر .ويقال أنها كانت تسمى قبل هذا باسم(ميلو)،وهو للكة أمازيغية تربعت على العرش أنذاك ثم أطلق عليها اسم (ميلا)عند البيزنطيين ،ويقصدون بذلك التفاحة ،وعرفت عند المسلمين باسم "ميلاح"وهي تعريب لاسم "ميلا"أو "ميلان"ويذكر أنها عرفت عدة أسماء، فيها :"ميلوفيثانا

---

[1] سعيدوني،مرجع سابق،ص21.

"وميلوفيوم" و "ميليوم" و "ميليوس" ،ولكن هذه الأسماء لاتعرف مصادرها ،واساطير تسمياتها [1].

3- ميلة في العهد الإسلامي :

ضلت ميلة تحت هيمنة الروم إلى نهاية القرن 7م ،وهو التاريخ الذي بدات فيه الطلائع الأولى للجيوش الإسلامية الفاتحة تصل ربوع المغرب لنشر الدين الإسلامي وبث الدعوة المحمدية،وتخليص الأهالي من الوثنية وشر الإستعمار البيزنطي.

ولقد ذكر أبو المحاسن بن ثغري بردي ،أن أبو المهاجر دينار هو الذي فتح المدينة وتقلد إدارة المغرب،وقيادة الجيش فيه من قبل معاوية بن أبي سفيان [2]

ولقد سلك أبو المهاجر سياسة مغايرة لأسلافه ،حيث اقترب من الأهالي وعاملهم بلين فنجح بذلك نجاحا كبيرا ،وهو ما ساعده على أن يتوغل في المغرب الأوسط بفتوحاته [3].

---

[1] -بلعطار(رمضان)،مدينة ميلة،لوحة فسيفسائية للحضارات المتعاقبة .م ص م عدد1 .1994 ص16

[2] -أبو المحاسن (ابن ثغري بردي ،النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .الولايات المتحدة جامعة كاليفورنيا 1909.

[3] -عبد العزيز (سالم)،المغرب الكبير .ج 2 .العصر الإسلامي .دار النهضة العربية بيروت 1989 ص 216

وبعد دخوله ميلة،أصبحت عاصمت الولاية المغربية لمدة سنتين،وهي المدة التي بقي فيها أبو المهاجر بأرض كتامة .وأصبحت ميلة مركزا لنشر الدين الإسلامي،ونقطة انطلاق الحملات العسكرية في بلاد المغرب الأوسط،ويعتقد أنه شيد دارا للإمارة بميلة ومسجدا للمسلمين أثناء إقامته بها.

ولقد ازدادت أهمية مدينة ميلة من الناحية الإستراتيجية والإدارية والعسكرية والإقتصادية لكونها تقع في الخط الدفاعي الأمامي الإفريقي،الذي يمتد من نهر مجردة شرقا إلى نوحي سطيف غربا[1].

هذا وعرفت مدينة ميلة في عهد الفاطميين،والزيريين عدة احداث مما جعلها تكون المركز الرئيسي لثوراتهم، وخروجهم عن السلطة المركزية في مدينة المهدية[2].

ويعتبر القرن 4هـ/10م فترة اضطراب مدينة ميلة،حيث تقلصت أهميتها،وهذا بعد تعرضها إلى ضربات متتالية من السلطة المركزية .أما في القرن 5هـ/11م بدأت المدينة تزدهر وتتطور عمرانها

---

[1] CAMBUZAT(PL),Levolution des cites du tell en ifriquia . du 7 au 11 siecle opu Alger .1982.p.166

[2] فيلالي (عبد العزيز) ،مدينة ميلة التطور التاريخي في العصر الإسلامي الوسيط،م ج ق ع إ،عدد 4 1993،ص 67.68.

وإزداد عدد سكانها فأصبحت مقرا رئيسيا للحاكم الحمادي وتابعة لبجاية عاصمة الحماديين أنذاك [1]

ولعل نصوص الجغرافيين والرحالة المسلمين خير دليل على ما وصلت إليه المدينة في تطور ورقي فيصفها البكري بقوله :"عليها سور صخر اليوم وحولها ربض وبها جوامع وأسواق وحمامات والمياه تطرد حولها .سكنها العرب والجند وهي في غرر مدن الزاب وتسيير في مدينة ميلة إلى مرسى الزيتونة وهو جبل جيجل [1].

أما الإدريسي فيصفها بقوله :"أنها حسنة كثيرة الأشجار ممكنة الثمار وفواكهها كثيرة ومحاسنها ظاهرة ومياهها غرقة وأهلها أخلاط البربر جملة والعرب تحكم بخارجها ،وكانت في طاعة يحي بن عبد العزيز ،صاحب بجاية [2].

أما صاحب كتاب الإستبصار فقال عنها في القرن 6هـ/12م بأنها :"مدينة أزلية فيها بعض أثار للاول،تدل على أنها كانت مدينة كبيرة وهي الآن عامرة أهلة كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة وميلة كثيرة الأسواق والمتاجر عليها سور صخر

---

[1] Cambuzat;op.cit.p.p170

[1] -البكري (أبو عبيد)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ،ص 64 نسخة بلا مكان ولا تاريخ

[2] -المجهول،كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار،تقديم الفريد دوكريمد فيينا ،المطبعة الملكية 1852- ص.166.

جليل من بناء الأولين، وفي وسط المدينة عين خزار عذبة من بناء الأوائل لها سرب كبيرة يدخل فيه فلا يوجد له آخر ...وبالقرب من ميلة جبل عنصل يسمى اليوم جبل زلدوي ،وهم قبائل كثيرة من البربر سكنوا الجبل ،ولهم خلاف كثير على الولاة بسبب منعهم جبلهم، وفيه مدن وقرى كثيرة وأخصب جبال أفريقية وفيه جميع الفواكه من التفاح الجليل،والسفرجل الذي لايوجد مثله في بلد والأعناب كثيرة [1].

وفي الأوصاف السابقة للمدينة،نستنتج بأنها كانت تتمتع بنشاط تجاري كبير ،وهذا لاحتواء أقاليمها على أرض واسعة خصبة وأشجار الفواكه المتنوعة والمحاصيل الزراعية بالإضافة إلى وقوعها في ملتقى الطرق التجارية التي تربطها بالمدن والحواضر الداخلية منها والساحلية كمدينة قسنطينة وسطيف وطبنة وبجاية وغيرها [2]

كانت ميلة تابعة للدولة الموحدية مدة سبعين ثم بسقوطها أصبحت تابعة لدولة الحفصيين ثم بقيت على هذه الحال حتى دخلها العثمانيون في القرن 10هـ/16م.[3]

---

[1] -فيلالي (عبد العزيز)،المرجع السابق ،ص 84

[2] -الإدريسي (محمد بن عبدج الله الشريف)،نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،قسم المغرب العربي ،تحقيق محمد حاج صادق ،باريس 1983،ص 181

[3] -فيلالي ،المرجع السابق ،ص ص 86- 88

مع الفترات المختلفة التي عرفتها المدينة لم تحتفظ ميلة بالآثار التي تعود للعصر الإسلامي ماعدا مسجد الجامع وما بقي منه في بعض العناصر المعمارية التي تشهد بإسلامية المبنى.

– المسجد الجامع بميلة

ليس في متناولنا المعلومات التاريخية الكافية لتاريخ المبنى وحسب المالكي فإن أبا المهاجر دينار قد استقر بميلة مدة عامين كاملين حيث كانت عاصمة الولاية المغربية في تلك الفترة ومنه فمن المؤكد أن هذا القائد قد أمر ببناء مسجد ودار إمارة المسلمين وهذا ما عهدناه في فتوحات المسلمين لأي بلد.

ومن جهة أخرى فإن المؤرخين تحدثوا عن المدينة ولم يذكروا شيئا عن المسجد فلم يحدد مكانه ولا بعض صفات بنائه رغم أنه يعتبر أول مسجد بالمغرب الأوسط وثاني مسجد بالمغرب العربي بعد جامع القيروان وقد يعود هذا الإهمال إلى بساطة المبنى وعدم لفته للإنتباه على غرار العيون والسور وخيرات الأراضي بميلة.

يتخذ المسجد شكلا مستطيلا (شكل 10) ويتربع على مساحة تقدر تقريبا بـ820م2 ويحتوي على أربع واجهات (صورة 11)، الرئيسية

منها تقع في الجهة الالشرقية ، ويبلغ طولها 24.60م ويتوسطها المخل الرئيسي الذي يؤدي إلى الصحن ومنه إلى بيت الصلاة ويعلو المدخل عقد حدوي مصمت وعلى جانبيه بابان أثل منه إتساعا ،سدا في فترة لاحقة عرضها حوالي 1.10م تعلو زخرفة كتابية وهندسية بالأجر مستطيلة الشكل نصها "بركة محمد"

بيت الصلاة عرضه أكبر من عمقه ،وهو يتبع نظام المساجد ذات الأعمدة والدعامات يتكون من ثماني بلاطات وخمسة أساكيب وما يلفت الإنتباه هو أ، بلاطة وأسكوب المحراب غير مميزتين عن بقية البلاطات والأساكيب وبه خمس بوئك ذات عقود مدببة تتكون كل بائكة من ثمانية عقود وتسعة أعمدة وهي تحمل عقودا يرتكز عليها سقف جملوني من جهة الرواق الخلفي للمحراب ومسطح بباقي أجزاء بيت الصلاة ويغلب على الضن أن هذا السقف مستحدث .

ويأتي المحراب على محور البلاطة الرابعة من الداخل الشرقي وهو ذو شكل نصف دائري لم يبقى منه إلا آثار لقاعدته وخلف المحراب غرفتان مخصصتان للإمام ومن الملاحظات أن جامع ميلة العتيق يخلو من عنصر المئذنة وقد يعود هذا إلى التخريب الذي تعرضت له المعالم الإسلامية من الإستعمار الفرنسي كما أن الرحالة لم يذكرووصف هذا الجامع ولا اسمه والرويات الشفوية بالمنطقة تذكر بأن المسجد كان يحتوي على مئذنة هدمها المستعمر الفرنسي وبنى بحجارتها دار

البريد وحواف الطرقات .ولكننا نعتقد في منظورنا الخاص ،إن الجامع لم تكن به مئذنة بحكم موقع الجامع الذي جاء في أعلى مكان بالمدينة لذلك فالمؤذن لا نجده في حاجة إلى أن يصعد المئذنة فكان يكفيه سطح المسجد لأداء الآذان والتبليغ عن موعد الصلوات .

- خاتمة

يتضح من خلال استعراضنا المركزين هامين من مراكز الحضارة العربية الإسلامية بالجزائر وهما :قسنطينة وميلة والمباني القليلة التي تعود إلى العصر الإسلامي والتي مازالت باقية وشاهدة على الرقي الفني والمعماري والعمراني الذي ميزهما .

فبالنسبة لقسنطينة تبدو الأمية التي امتازت بها واضحة منذ نشأتها وفي مختلف المجالات مما جعلها تتخذ كمدينة أساسية ويعود هذا إلى موقعها الجغرافي الإستراتيجي والمنيع المحصن طبيعيا وهذا ما أكسبها مكانة تاريخية واستراتيجية في الميدان الحربي والتجاري كما كانت أيضا بمثابة همزة وصل بين أقاليم مختلفة سواء الشرقية منها والشمالية أو الجنوبية.

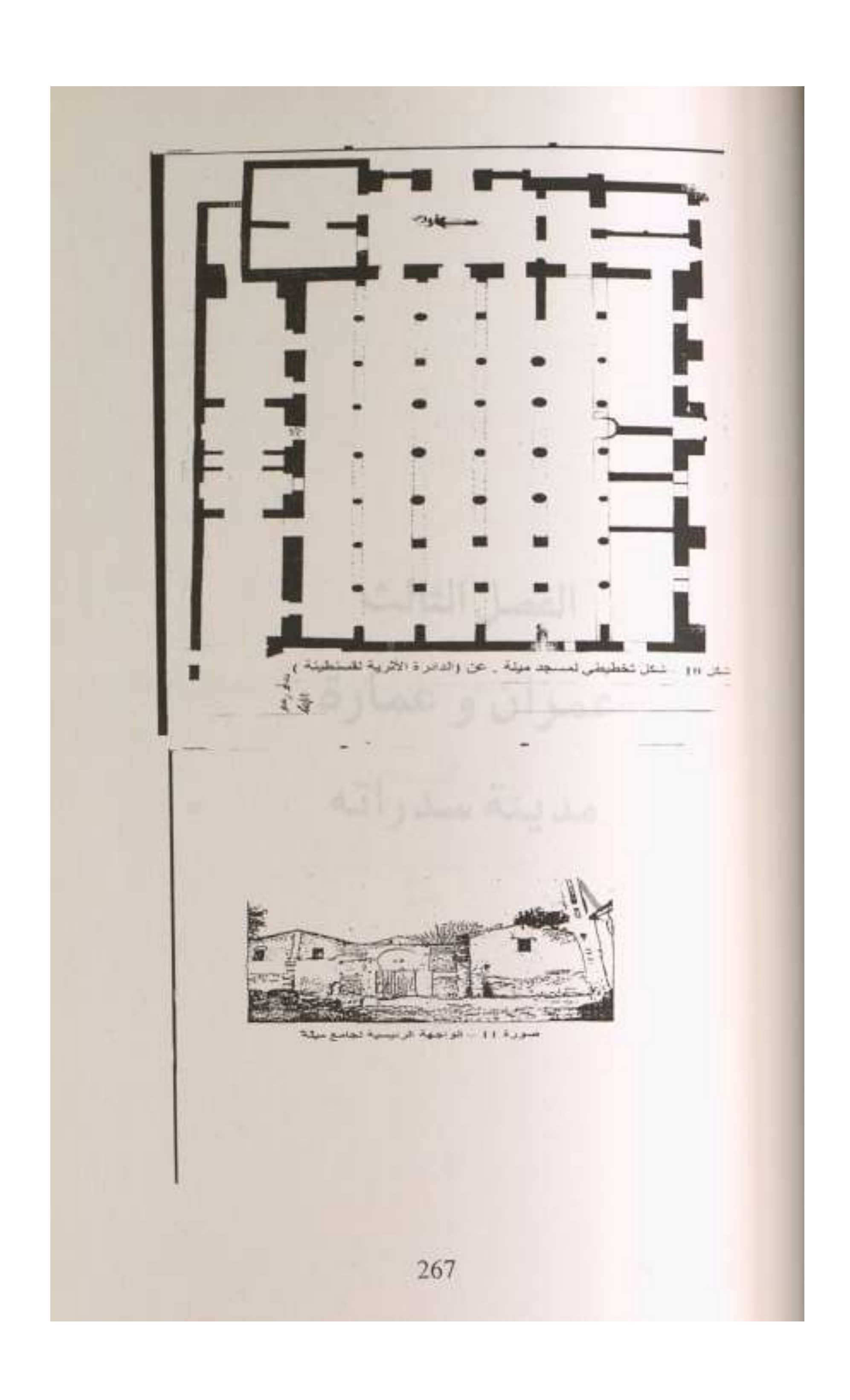
أما المكانة الدينية للمدينة فتتجلى في بناء العديد من المساجد والجوامع وارتباط المدارس بمساجدها وهذا ما أعطاها مكانة علمية في الشرق الجزائري ومركزا لاستقطاب طلبة العلم والدين من كل صوب .

أما في المجال التجاري فقد كانت قطبا رئيسيا للطرق التجارية كما كثرت بها الاسواق وارتبطت تجارتها بتونس وبالصحراء .

ولعل كل الأمور السابقة قد ساعدت على نمو المدينة وازدهارها، وتميزها بطابع المحلية والاصالة وهذا كله له دلالته الواضحة في

المساهمة في الحضارة العربية الإسلامية وتطور فن العمارة الإسلامية من كل جوانبها مما يبين أيضا بأن المغرب الإسلامي جمع إلى جانب فنانين مهرة وبناة اختصوا في بناء المساجد والقصور و غيرها وتوارثو هذه المهنة ثم ادخلو عليها أصولا مبتكرة مستوحاة من بيئتهم المحلية بمواد محلية أضفو عليه ابتكارات جديدة .

أما عن ميلة فبالرغم من أن الآثار الإسلامية قليلة جدا بالمدينة ما عدا مسجدها العتيق فإن كتب التاريخ والرحالة حافلة بمادة علمية تشهد للمدينة بالرقي والتطور الذي بلغته في العصر الإسلامي كعاصمة لإقليم الشرق الجزائري أنذاك والدور الذي أدته ميلة يمكن أن يكون مساهمة لها وزنها في التاريخ الحضاري العربي الإسلامي ببلاد المغرب وكفاها فخرا أن أول مسجد بني في المغرب الأوسط هو مسجدها وأن ثاني مسجد في بلاد المغرب الإسلامي هو مسجدها بعد جامع القيروان.



شكل ١١ - شكل تخطيطي لمسجد ميلة - عن (الدائرة الأثرية لقسنطينة)

صورة ١١ - الواجهة الرئيسية لجامع ميلة

الفصل الثالث

عمران و عمارة

مدينة سدراته

الـزخارف الجصية في مدينـة سدراتـه
(ورقلـــة)
دراسة أثرية فنية

<u>مقدمـة :</u>

- تعـد مدينـة سـدرا تـه مـن المـدن الإسـلامية المبكـرة بـالقطر الجزائري التي لم تحظ بدراسـات وأبحـاث جـادة من طرف الباحثين المختصين في حقل الآثار الإسلامية ، حتى يتمكن من إزاحة اللثام عما تحتفظ به من أسرار وكنوز مـا تـزال مدفونـة تحـت الرمـال إلى يومنـا هذا [1]. وكل ما كتب عنهـا إلى حـد السـاعة لايعدو بـأن يكون عبـارة عن محاولات أريد منها إحياء هذه المدينة وبعثها إلى الوجود .

إن السـبب في نـدرة الدراسـات حولهـا يكمـن في موقعهـا الحـالي الصعب المنـال مـن جهـة، ومـا تتطلبـه الحفريـات الأثريـة حولهـا مـن إمكانيات مادية وبشرية جد ضـخمة . بالإضـافة إلى ذلك فـإن الإهمـال والتناسـي اللـذين عرفتهمـا المدينـة طوال سـنوات عديـدة كانـا مـن بـين العوامـل الـتي أدت إلى إبقائهـا عرضـة للظـواهر الطبيعيـة والبـشرية المختلفة . فعواصـف الريـاح الرملية العنيفة مثلا التي غالبا ما تشـهدها مناطق الجنوب خلال فصـل الربيــع ، مـا فتئت تزيد مـن زحـف الرمـال وعلو كثبانها وتغيير وضـعيتها بصـفة مسـتمرة . عـلاوة علـى ذلك فـإن الزيارات المكثفة من قبل فئات مختلفة من المجتمـع ، عن قصـد أو بدونـه ، أضحت خطرا يهدد آثارها . فلقد أصبح الموقـع يمثل للبعض مكانـا

---

[1] -لا تزال إلى اليوم الزخارف الجصية المتنوعة والعديدة مدفونة تحت الرمال ، وبالتحديد على جدران المبنى المعروف بالقصر أو المحكمة (ملاحظات الباحث) ، كما تم العثور مؤخرا عن طريق الصدفة على قناة مائية تبعد عن سدراته بشيء قليل ، وأثناء معاينتنا للموقع كانت الرمال قد عجلت بتغطيتها .

للراحة والاستجمام ، وعلى الجدران العارية تخلد ذكرياتهم وعليها تسجل أسماؤهم وتاريخ حلولهم هناك . أما بالنسبة للبعض الآخر، فلقد أضحى مكانا للتمتع والتثقيف دون احترام أدنى الشروط اللازمة لحماية معالم الموقع . زيادة على ذلك فإن توسع الأراضي الفلاحية المستصلحة ، إن هي تواصلت بالشكل الذي هي عليه ، وكذا القمامات العمومية التي بدأت تزحف نحوها تعد هي الأخرى سببا من الأسباب المهددة لأطلال المدينة .

أدت هذه العوامل المذكورة آنفا إلى انهيار المباني المكتشفة وإلى طمس العديد من منشآت المدينة والكشف عن جزء آخر أحيانا . ولذلك كان من واجبنا أن نبادر ونسارع إلى إنجاز عمل متواضع يكاد يكون شاملا ، نريد من خلاله التعريف بتلك المدينة العريقة ، وأهم الأعمال والحفريات التي أقيمت بها . كما نود أن يكون هذا العمل بمثابة دافع لإنقاذ ما تبقى منها ، حتى نحافظ على إرث حضاري كان من واجبنا حمايته وإبرازه للعيان قبل أن يندثر ، وكان من واجبنا الافتخار به لأنه شاهد مادي لحضارة راقية عرفت أوج ازدهارها في مكان ما من ربوع صحرائنا الشاسعة ، كان فيما مضى أرضا مخضرة وعيونا جارية تسقي عددا من القرى والمداشر وأصبح اليوم أرضا جرداء قاحلة يصعب على المرء البقاء فيها لسويعات قلائل .

والجدير بالذكر، أن الغموض الذي يكتنف مدينة سدراته لم يقتصر على الجانب الأثري فحسب ، بل يشمل الجانب التاريخي أيضا . فبالنسبة لهذا الجانب والذي يعتبر المحور الأساسي لتتبع المراحل الكرونولوجية ومعرفة التطور العمراني وأهم التغيرات التي طرأت على المدينة ، فإن معطياته جد شحيحة، إن لم نقل منعدمة ، وغير واضحة تماما ، قد تزيد الدراسة لبسا وتعقيدا . أما بالنسبة للجانب الأثري فهو قليل جدا . فما أسفرت عنه نتائج الحفريات السابقة من مبان وقطع جصية مزخرفة تعد غير كافية مقارنة بالمساحة الشاسعة التي تشغلها المنشآت العديدة بالمدينة وغير المكتشفة إلى حد الساعة . ولذلك فإن العديد من الأسئلة لاتزال تطرح نفسها علينا تتعلق أساسا بالجانبين السالفي الذكر . ألا يحق لنا أن نتساءل مثلا ما هي العلاقة بينها وبين جارتها وركلان ؟ لماذا ذكر اسم وركلان في أغلب المصادر التاريخية وتغاضوا عن ذكر سدراته ؟ هل حقيقة كانت مدينة ذات شأن مثلما تردده بعض المصادر والأساطير أم عكس ذلك تماما ؟ كيف تم تشييدها ؟ هل بنيت عل أنقاض مدينة تسبقها عهدا ، مثلما جرت العادة في العديد من بناء المدن ، أم أن موقعها تم اختياره حسب ما تمليه ظروف الناجين من جهة ، وشروط بناء المدينة الإسلامية [1]، من

---

[1] - حول هذا الموضوع ، يمكن أن يراجع : - ابن أبي الربيع (شهاب الدين أحمد بن محمد): سلوك المالك في تدبير الممالك، دراسة وتحقيق ناجي التكريتي ، الطبعة الأولى ، تراث

جهة أخرى ؟ هل أن منشآتها بنيت دفعة واحدة خلال مرحلة زمنية معينة أم أن المدينة شهدت تطورا عمرانيا مع وفود موجات بشرية عبر فترات مختلفة من الزمن ؟ كيف يمكن إذن معرفة هذا المد العمراني التدريجي ، وفي أي اتجاه كان امتداده وإلى أي حد كان ؟ كيف نفسر وجود فن بهذا المستوى من الرقة والانسجام والتنوع ، وفي هذا المكان بالذات ؟ هل هو فن محلي أصيل أم أنه فن جلب مع العناصر البشرية الوافدة إلى هذا المكان ، خاصة وأن موقع المدينة الاستراتيجي يسمح بذلك ؟ ألا يمكن أن يكون فن سدراته أكثر غنى وتنوعا وازدهارا مما نعرفه الآن ؟ وبالتالي فإن ما لدينا من قطع لا تعدوا أن تكون نماذجا لزخرفة لم تكتمل معرفتها إلى حد الساعة .[1]

شكلت هذه المجموعة من التساؤلات محور اهتمام العديد من الباحثين والرحالة الأجانب منذ نهاية القرن 19م إلى يومنا هذا ، كل حسب درجة اهتمامه وتخصصه في البحث . وتمثل هذا الاهتمام في جوانب يمكن تصنيفها إلى ما يلي :

عويدات ، بيروت- باريس ، 1978 ، ص 152 . ابن خلدون(عبد الرحمن): العبر (المقدمة) مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت 1961، ص.617-619.

[1] -حملاوي.ع ، إشكاليات الفن ....1997 ، ص.36-37 . من ملاحظاتنا الميدانية ، وجود زخارف كاملة وأخرى لم تكتمل بعد ، حيث تظهر دوائرها وكأنها حزوزا نفذت بواسطة آلة حادة حلت محل الفرجار حاليا .

1- البحث عن تاريخ نشأة المدينة من خلال المصادر والروايات الشفوية المتداولة ، مثلما فعل هنري دفيري (H.DUVEYRIER) (1859- 1861 م)[1] ، وشارل فيرو (CH.FERAUD 1871- 1872م)[2][3].

2- الاهتمام بمعالمها الأثرية البارزة للعيان ووصفها وصفا قد يكون سطحيا أحيانا ، الغرض منه التعريف بالمعلم أكثر من الدراسة العلمية ، كما فعل لو دفيك فيل (L.VILLE) بالنسبة لعين الصفا[4] ، وفكتور لارجو (V.Largeau) (1872- 1879 م) بالنسبة لجامع وبيوت المدينة[5].

3- إجراء تنقيبات أثرية في أماكن مختلفة من أجزاء المدينة وعلى مدى سبعين عاما من قبل باحثين معظمهم بعيدين عن تخصص الآثار . وعلى الرغم من النقص الملحوظ في حفائرهم إلا أن نتائج أعمالهم كان

---

1 H.DUVEYRIER-Issedraten et le schisme ibadite'', Revue d'Ethnographie, T.2, Paris, , 1883,pp.203-212

2 -- CH.FERAUD, Les Ben Djellab, sultans de Touggourt, Revue africaine, N° 178, Alger, 1886, pp.259-274 et 367-391 ..

4 - L.VILLE , Voyage d'exploration dans le bassin du Hodna et au Sahara, Paris 1868 , p.507 . عين الصفا ، هي من العيون المشهورة بسدراته ، يبدو أن اسمها مشتق من صفاء مائها . حاول فيل إحياءها سنة 1861 ، لكنه لم يفلح . كما عثر عليها طاري أثناء حفرياته هناك .

5 - V.Largeau , Le pays de Rirha, Voyage à Rhadames,Paris 1879 pp. 186-189-

لها دور كبير في إخراج المدينة إلى النور ، وإبراز أهميتها من الناحية الأثرية . كما تعد أعمالهم إسهاما حقيقيا في مجال الدراسات الأثرية على العموم ، وحول مدينة سدراته على الخصوص ، ينبغي على كل مهتم بسدراته العودة إليها للاستفادة منها .

وما تجدر الإشارة إليه أن الموقع تم تصنيفه أثناء الفترة الاستعمارية بتاريخ 24- 09- 1954م، بناء على طلب للمحافظ العام بالجزائر تقدمت به الباحثة مارغريت فان برشم سنة 1945م ، والتي لاحظت أن بقايا المدينة ، والقطع الجصية على وجه الخصوص ، تتعرض من حين لآخر إلى النهب والسرقة . حددت المنطقة الأثرية المصنفة خلال الفترة الاستعمارية على شكل مستطيل طوله 7كلم في اتجاه غرب- شرق و6 كلم شمال- جنوب . تضم المنطقة المحددة القارة الأولى من جبل العباد في الجنوب ، أما الجهة الشرقية فتصل إلى ما وراء قارة كريمة . في حين تشمل الجهة الشمالية حدائق مدينة ورقلة وروبسات. وبعد الاستقلال أعيد تصنيف الموقع ضمن التراث الوطني وتم الإعلان عنه الجريدة الرسمية رقم 07 بتاريخ 23- 01- 1968

إن هذه الأسباب المذكورة سابقا كانت دافعا قويا لخوض غمار البحث حول هذه المدينة كي نسهم بالجهد القليل في التعريف بها وبفنها وتقديمه إلى المختصين وأبناء المنطقة الشغوفين لمعرفة المزيد عنها . كما نود أن يكون هذا البحث صرخة قوية توقظ من سباته كل من يرغب في

تقديم يد العون من أجل إخراجها من دائرة النسيان ، وجعلها بمثابة متحف على الهواء الطلق ، يستشف منه عبقرية أجدادنا ، وتكون بمثابة محرك يدفعنا إلى الأمام حتى نصل إلى ما وصلوا إليه هم ، رغم الإمكانيات البسيطة التي كانت بحوزتهم .

أ. د. علي حملاوي

باب الزوار في : **2006/04/29**

أولا :الموقع الجغرافي والبيئة الطبيعية للمنطقة:

1- تحديد الموقع :

تقع أطلال مدينة سدراته ما بين خطي 3°53' و3°54' طولا و5°18' عرضا .تبعد عن مدينة ورقلة ، في اتجاه جنوب غرب ، ببضعة كيلومترات والتي تبعد بدورها عن الجزائر العاصمة بمسافة تقدر بحوالي 800 كلم (خريطة 1) شيدت مبانيها بالقرب من مصب وادي مائة الممتد من جنوب غرب جبل العباد



خريطة 1 : موقع ولاية ورقلة من القطر الجزائري وموقع اثار سدراته من الولاية

إلى قارة كريمة جنوبا وإلى حوالي 20 كلم شمال مدينة ورقلة. يعتبر وادي مائة من الموارد المائية الرئيسية التي كانت تزود المنطقة آنذاك[1] ، وهو ما ساعد على استقرار مجموعات بشرية بها منذ أزمنة غابرة[2].

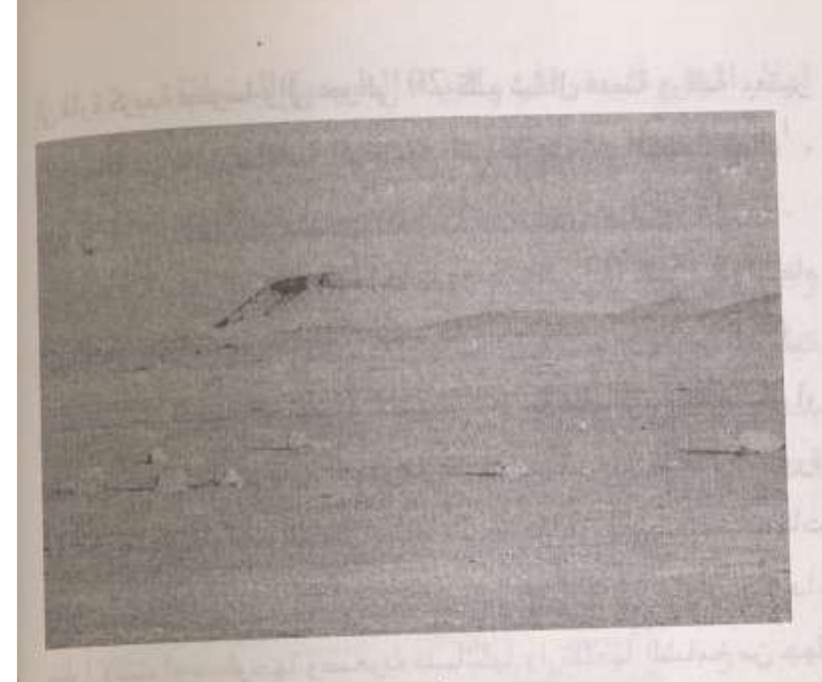
تتربع مدينة سدراته على مساحة تقدر بحوالي 02 كلم^2 في اتجاه شمال غرب – جنوب شرق[3] ، وتشغل مبانيها مجموعة من التلال . يحيط بها من الجهة الجنوبية والجنوبية الغربية سلسلة من الجبال أو ما تعرف محليا باسم قارة أشهرهم قارة كريمة وجبل العباد (صورة 1). تعد هذه القارات والجبال بمثابة شريط دفاعي يحيط بأغلب جهات المدينة ، كما يعد بمثابة ملاجئ يحتمي بها السكان من غارات الأعداء نظرا لاستواء سطوحها وصعوبة مسالكها وارتفاعها الشامخ من جهة ،واحتوائها على أهم عنصر للحياة وهو الماء مثلما كان بقارة كريمة (صورة 5).

---

1 - R.Brigol, Ouargla , Oasisalgériens , Etudes des photos –interprétations , N°6, Paris, 1973, pp.33 et sq. وجود المياه بكثرة في تلك المناطق كان قد تحدث عنها المورخون القدماء عند تعرضهم للحديث عن الشعوب الاقديمة التي كانت تعمر المنطقة . انظر : , A.Berthelot L'Afrique saharienne et soudanaise , ce qu'on connu les anciens , Les arts et le livre, n°4, 1928, pp.272-273.

2 -G. Aumassip et autres, " Aperçu sur l'évolution du paysage Libyca, ", t20, 1972, p.235

3 - M.V.Berchem , " La découverte de Sedrata Proceedings of the 22nd congress of- Orientalists,Istanbul,September, 15th to 22nd, 1951,Leiden 1957,p.634



صورة 1 : قاره كريمة

إن هذه الميزات الطبيعية التي تتجلى بهذا الموقع فضلا عن وجوده في مفترق طرق القوافل التجارية[1] ، كانت من بين الأسباب الرئيسية المساعدة على استقرار تلك المجموعات وإنتاج حضارة راقية ما تزال آثارها ماثلة للعيان.

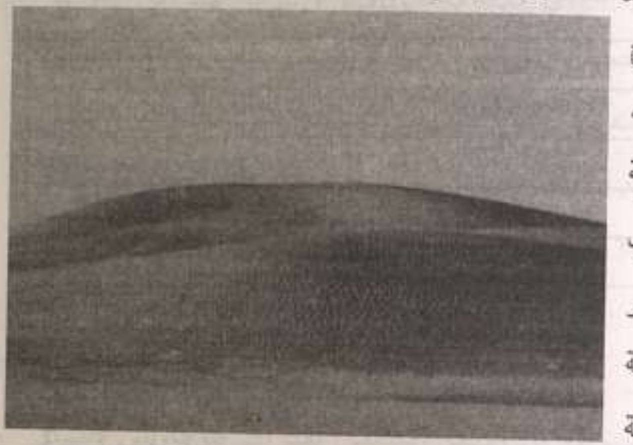
---

[1]-(مزهودي (م) ، الإباضية في المغرب الأوسط ، جمعية التراث ، القرارة 1996 ، ص. 130 وما بعدها . كذلك زبادية (ع ق) ، " ورقلة ...عروس مدائن الجنوب الجزائري " الأصالة ، العدد 41، 1977 ، ص. 141 .H.Peres, « Relations entre la Tafilet et le Soudan à travers le Sahara du XIIè au XIVè siècle' Melanges de géographie et d'orientalisme offrets à E.F.Gautier, Tours, 1937.pp.409-

2- التضاريس:

على وجود سلسلة من القارات والجبال ، يتخلل الموقع منخفضات اتخذ جزء منها مقبرة للمدينة (صورة 2) ومرتفعات تغطيها كثبان رملية ، يزداد علوها كلما اتجهنا نحو الجهة الشرقية ، أي باتجاه طريق الرويسات ، والجنوبية الشرقية خاصة

صورة 2 : مقبرة المدينة في الجزء المنبسط من الموقع



بالقرب من سفح قارة كريمة ، وكذلك الشمالية حيث يمر أنبوب الغاز . وتفسر الدراسة الجيومورفولوجية هذه الظاهرة بأن الرياح تهب من الجنوب إلى الشمال ، وهي محملة بالحصى ، فتلتطم بالحواجز الطبيعية الموجودة في الشمال لتقف عائقا أمام مواصلة سيرها ، إثرها تعود باتجاه الجنوب لتفرغ حمولتها بتلك الأماكن (صورة 3)[1].

[1] - ورشة الأبعاد الثلاثة ، الدراسة الجيومورفولوجية تمت من قبل الباحث نجيب فرحات .

صورة 3 : كثبان رملية تغطي الموقع الأثري

و الملاحظ جيدا لهذا المكان سوف يدرك تلك المتغيرات الطوبوغرافية كلما اقترب من أطلال المدينة ،حيث يرى أن هذا الموقع يتكون من وهاد وروابي ، تشغلها مبان متراصة ومتلاحمة فيما بينها مشكلة بذلك مجموعات سكنية ،اختلف ارتفاعها من مكان إلى اخر مثلما هو مبين في الجدول أسفله .

الموقع	الارتفاع
القصر أو المحكمة	150
المنزل المحصن	145 .77
المسجد	148.02
مقلع الحجارة	146.99

3- البيئة الطبيعة للمنطقة:

3- أ- المناخ:

يتميز المناخ الصحراوي بشدة حرارته صيفا وبرودته شتاءا " كما أن أمطاره قليلة وغير منتظمة .

ويعد المناخ من بين العوامل الأساسية المتحكمة في مكونات المدينة مثل اتجاهات شوارعها وأزقتها وتنظيم بيوتها بل حتى في اختيار مواد البناء . وفي المقابل فإن للمناخ أيضا دور كبير في انهيار المباني وزوالها وتعريتها، فأطلال مدينة سدراته تتأثر به بشكل مباشر ومستمر نظرا لهشاشة مادة بنائها وبحكم وجودها على الطبيعة دون

أدنى وأبسط حماية . ومن ذلك نذكر ما يلي :

3- ب الرياح:

تعتبر الرياح من العوامل الأكثر خطرا بالمنطقة خاصة في فصل الربيع ، ذلك أنها تهب على شكل زوابع رملية عنيفة ، تحجب الرؤى وتهدم الأشجار والنخيل أحيانا . ومن النتائج السلبية التي تنجر عن الرياح وتشكل خطرا على المباني وزخارفها هي عملية التعرية والحت، لما تحتويه من ذرات حصوية صلبة .كما تزيد من حجم وعلو الكثبان الرملية وتغيير وضعيتها كلما اعترض حاجز ما سبيلها ، مشكلة مرتفعات رملية تزيد بثقلها على المباني وعناصرها المعمارية الهشة كالقباب والعقود مثلا .

3- ج- الحرارة :

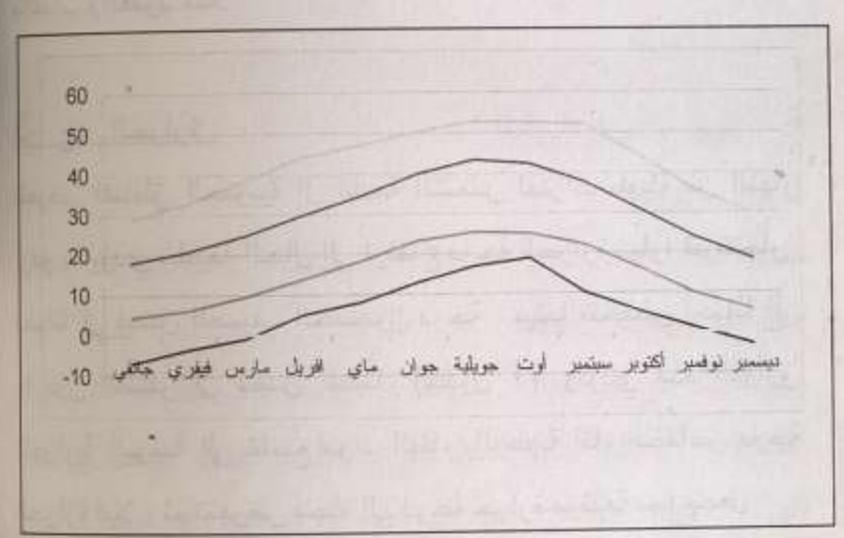
تتعرض المناطق الجنوبية إل أشعة الشمس لفترات طويلة من النهار وهو ما يؤدي بطبيعة الحال إلى ارتفاع درجة الحرارة نهارا قد تتجاوز احيانا في فصل الصيف الخمسون درجة . بينما تنخفض احيانا إلى ما دون الصفر في فصل الشتاء (جدول 1). وتؤدي هذه الفوارق الحرارية اليومية إلى تشبع مواد البناء بالرطوبة أثاء انخفاض درجة الحرارة ليلا ، ثم تتعرض فجأة إلى درجة حرارة مرتفعة مما يجعل

الحجارة تفقد صلابتها وبالتالي يسهل تفتيتها وانهيارها عند تعريتها أو المساس بها .

3- - د- الأمطار

تتعرض الصحراء بين الفينة والأخرى إلى أمطار فجائية غزيرة . تمتص مياهها الرمال وأعلى جدران المباني ، ثم تتسرب عبر الشقق والفتحات الموجودة على مستوى حوائط تلك المنشآت إلى أن تصل إلى أسسها فتستقر لينتج عنها في الأخير رطوبة جد مرتفعة تؤثر بصفة مباشرة على مادة البناء .

جدول 1:درجات الحرارة بالمنطقة في ما بين سنتي 1926و1950م.
عن(J.Dubief ,1959).



3- هـ- التربة والمياه :

تكثر المحاجر الكلسية بمحيط المدينة ، وهي لا تزال ظاهرة للعيان إلى يومنا هذا . وقد ساعد وجودها في عملية البناء واستخراج مادة الجص الذي كثر استعماله في الزخرفة أو في تلبيس الجدران بعد حرقها ودكها (صورة4) . أما المياه ، فالمنطقة غنية بالمياه الجوفية لكونها تقع فوق ما يعرف ب:Nappe dite miopliocène



صورة 4: حجارة كلسية بعد استخراجها وطحنها

ويتراوح عمقها ما بين 30و60م ، غير أن هذه المياه تعد غير صالحة للاستهلاك [1]، علاوة على أنها شيدت بمقربة مصب وادي مائة الذي

---

[1] - ورشة الأبعاد الثلاث ، الدراسة الجيومورفولوجية ، ص4 .

يأخذ مجراه من هضبة تادميت ، ويعد في نفس الوقت حلقة اتصال بالتيديكلت والقورارة [1]. وتؤكد الدلائل الأثرية ما تناقلته الروايات عن وفرة المياه بالمنطقة . فلقد عثر هارولد طاري على البئر الأرتوازي التي كثيرا ما تغنوا بها وشرب منها هو وحوالي ثمانين عاملا اثناء القيام بحفريته سنة 1881م ، وهي عين الصفا .كما شاهد المهندس رولاند فتحة البئر والمجاري المائية التي كانت تنطلق منها سنة 1883[2].

3- و- الغطاء النباتي:

باستثناء بعض جذوع النخيل أو الأشجار المعروفة في المناطق الجبسية ، مثل شجر الزيتة والعقة التي تبدو أحيانا هنا وهناك ، فإن المنطقة أين تقع أطلال المدينة سدراته تبدو جرداء قاحلة لا أثر للحياة فيها . غير أن بقايا الأراضي الفلاحية التي كانت تحيط بالمدينة خاصة في الجهة الشرقية تؤكد على أن المكان كان عبارة عن جنات ذات أشجار وارفة الظلال . والجدير بالذكر أيضا أن مشاريع لاستصلاح الأراضي بدأت تظهر هناك ، محاولة لاسترجاع الموقع أهميته وفي نفس الوقت تعتبر وسيلة لحمايته من زحف الرمال (صورة 5).

1 - H.J.Hugot Essai sur les armutures de pointes de fleches du Sahara . Libyca, t5, 1957, p.231

2 - M.G.Rollad , La Région de Ouargla, Revue scientifique , 3ème série , T5, Paris 1883, p.8.



صورة 5: المنطقة اين تقع مدينة سدراته وفي الأعلى (باللون الأسود) يظهر مشروع استصلاح

ثانيا :لمحة تاريخية عن مدينة سدراته :

تزخر منطقة ورقلة بمواقع أثرية تعود إلى فترات ما قبل التاريخ كبرج ملالة وحاسي مويلح وغيرهما [1]. كما عثر على أدوات حجريه بالنطقة الممتدة جنوب سدراته ، وهي بذلك تعد دليلا ماديا بأن المنطقة كان معروفا خلال ما بعد العصر الحجري القديم (Epipaléolithique) والعصر الحجري الحديث (Néolithique) [2].
لكن هذا الموضوع لا يزال بحاجة ماسة إلى ابحاث ودراسات أخرى معمقة للكشف عن استقرار العنصر البشري بهذا المكان وأهم

---

[1] وهما موقعان غنيان بالنصال والسهام . وهما لا يزالان أراضي عذراء بحاجة إلى دراسات معمقة من قبل الباحثين المختصين في ما قبل التاريخ .

[2] G. Aumassip, Néolithique sans poterie de la région de l'Oued Mya, (Bas Sahara), SNED-

الصناعات المنجزة من طرفه . أما بالنسبة للعهد الروماني فإنه يجهل الكثير عن أوضاع المنطقة خلال هذا الفترة ، على الرغم من أن هناك من يعتقد بوجود مخلفات رومانية شمال مدينة سدراته[1]. والحقيقة أن هؤلاء لم يستقروا إطلاقا بهذه المناطق والتي تبدوا متوغلة عن خط الليمس الواقع قرب وادي جدي ، بل كانوا يجوبونها في شكل حملات قد يكون الهدف من ورائها جمع الضرائب من القبائل البربرية الموجودة هناك [2] ، والتي فضلت هجرة مواطنها الأصلية والاحتماء بهذه الأماكن هروبا من الغزو الروماني .

إن قلة الدراسات الأثرية والتي تعد على رؤوس الأصابع والافتقار إلى المعطيات التاريخية حول مدينة سدراته ، سواء بالنسبة للعهود المذكورة آنفا أو ما يليها جعلت بعض الباحثين يرجعون تأسيسها إلى بداية الفتح الإسلامي . ونجد في طليعة هؤلاء الباحث جون ليتيو (Lethilleux.) ،والذي يرى ، بناء على وثائق لأول مرة يعتمد عليها ، أن المدينة بنيت في مطلع القرن 1 هـ "[3]. وفي هذا الصدد، وعلى لسان

---

[1] -هناك روايات ترى بأن أطلالا رومانية تقع بالقرب من أم الرانب ، ومن خلال تحرياتنا لم نجد ما يؤكد صحة ذلك

[2] - Anonyme, " Notes pour servir à l'historique d'Ouargla ", Revue africaine, 1923, p.382

[3] - من مؤلفي هذه الوثائق نجد سليمان بن إبراهيم بن باتوح (ولد في سدراتة سنة 293هـ – 905م وتوفي بورجلان سنة 407هـ – 1016م) ومن تآليفه " كتاب الإبراهيمي في سلوك المذهب الإباضي " وكذلك العالم المشهور أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (ت. سنة 570هـ – 1174م) وأخيرا باسنشري بكر بن هود بن صالح بن قاسم بن عيسى (كتب سنة 656هـ – 1257م) . لمزيد من الإطلاع أنظر : J. Lethilleux, Ouargla*, cité saharienne des origines au début du xxe siècle, Paul Geuthner, Paris 1983, pp. 24-25 et 26

ما أورده الباحث السالف الذكر ، يذكر باستشري (بكر بن هود بن
صالح بن قاسم بن عيسى) أحد الذين استقوا معلوماتهم من الوثائق
القديمة أثناء بدايته في الكتابة سنة 656هـ/1257م و التي عثر عليها
هو شخصيا في مسجد هود بسدراته (نهاية القرن 7م) " أن سبعة
من المسلمين استقروا في جبل نفوسة ،ثم اتجه اثنان منهم إلى وادي
مية ولا يعرف هل قدما إلى الوادي كزوار فقط أم كانت رغبتهم في
الاستقرار هناك . ثم يضيف قائلا "مهما يكن من أمر فعن طريق القوا
فل القادمة من زنجبار والسودان وصل في 7 رجب 39 هـ (658 م)
عبد الرزاق بن عبدان بن عبد الحق المولود بحضرموت وأسس مدينة
اطلق عليها اسم (تيميمون) [1].وفي سنة 41 هـ (661- 662 م)
ونتيجة لعدم الاستقرار بجبل نفوسة وصلت جماعات أخرى إلى وادي
مية قاد إحداها أبو حفص عمروس بن فتح الغار ، فقام هؤلاء الوافدون
ببناء مسجد ثم شيدت حوله الدور والمساكن وبذلك ظهرت سدراته
للوجود كمدينة [2]. ويرى الوسياني أن الأساطير المستقاة هناك تتحدث

---

[1] مايمكن أن نشير إليه أن المذهب الإباضي في المرحلة الأولى (ق1هـ/7م) وجد تربة خصبة في بعض الأماكن نذكر منها عمان وفارس وزنجبار وافريقيه الشرقية والمغرب . وقد اعتمد الإباضيون كذلك على القواعد الصحراوية الصغيرة . انظر ، أبي زكريا يحي بن أبي بكر ، كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، حققه ووضع هوامشه ، إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984 ، ص، 13-14. كذلك . إسماعيل العربي ، دولة الأدارسة ، ملوك تلمسان وفاس وقرطبة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 ، ص.41

[2] يرى الوسياني أن الأساطير المستقاة هناك تتحدث عن أقدم مصلى بني في ورقلة كان يقع قرب مدينة انقان (Ingan) ويعود في أغلب الظن إلى فترة أقدم من سنة 743م .وهي سنة تدخل في حكم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، والذي يعتقد أنه في عهده دخل الإسلام إلى منطقة وركلان .

عن أقدم مصلى بني في ورقلة كان يقع قرب مدينة انجان (Ingan)[1]، ويعود في أغلب الظن إلى فترة أقدم من سنة 743م[2] .

والجدير بالذكر أن سدراتة اشتهرت بكثرة عمرانها ونخيلها حيث تذكر الأسطورة أنه ، خلال القرن 3هـ/9م ، كانت تحتوي على ما يربو من ألف وواحد وخمسين عينا تسقي حوالي مائة وخمس وعشرين قرية (خريطة 2) . كما كانت تعرف بنشاطها التجاري ، وهي حقيقة تؤكدها المصادر التاريخية ، حيث يذكر الادريسي (ت . 548هـ) متحدثا عن مدينة وركلان بأن أهلها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد نقارة ، فيخرجون منها التبر ، ويضربونه في بلادهم باسم بلدهم ، وهم وهبية اباضية نكار ....)[3] ويؤكد ذلك الرحالة ابن سعيد (640هـ/1243م ، بقوله : هي بلاد نخل وعبيد ومنها تدخل العبيد إلى المغرب الأوسط وافريقية ، والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير[4] . وقد حافظت

---

[1] - كما ورد لفظ الجاز . ويعتقد أنها من المدن القديمة بمنطقة وركلان ، انظر : بورايو يحيى ، قرى وأسماء مواضع في إقليم وارجلان من خلال ثلاثة مصادر تاريخية ، مجلة حوليات المتحف الوطني للآثار ، العدد ، 10، 2001 ، ص102-103

[2] - وهي سنة تدخل في حكم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، والذي يعتقد أنه في عهده دخل الإسلام إلى منطقة وركلان . انظر : Lewicki , Etudes maghrébines et soudanaises . 1983 . p.82

[3] -الادريسي (أبو عبد الله محمد) ، المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق محمد حاج صادق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 1983 ، ص.160

[4] - ابن سعيد (علي بن موسى المغربي) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق وتقديم وتعليق اسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ط1، 1970، ص.126.

المدينة على هذا الازدهار التجاري ، حيث عدت خلال القرن 9ه/15م آنذاك باب لولوج السفر[1] " ، ومحط للقوافل التجارية تأتيها من كل حدب وصوب ، وهو ما يؤكده الرحالة المغربي العياشي (ت1090ه/1679) أثناء وجوده بورقلة في قوله " وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولهم دخول قافلة من أعراب الأرباع قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع ..."[2] . وللإشارة فإن كلمة ورجلان بوركلان واركلا، وارقلان ، يقصد بها المدينة والمنطقة المحيطة بها[3] (خريطة 2). ولعل الوصف الذي قدمه كل من البكري وصاحب كتاب الاستبصار (6ه/12م) والحميري (ت في القرن 8ه/14م) ، بأن وركلان عبارة عن سبعة حصون أكبرها يسمى أغرم ايكامن بالنسبة للبكري [4]، وسبعة مدائن مسورة حصينة قريبة من بعضها البعض بالنسبة للحميري [5]، دلالة كافية على تسمية المنطقة بهذا الاسم ، وإلا كيف يفسر وجود هذا الاسم دون سواه منذ وقت مبكر . فياقوت

---

[1] ابن خلدون (عبد الرحمن) ، كتاب العبر ، دار الكتاب اللبناني ، ج 7 ، ص107

[2] —العياشي (أبو سليم عبد الله بن محمد) ، ماء الموائد ، مخطوط عائلة زرقي بني سيسين ، ورقلة ، ص. 46

[3] مرموري (مسعود) ، الإباضية في المغرب الأوسط ، نشر جمعية التراث —القرارة- 1996 ، ص27.

[4] - al Bakri (Abu), Descrirtion de l4afrique septentrional ,nouv ed . Paris 1965. p.340

[5] الحميري (محمد بن عبد المنعم ، كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ، ط2، بيروت 1984 ، ص. 600.

Annyme , Kitab al Istibsar, trad. Fagnan « l'Afrique septentrionale au 1éème siècle » , Recueil de Constantine , V33, 1899, p.208.

الحموي (ت 625ه) يذكر أن وارجلان كورة[1] بين افريقية وبلاد الجريد ، وأن عاصمتها تسمى فجوهة [2] .

في حين يرى فريق آخر من الباحثين أن تأسيس المدينة يرتبط ارتباطا وثيقا بنهاية الدولة الرستمية بتيهرت سنة 296 هـ -297 هـ / 908م/909م على يد الفاطميين ،وهروب الناجين من بطش هؤلاء متجهين نحو الجنوب يقودهم الإمام يعقوب ابن أفلح[3] .ويصف لنا أبو زكرياء هذه الحادثة بقوله : " خرج يعقوب بن أفلح في خيل من أصحابه بعائلاتهم وأهاليهم فتبعهم عسكر العدو، وكان عنده حصان عظيم الشأن ، فتقدم لأصحابه على الطريق ، وقد أسدل على رأسه ملحفة ، فإذا قرب العدو من أصحابه وغشيهم خيلهم ، نادوه فيقف لهم حتى يصلوا ويأمرهم بالسير على الطريق ويستقبل خيل العدو بوجه فرسه ، وكان فرسه تضرب به الأمثال في المغرب . فإذا نظروا إليه وعرفوه ، توقفوا له من هيبته ، فإذا ما تباعد أصحابه عنهم سار .

---

[1] -كورة معناها المدينة والصقع (ناحية الأرض) ، ابن منظور ، لسان العرب .

[2] -الحموي (ياقوت) ، معجم البلدان ، مج 4 ، منشورات مكتبة الأسدي ، طهران 1965 ، ص920.

[3] هو يعقوب بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، بويع بالإمامة سنة 284ه – 897م بعدما ثار أهل تيهرت على يوسف بن أخيه ، واستمرت إمامته زهاء أربع سنوات ، إذ سرعان ما خلع لتعود إلى ابن أخيه ثانية سنة 288ه – 900م. رحل إلى ورجلان بعد دخول الفاطميين إلى تيهرت، وظل بها إلى أن وافته المنية سنة 310ه – 922م . أنظر : الدرجيني (أبو العباس أحمد بن سعيد)، طبقات المشائخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم طلاي ، ج.1، مطبعة البعث ، قسنطينة –الجزائر ، ب.ت، ص 104 .

في أثرهم حتى يدركهم فيسبقهم... فكانت تلك حالهم وحاله حتى أيس منهم العدو ورجعوا عنه وأصحابه ، فمضى أبو يعقوب وأصحابه سائرين إلى ورجلان .[1]

وتذكر النصوص التاريخية أن الإمام نظر نظرة إلى النجوم ، وهو في طريقه إلى ورجلان ، ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم: " إنه لا يجتمع منكم اثنان إلا كان عليهم الطلب . افترقوا ، فقد انقضت أيامكم وزال ملككم ولا يعود إليكم إلى يوم القيامة[2] . هكذا افترق شمل المجموعة في الطريق ، فأقبل أبو يعقوب صحبة أهله وعياله إلى ورجلان ، في عهد أبي صالح جنون بن يمريان[3] ، فأدخلوه وأكرموه وأحسنوا القيام به ، وطلبوا منه أن يتولى أمورهم فرفض طلبهم بقولته المشهورة " لا يستشر الجمل بالغنم ."[4]

---

[1] -أبو زكرياء (يحيى بن أبي بكر) ، كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، حققه ووضع هوامشه إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984 ، ص ص . 188 – 189 .

[2] - نفس المصدر ، ص . 189 . كذلك الدرجيني ، ص 105 .

[3] -هو أبو صالح جنون (أو أكنون) بن يمريان اليهرساني (اليراسني) الورجلاني . وحول هذه الشخصية يقول علي يحيى معمر : " هو من علماء القرن 4هـ ، من الطبقة الخامسة ، شخصية فذة من تلك الشخصيات التي تسامى بمواهبها وأعمالها وأخلاقها ، فقد كان عالما غزير المادة وذكيا متوقد الذكاء ، وحليما واسع الحلم ، وكريما بالغ الكرم ، ذو مال ، حزم أمر وارجلان ووحد بينها حتى صارت كتلة قوية يخشاها الظالمون ويتحاشون جانبها . وفي عصره كانت ورجلان مستقلة عن جميع الدول الحاكمة تحكم نفسها بنفسها ، وكانت ملجأ للعلماء الإباضيين ورجالهم طيلة قرن كامل يفرون إليها من الاضطهاد فيجدون في ربوعها الأمن الشامل . أنظر : الإباضية في الجزائر ، ج 1 ، المطبعة العربية ، غرداية 1985 ، ص 157 .

[4] - أبو زكرياء ، المصدر السابق ، ص.189 .

في هذا الموقع الحصين ،والمتميز بوفرة المياه والملاجيء للاحتماء بها أثناء الغارات (صورة 6) وجدت تلك الجماعة المكان الملائم بها[1] ،لتحمي نفسها ومذهبها ولو لفترة قصيرة من الزمن ، إذ ما لبثت أن هاجرت عناصر منهم مدينة سدراته إلى مكان آخر يبدو أنه أشد مناعة وأكثر أمانا من الأول ، وهو ما يعرف بوادي ميزاب أو مدن الشبكة ، حيث تأسست كل من مدينة العطف (1011م)وبونورة (1048م)وبني يزقن وغرداية(1053م)

ويعتقد أن هجرة تلك الجماعات منذ وقت مبكر (أي خلال القرن الخامس الهجري/ 11م)كان سببها انتشار البدو وقطاع الطرق وانحراف سكانها عن تعاليم الدين الإسلامي الحنيف ، خاصة بعد موت أبي صالح جنون ، وكذا كثرة القلاقل والفتن التي أضحت تفتك بالمنطقة جلها وتهدد استقرارها . وعلى سبيل الذكر يصف لنا أحد المؤرخين الحادثة التي وقعت بين أهل فران وأهل حيمة ، وما ترتبت عن هذه الفتن من نتائج وخيمة إذ يقول : " فاكبرت الفتنة بينهم واكسرت أهل فران ... إلى أن بقدرة الله سلط عليهم الجبابر فاذهبت من يد أهلها ... وافترقت العروش وخفيت العيون وذهبت العلوم ما بقي إلا الحي القيوم "[2]. ويبدو أن هذه الفترة تزامنت ودخول المنصور الحمادي (481هـ –498هـ) (1088م- 1104م)إلى المنطقة

---

[1] -تتحدث الأساطير عن وجود ما يربو من ألف وواحد وخمسين عينا جارية تسقي حوالي مائة وخمس وعشرين قرية بالمنطقة

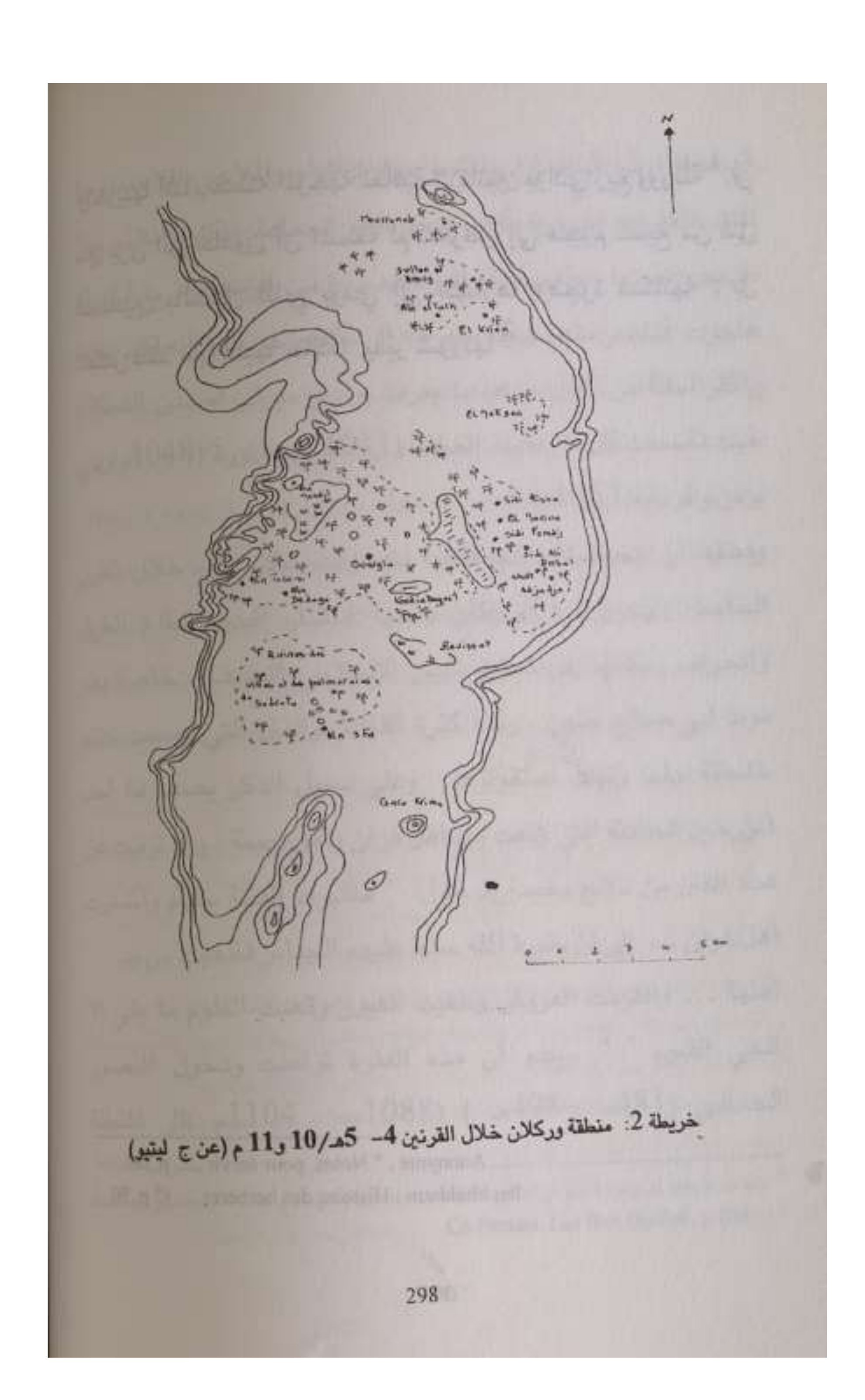
[2] - Ch.Feraud. Les Ben Djellab, p.264

وتخريبها أثناء حملته الموجهة لمعاقبة الزناتيين بوادي ريغ وورقلة [1]. في حين يرى ابن خلدون أن المنطقة لم تتعرض إلى هجوم شنيع من قبل الحماديين بالشكل الذي يؤدي إلى انهيارها وهجرة سكانها ، بل العكس فلقد عين عليها حاكما يدير شؤونها [2].

---

1 - Anonyme , " Notes pour servir ... , p.383

2 - Ibn khaldoun , Histoire des berbères..., t2 p. 50



خريطة 2: منطقة وركلان خلال القرنين 4- 5هـ/10 و11 م (عن ج ليتيو)

أما المخطوط الذي تحدث عنه هارولد طاري (H.Tarry) ، فيذكر أن المدينة اندثرت سنة 1274م من طرف قائد مجهول يدعى " منصور الشرق ". هذا الأخير وصل رفقة جيشه إلى سدراته واستقر بها حوالي خمسة وثلاثون يوما ، قام أثناءها بهدم العين التي كانت تسقي المدينة ومزارعها... فرعب أهل المدينة وفروا إلى ناحية التلال الرملية ، أي على بضعة مراحل جنوبي سدراته . وعندما رجعوا إلى منازلهم وجدوها مهدومة "[1] . ويضيف صاحب كتاب العدواني ، أن سدراته تم تخريبها من طرف الخليفة الموحدي المنصور مرتين على التوالي ، ولم يغادرها في المرة الثانية إلا بعد أن حولها إلى صحراء قاحلة [2].ويذكر ابن خلدون أن تخريب المدينة



صورة 6:بقايا مبان سكنية وبئر فوق قمة قاره كريمة

---

[1] - وروية (رشيد) ، مدن مندثرة ، تاهرت ، سدراته ، أشير ، قلعة بني حماد ، سلسلة فن وثقافة ، وزارة الإعلام والثقافة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1981 ، ص46 . كذلك : H. Duveyrier, "Issedraten, p.208.

[2] - C.Feraud , Kitab al Adwani ... , p.206 . Cf.aussi, r.basset, Notes de voyages au Mzab et à Ouargla, Mélanges africain et orientaux, Paris, 1915, p.142.

كان على يد بني غانية ما بين (1224- 1227م) ، لأن المنطقة على حد قوله كانت كلها من الموالين للدولة الموحدية ، وكان عاملهم يقطن بالزاب آنذاك [1].

وحسبما يبدو فإن الأحداث التي نسج حولها تاريخ تأسيس المدينة وزوالها تكاد تفتقر نوعا ما إلى النظرة العلمية المتفحصة . وحسب الاعتقاد فإن مدينة سدراته كانت موجودة قبل قدوم الفارين من تيهرت ، ولولا وجود إباضيين بالمنطقة والتي كانت تخضع للدولة الرستمية بتيهرت لما وجد هؤلاء من يستقبلهم أحسن استقبال ! وهو ما اشار إليه ابو زكرياء في قوله " فأدخلوه وأكرموه وأحسنوا القيام به " كما أن الأحداث التي مرت بها سدراته ، لم تكن لتؤدي إلى هجرتها وزوالها . فالمتمعن جيدا لأنقاضها وما أسفرت عنه نتائج الحفريات السابقة ، يلاحظ أن آثار التخريب لا تظهر بالدرجة التي تناقلتها المصادر أو المراجع ، بل نعتقد أنه وصف مبالغ فيه ، لأن الحياة العلمية تواصلت بسدراته ، يشهد عليها أسماء الأعلام المنتسبين إليها نضع في مقدمتهم الشيخ سليمان بن ابراهيم بن بانوح (293-407هـ/905- 1016م)[2]. ولذلك فإننا نرى أن العوامل الطبيعية

---

[1] 21- Ibn khaldoun . Histoire des berbères.... t3 p.275.

[2] بابا عمي (محمد موسى) " سدراتة محاولة بيو -سيليوغرافية "، سدراتة ، الأيام الدراسية الأولى حول سدراتة ، مديرية الثقافة لولاية ورقلة بمشاركة جمعية سدراتة وجمعية الوفاق ، دار الثقافة من: 23 أفريل 1997 ، ص ص 58.45 كذلك J. Lethilleux, Ouargla p.24

كانت من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى هجرة المدينة ، فلقد قلت الموارد المائية والنباتية وحلت محلها العواصف الرملية ، مثلما حل بقصر سيدي راشد بوادي ريغ .

أما بالنسبة لتسميتها فإنه من المرجح جدا أن تكون قد اشتقت من قبيلة سدراته البربرية . وفي هذا الصدد يذكر الشيخ أعزام ، " أن بلاد سدراته منسوبة إلى شعب من شعوب البربر من بطون زناتة وهي بلاد كثيرة يسكنها معتنقو المذهب الإباضي قديما ، ولم يترحلوا عنها إلا بعدما خربها يحي بن إسحاق الميورقي المعروف بابن غانية سنة 624 هـ عند ثورته على الأمير يعقوب بن المنصور أحد أمراء الموحدين كما كان بيان ذلك في محله ، وبقيت البلاد إلى الآن خرابا "[1]

والجدير بالذكر أن تسمية المدينة باسم سدراته غالبا ما كان مقرونا بكلمة ورجلان ولم يرد منفردا في المصادر التاريخية ، وهو ما يدل على التلاحم والترابط بينهما ليس من الجانب العمراني فحسب بل تعداه إلى أبعد من ذلك . وفي هذا المضمار يقول ه.دوفيري (H.Duveyrier) " أن التاريخ السياسي لسدراته في الفترة الاسلاية لا يمكن فصله أبدا عن جارتها القوية ورقلة "[2] ت.ليفيسكي (T. Lewicki) أن وجود

---

[1] بابا عمي (محمد موسى) " سدراتة محاولة بيو-سيليوغرافية "، سدراتة ، الأيام الدراسية الأولى حول سدراتة ، مديرية الثقافة لولاية ورقلة بمشاركة جمعية سدراتة وجمعية الوفاق ، دار الثقافة من:23 أفريل 1997 ، ص ص 58.45

[2] -H.Duveyrier, Isedraten et le schisme ibadite », Revue d'Ethnographie, T2, Paris 1883, p.203

مدينة سدراته لم يرد في المصادر الإباضية إلا في فترة متأخرة عن الفترة التي عاش فيها الشيخ أبو يعقوب يوسف بن النفاث (1048/1049م)[1].

ثالثا : سدراته من خلال الرحلات الإستكشافية والأبحاث والدراسات الأثرية

1- سدراته من خلال الرحلات الإستكشافية:

كانت منطقة ورقلة بصفة عامة محل اهتمام العديد من الرحالة الأجانب منذ المنتصف الثاني من القرن التاسع عشر . فلقد قام البعض منهم، رفقة بعثات عكسرية ، برحلات استكشافية كان الهدف منها البحث عن الأطلال الرومانية أو أغراض علمية أخرى تتعلق مثلا بالري أوالفلاحة أوالجيولوجيا أو الطب أو في إطار الحملات التبشيرية وغير ذلك من الأغراض الأخرى[2] . لذا فإن ما أنجزوه من أعمال تعتبر مهمة من الناحية العلمية بالنسبة لمجالات تخصصها ، كما تعد مرجعا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنها بالنسبة لدارسي المنطقة على

---

1 - T. Lewicki, Etudes maghrébines et soudanaises, p. 84. يمكن أن يراجع ما كتبه الباحث بوراس يحي حول أسماء الأماكن من خلال المصادر الإباضية . بوراس يحي ، قرى وأسماء مواضع في إقليم وارجلان من خلال ثلاثة مصادر تاريخية ، حوليات المتحف الوطني للآثار ، العدد 10، 2001، ص.90-115

2 -للتعرف أكثر حول تلك الزيارات انظر : دنيس بيلي ، معالم لتاريخ ورقلة ، 1872-1992 ، ترجمة علي ابدو ، حوار كوم 1995 .

اختلاف ألوانهم ، فهي تزود الباحث الأثري مثلا بمعلومات حول موقع أو أثر ما يكون قد زال أثره منذ وقت طويل أو تعرض إلى تغييرات قد تكون أحيانا جوهرية تفقد المعلم أصالته . وقد كان لهذه الدراسات دور لا يستهان بها في التعريف بمدينة سدراته بوجه عام ، وفي التعريف بعمارتها وفنها على وجه الخصوص . ومن بين هؤلاء المستكشفين نذكر ما يلي :

أ- بربرجر (A.Berbrugger) (1857م):

تدخل رحلة هذا المستكشف فيما يمكن أن نسميه دراسة المنطقة من جميع جوانبها تمهيدا للسيطرة عليها . وتدخل أيضا ضمن ما نسميه البحث عن الأطلال الرومانية والتي كانت تعد من بين اهتمامات المستعمر ، ليثبت بذلك انتماء المجتمع إلى هذه الحضارة ، خاصة وأن المنطقة لم تكن خاضعة آنذاك إلى الاستعمار الفرنسي [1] . وأعتقد أن عدم إقامة هذه الفرق العسكرية التي كانت تضم بين صفوفها مجموعة من الباحثين في المنطقة كانت أيضا سببا مباشرا في عدم إتاحة الوقت لهذا المستكشف من زيارة مواقع أخرى. علاوة على ذلك فإن اهتمام بربريجر كان بالدرجة منصبا على إيجاد تلك البقايا الأثرية العائدة إلى ذلك العهد . ويؤكد اهتمامه هذا قوله : " لقد زرت بكل عناية جنوبنا

---

[1] - تمكن المستعمر الفرنسي من احتلال مدينة ورقلة في 05 جانفي 1872 على يد الجنرال لاكروا فوبوا (Lacroix Vaubois)

الشرقي ، كبيرا وصغيرا ، غير أنني لم أعثر على بقايا مبنى واحد يعود إلى الفترة الرومانية [1]. وعلى هذا الأساس لم يعر بربريجر اهتماما كبيرا للآثار الإسلامية ، ويبدو أنه لم يكلف نفسه عناء البحث أو الاستقصاء عنها .

ب- ه.دوفيري (H.Duveyrier) (1859 - 1861م):

لم يتمكن هذا الرحالة من زيارة الموقع الأثري للمدينة نظرا لقصر المدة التي قضاها هناك ، ورغم ذلك لم يدع زيارته تضيع هباء ، فلقد عوض هذا النقص بأعمال تاريخية حول الإباضية والتاريخ السياسي-الديني لسدراته بعد حصوله على مخطوطين حسب قوله [2].

ج- ل.فيل (L.Ville)(1861م) :

تدخل الرحلة التي قام بها ل.فيل فيما يعرف آنذاك بالرحلات الاستكشافية العلمية . ونظرا لتخصصه العلمي فإنه لم يعر اهتماما لأطلال المدينة ، بل صب اهتمامه على دراسة المياه الجوفية الموجودة بوادي مية ، ودراسة الآبار المحلية ، منها عين الصفا الواقعة غرب المدينة . وتعد هذا العين من بين العيون الشهيرة التي كانت تزود مدينة سدراته بالمياه الصالحة للشرب ، ومنها شربت فرقة المهندس ه. طاري أثناء عملية التنقيب التي قام بها .

---

[1] A.Berbrugger ,1857-58, Observations ...,pp.299-300

[2] H.Duveyrier , Isedraten ...,p.203)-

ي- ل.ش.فيرو (L.Ch.Feraud)(1871- 1872م):

بحكم عمله كمترجم للسلطات الفرنسية تمكن هذا الأخير من تحقيق وترجمة بعض المخطوطات كان قد تحصل عليها أثناء إقامته بورقلة ما بين سنتي 1871م و 1872م . وتعد تلك المخطوطات من أهم الوثائق المتعلقة بالمنطقة حيث تطلعنا على ما كانت عليه إبان فترة الازدهار والرخاء .

هـ- ف. لارجو (V.Largeau)(1872- 1879م):

إن المدة الزمنية المقدرة بحوالي سبع سنوات سمحت لهذا الرحالة من التعرف عن كثب على بقايا مدينة سدراته ومن أهمها البيوت والمسجد الجامع ووصف بعض القطع الجصية المزخرفة . ولم يكتف لارجو بالبحث عن سدراته فحسب بل قام بعملية مسح شاسعة ، يتجلى ذلك من خلال ما أورده بقوله " إن منخفض وادي ماية والذي قمت بالتحري فيه وعلى امتداد 132كلم طولا، كان فيما مضى قرى مزدهرة وحدائق خلابة . ولقد ترك لارجو وصفا دقيقا لنماذج من بيوت المدينة ومجموعة من الأشكال حول الزخارف التي شاهدها .

2- التنقيبات والدراسات الأثرية :

2- 1- التنقيبات :

اجريت عدة تنقيبات أثرية بمدينة سدراتة مع نهاية القرن 19م .إلا أن ما يؤخذ على البعض منها انها لم ترق إلى المستوى المطلوب من حيث

التنظيم والمنهجية العلمية . ومع ذلك فقد ترك هؤلاء الباحثون الذين تعاقبوا على المدينة أسماءهم مسجلة في تاريخها ، وكل من أراد معرفتها يجد نفسه مجبرا على الرجوع إلى ما دونوه في مختلف الدوريات ومن بين هؤلاء نذكر ما يلي :

أ)- أعمال المهندس هـ . طاري (**H.Tarry**) **1881**م [1] :

كانت المدة التي قضاها المهندس طاري بمدينة سدراتة قصيرة جدا ، إلا أن نتائجها كانت جد مثمرة . ولقد اكتشف هذا الباحث جزءا من بيت للصلاة مغطاة بعشرين قبو مربع الشكل ،يتكون من ثلاثة صفوف وأربع دعامات . كما عثر على بيت يحتوي على ست غرف وجرار لحفظ التمور والقمح ، ووجد عين الصفاء التي كان يشرب منها عماله الثمانون آنذاك . وأهم ما لفت انتباه طاري هو مجموعة الغرف المكتشفة في الجهة الشمالية من المدينة والذي يعتقد بأنه قصرا حيث يقول: " لقد اكتشفت قصرا بأتم معنى الكلمة ، لأن جدرانه كانت مكسوة بزخارف... وفي أسفل ذلك الزخارف ترك المعماري توقيعه.ولقد حاولت إعادة نقله بطريقة الختم ولكنه إندثر ... كما عثرت على قاعة يبلغ طولها حوالي 4,50 م وعرضها 2,50م تزينها عناصر زخرفية ... " ويضيف طاري قائلا " لقد أرسلت ما يقرب من حمولة

[1] - -كان المهندس طاري مفوض لدى وزارة المالية آنذاك . وتدخل حملته في نطاق ما يسمى بالاستكشافات العلمية . وكان الهدف من وراء هذه الحملة إعادة إحياء قرى وادي ماية على الخصوص .

جملين من القطع الجصية المزخرفة إلى مدينة الأغواط ليتم نقلها إلى كل من متحف الجزائر العاصمة ومتحف قسنطينة ومتحف تروكادرو بباريس". مع العلم أن حمولة جمل واحد تفوق 150 كلغ. وبالإضافة إلى ما اكتشفه هذا الباحث، فلقد تمكن أيضا من وضع خريطة مفصلة (ذات مقياس 1/100 000) للمنطقة، وتحصل على مخطوطين من شيخ نقوسة يضمان معلومات تاريخية حول مدينة سدراتة. لكن هذه الثروة الهائلة التي تحدث عنها طاري ضاعت ولم يبق من آثارها سوى ما سجله في مجلة (Revue d'Ethnographie) لسنتي 1883- 1884

ب) - أعمال بول بلانشي **1898**م

تركزت أعمال بول بلانشي حول المباني الذي أشار إليهم هـ. طاري، كالمحكمة أو القصر ثم الجامع. وكان من نتائج هذه الأعمال أن تم اكتشاف حوالي أربع وثلاثين حجرة وحوالي 60م^2 من الزخارف الجصية الهندسية منها والنباتية والكتابية. وقد أفرد لهذا القصر وصفا بالغ الأهمية يدل على غنى هذا المعلم من الناحية الفنية. ومن بين ما جاء في وصفه: "هنا تم العثور على قصر: يتوسطه فناء تزدان جدرانه بزخارف جصية وتطل عليه خمس غرف هي الأخرى محلاة بزخارف، إحداهما مغطاة بقبو متقاطع تكسوها زخارف نباتية قامها زهرات متعددة البتلات أما الغرف الأخرى وعلى مسافة مترين من الأرضية غطيت جدرانها بأشرطة عناصرها وريدات وتشبيكات

زخرفية .. وعلى مسافة غير بعيدة من هذه الغرفة ، يوجد العديد من اللوحات الجصية وأطر الأبواب وتيجان أعمدة كلها مزخرفة .. إن من نفذ هذه الزخارف هم فنانون مهرة "[1] . كما اكتشف جزءا من المسجد وبيت يحتوي على أقواس وأعمدة . وبالإضافة إلى ذلك فقد التقط مجموعة من الصور تعتبر من الوثائق الفريدة حول مدينة سدراتة ، خاصة وأنها شملت بعض النماذج من الزخارف الجصية للقصر كالكتابة مثلا وزخرفة مدخله الرئيسي .

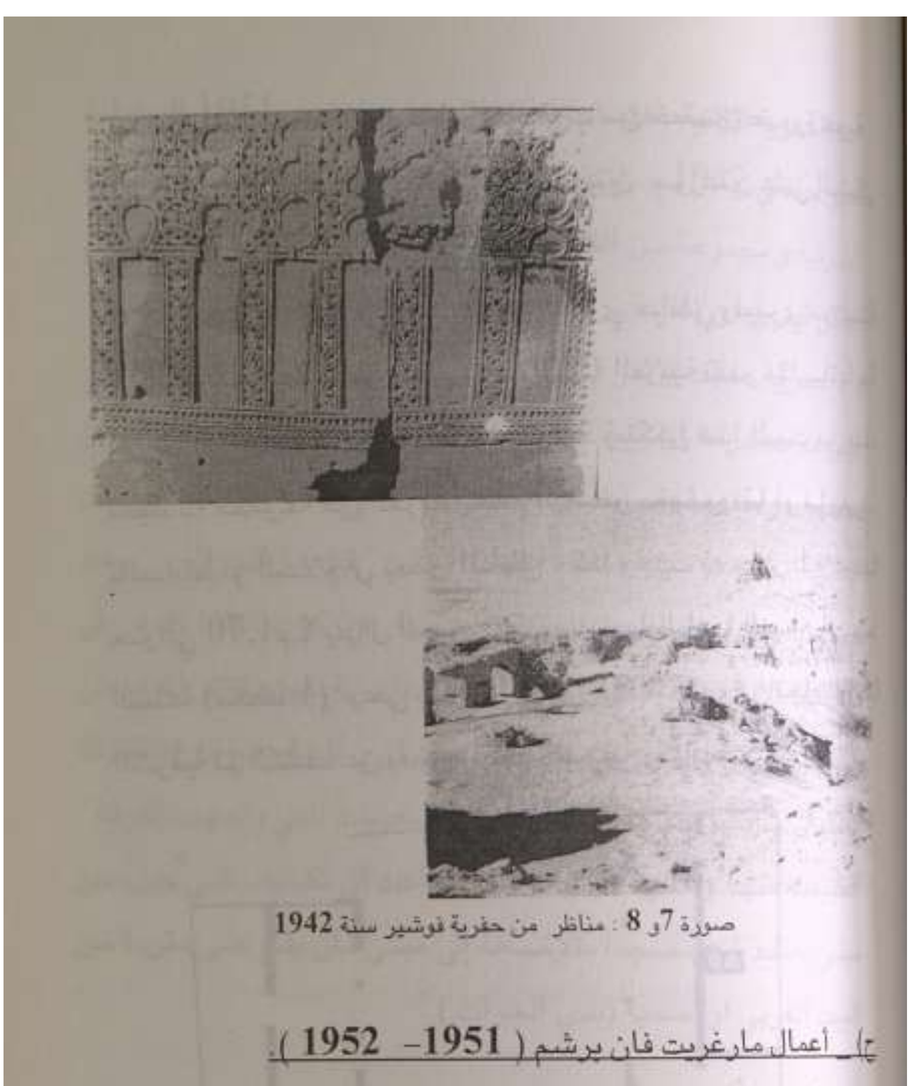
ج) __ حفرية فوشيـر **1942**م.

لم تدم حفرية فوشي بمدينة سدراتة طويلا ، ومع ذلك فإن النتائج المحصل عليها خلالها تعتبر مفيدة للغاية . فلقد تمكن هذا الباحث من وضع مخطط لبعض أجزاء المبنى المعروف بالقصر أو المحكمة ،وكذا وضع مخطط جزئي لمسجد المدينة [2] . وبالإضافة إلى ذلك فقد التقط صورا لبعض مباني المدينة كانت إلى عهد قريب تعتبر من الوثائق النادرة لمدينة سدراتة (صورة 7 و 8).

---

[1] - BLANCHET, P *"Les villes mortes du Sahara"* , Supplément de le Tour du Monde, 25 Juin 1898, p.203

[2] - أشارت إليه مارغريت فان برشم في مخطوطها المعهد لإنجاز عمل علمي حول المدينة ، لكن للأسف لم ير هذا العمل النور بعد .



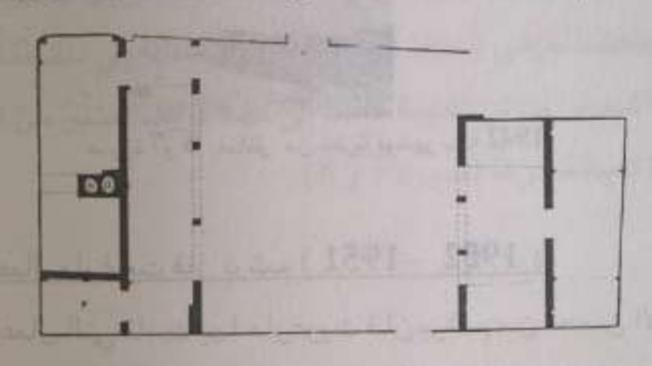
صورة 7و 8 : مناظر من حفرية فوشير سنة 1942

ج)_ أعمال مارغريت فان برشم (1951- 1952).

تعد الأعمال التي قامت بها مارغريت فان برشم من أحسن الأعمال التي أجريت بمدينة سدراتة ، لكونها اتسمت بالطابع العلمي . ولقد قامت هذه الباحثة بجولة استطلاعية خلال شهري مارس و أفريل من سنة 1950م ، تمكنت خلالها من تحديد اتجاه المدينة ، وتقدير

مساحتها بالإضافة إلى التقاطها ما يقرب من خمسين صورة جوية.
وتلت هذه الحملة الاستكشافية حفريتين موزعتين على الشكل التالي:

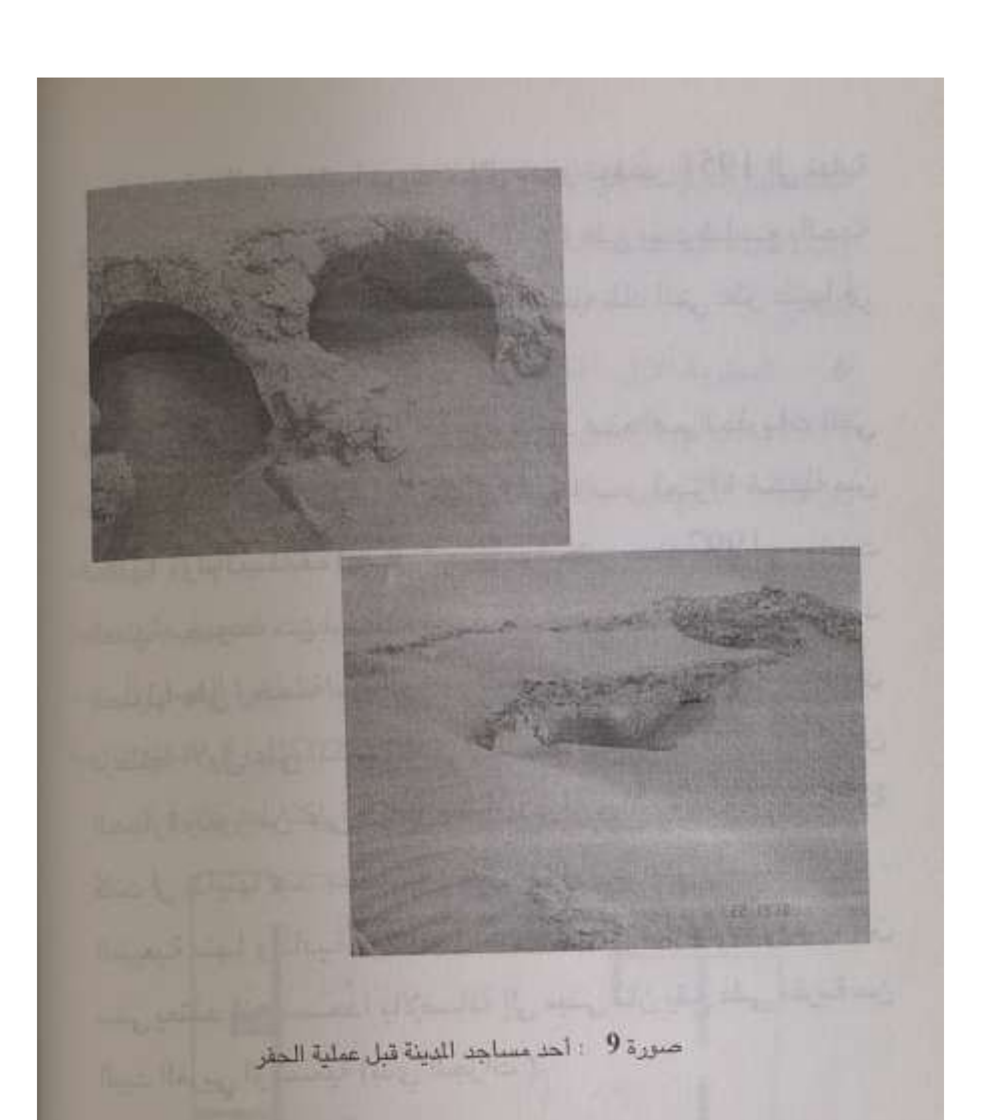
❖ - الحفرية الأولى : قامت بها في شهري جانفي وفيفري من سنة 1951م ، تم فيها العثور على بيت بالجهة الغربية تقدر مقاساتها ما بين 18- 20م طولا و8- 10م عرضا . ويتكون هذا البيت من فناء تحيط به مجموعة من الغرف يتقدم البعض منها رواقا أو ما يعرف بالساباط أو السلام في بعض المناطق . كما وجدت به جرار بلغ عمقها حوالي 1,70م لا يزال الجزء العلوي منها ظاهرا للعيان إلى حد الساعة (مخطط 1). وعلى بعد 700م من هذا المكان وفي اتجاه الناحية الشرقية تم الكشف عن بعض القطع الجصية وكتابات كوفية



مخطط 1: البيت و الجرار في الجهة الغربية من المدينة

- الحفرية الثانية : فقد أجريت خلال شهر نوفمبر 1951 إلى نهاية شهر جانفي 1952م ، أزيح التراب أثناءها على بيت شاسع بالجهة الشرقية و مجموعة من القطع الجصية تشبه تلك التي عثر عليها في اماكن أخرى من المدينة .

د- حفرية معهد الآثار (**1997**م): كانت هذه أهم الحفريات التي اجريت بسدراته الأثرية ، وإن كان أغلبها مس أجزاءا ضئيلة من معالمها ، ولم تستأنف أعمال الحفر بها حتى سنة 1997م . وتبنت العملية مجموعة من أساتذة معهد الآثار- جامعة الجزائر- بعد حصولها على رخصة من الوزارة الوصية . وتركزت عملية الحفر في مرحلتها الأولى على المكان الأكثر ارتفاعا بالمدينة حيث تتناثر أكوام من الحجارة وتبرز من على الرمال بقايا جدران و أقبية ومع أن الانطلاقة كانت في بدايتها جد محتشمة نظرا للصعوبات التي واجهت الفرقة ، الطبيعية منها والمادية ، إلا أنها استطاعت أن تكشف على جزء من مبنى يعتقد أنه مسجدا بالإضافة إلى مبنى ثان يقع على مقربة من البيت الغربي أو نسميه (بذي الجرات).



صورة 9 : أحد مساجد المدينة قبل عملية الحفر

2- 2 الدراسات :

إن الزخارف الجصية المكتشفة بمدينة سدراته لفتت منذ وقت مبكر انتباه عدد من الباحثين مثلما تزال تشد انتباهنا إلى غاية اليوم. وأول من يمكن الإشارة إليه هو الباحث هـ. صلدان (H.Saladin) سنة

1907م في كتابه : Manuel d'art musulman ,t1,p.236. حيث تناول بالدراسة فن مدينة سدراته . غير أن المعطيات الأثرية التي اعتمد عليها هذا الباحث كانت جد ضئيلة نظرا لقلة الأبحاث الأثرية آنذاك .
ويلي ذلك الباحث ج.مارسيه الذي تناول هذا الفن في مؤلفاته أهمها : Album de pierre et bois sculpté . fasc.I. 1909.pp.3-4. وكذلك : Manuel d'art musulman ,t1,1926,pp.85-93. وكذلك : L'Architecture musulmane d'Occident ,1954,pp.58-61. ويعتبر هذا الباحث أول من قام بدراسة تحليلية نوعا ما حول فن مدينة سدراته ، وإن كانت نظرته لا تختلف عن نظرة الدراسين الغربيين للفن الإسلامي القائمة على إرجاع أصل هذا الفن إلى الفن المسيحي والقبطي ...الخ . وتبع هذا الأخير الباحثة مارغريت .ف. برشم بنشر العديد من الدراسات وإن كان أغلب دراساتها تناولت أهم الحفريات التي قامت بها وأهم ما أسفرت عنه من نتائج .
كما لا يفوتنا أن ننوه بالمجهودات التي قام بها أستاذنا الفاضل الدكتور رشيد بورويبة ، مساهمة منه في إعادة إحياء هذه المدينة والتعريف بها بين أوساط مجتمعنا وذلك بإصدار العديد من المقالات والمراجع خص فيها بالحديث عن جانب من جوانب المدينة ، الجانب العماري والجانب الفني .

إن هذه الإسهامات التي ذكرت آنفا حول مدينة سدراته هي في الواقع جد ضئيلة مقارنة بالدراسات التي تناولت فنون مدن إسلامية أخرى .

رابعا : الزخرفة الجصية بمدينة سدراته(مصارها ومواطنها ومميزاتها وتركيباتها):

إن عمليات التنقيب المتتالية التي أجريت حول مدينة سدراته وتم الكشف خلالها عن بعض البيوت السكنية ذات أحجام ومميزات مختلفة ، أسفرت كذلك عن وجود قطع جصية في غاية من الأهمية خاصة من الناحية الفنية . ويقول بشأنها كل من هـ طاري وب بلانشي : 'إن جدران القصر ذو الأربع والثلاثين حجرة (أي ما يقارب 60م2) كانت تغطيها زخارف جصية هندسية ونباتية وكتابية ' ويضيف طاري أنه بعث بالعديد منها إلى متحف تروكادرو بفرنسا [1]

لفتت هذه القطع أنظار الباحثين – أمثال هـ صلادان وج . مارسي ول.قولفان و.م.فان برشم ود.ر.بوروبية وغيرهم –ولقيت صدى كبيرا بين أوساطهم ، لما تحويه من زخارف جد متنوعة وفي غاية الدقة والإتقان رغم بساطة أسلوبها ، ولكونها جلبت من موقع يبدو وكأنه بعيد ، من حيث المسافة ، عن المراكز الحضارية المعروفة آنذاك . غير أن تلك الدراسات التي تمحورت حول فن مدينة سدراته لم تكن في

[1] -قد تكون القطع التي تحدث عنها طاري هي تلك التي كانت محفوظة بمتحف الفن الأفريقي والفوقي بباريس .

المستوى المطلوب من حيث التحليل . فلقد حاول كل باحث من هؤلاء الباحثين إرجاع تلك العناصر الزخرفية إلى مصادر غير إسلامية كالرومانية والبيزنطية والقبطية ، فهم بذلك تجاهلوا شخصية الفنان السدراتي المسلمة الذي كان يعيش في مجتمع يؤمه ويقصده العلماء من المناطق المجاورة مثلما تناقلته المصادر الإباضية ، وتجريده من محيطه الموجود به ، والذي كان فيما مضى حدائق وبساتين وأشجار وارفة الظلال ومياه تنساب فوق سطح الأرض تسقي تلك الحدائق الغناء . كما نلفت الانتباه أن هذه الإسهامات المذكورة آنفا حول فن مدينة سدراته ، تعتبر في الواقع جد ضئيلة مقارنة بما عرفته بعض المدن الإسلامية ، وتخلوا نوعا ما من الدراسة التحليلية والمقارنة خاصة بين فن المدينة والفنون الإسلامية الأخرى، السابقة منها أو اللاحقة ، لمعرفة مكانته بين تلك الفنون وفي أي مجال تمكن إسهاماته ، وبالتالي إسهامات الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية .

والحقيقة أن هذه اللوحات وما تحويه من عناصر فنية هي في حد ذاتها تمثل الإشكالية الرئيسية للموضوع . كيف وجدت بهذه المنطقة الصعبة ومن هو منفذها ؟ هل كان للمراكز الإسلامية الأخرى كتلمسان وقلعة بني حماد والقيروان وسامرا وغيرها أثر في فن مدينة سدراته وإلى أي مدى كان ذلك وما هي هذه المراكز التي كانت قبلة للفنان ومصدر إلهام له ؟ هل كان تأثر الفنان السدراتي بمحيطه وأين يتجلى ذلك من هذه

الثروة الزخرفية الهائلة ؟ هذه إشكاليات تمثل المحور الرئيسي لهذه الدراسة ، وهو ما سنحاول الوقوف والإجابة عنه من خلال هذه الدراسة

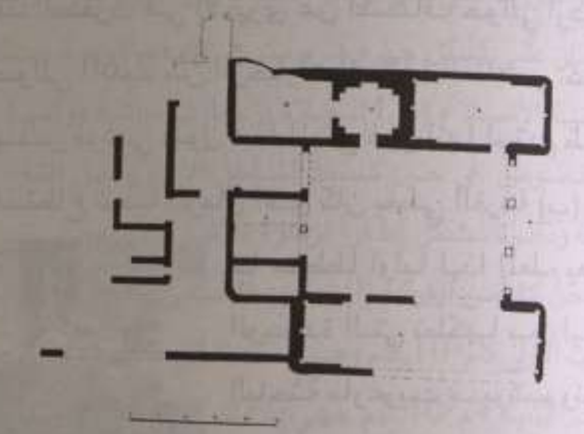
إن ما تجدر الإشارة إليه ، أن القطع الجصية المزخرفة والتي تم اكتشافها أثناء الحفريات المتعاقبة بمدينة سدراته ، جلبت كلها من معلمين اثنين ، وهما المبنى المعروف بالمحكمة والبيت الشرقي المحصن . وكلا المبنيين يقعان على طرفي المدينة ، في حين لم يعثر إلى حد الساعة على نماذج من هذه الزخارف في أماكن أخرى وهنا تطرح أمامنا عدة تساؤلات ، هل هناك مباني داخل المدينة تمت زخرفتها على نفس المنوال ولم تتمكن الحفريات من الكشف عنها ؟ وإذا ثبت عكس ذلك فلماذا اقتصرت الزخرفة على هذين المعلمين دون سواهما ؟ وهل أن المعلمين المذكورين ينتميان إلى نفس الفترة أم أنهما يعودان إلى فترة لاحقة قد تكون فترة اللاستقرار أو فترة ضعف وتفكك في مقومات المجتمع السدراتي وهوما نتج عنه عزوف عن التقشف والعودة إلى الترف وحب الحياة ؟

1- مصادر الزخرفة :

تم اكتشاف مجموعة كبيرة من القطع الجصية في مبنيين اثنين ، وإليهما تعود تلك الثروة الهائلة . فلقد أمدتنا بمعلومات جد قيمة حول الجانب الفني لمدينة سدراته . وقد كانت هذه الزخارف تكسو جدران

الغرف وتيجـان الأعمـدة والعقـود والحنيات الموجـودة في المنشـأين.
والملاحظ أن هذه الزخارف تتميز بوحدة الانتماء ، فهي شبيهة ببعضها
البعض فكأنما أصابع فنان واحد هي التي شكلتها .

أ- المبنى المسمى (القصر أو المحكمة) :



مخطط 2: المبنى المعروف بالقصر أو المحكمة في الجهة الشمالية للمدينة

يقع هذا المنشأ في الناحية الشمالية للمدينة .ويعتبر من أحسن ما وجد
بهذه المدينة نظرا لما احتواه من زخارف جصية كانت تكسو جدرانه
الداخلية لا يزال البعض منها في مكانه الأصلي .ولقد اكتشف هذا
المعلم من طرف هـ.طاري سنة 1881م حيث يقول بشأنه :"لقد اكتشفت
قصرا بأتم معنى الكلمة ، لأن جدرانه كانت مكسوة بزخارف وفي

أسفل تلك الزخارف ترك المعماري توقيعه ، ولقد حاولت إعادة نقلها ولكنها اندثرت . وفي الزاوية المقابلة للواجهة (أ- ب)، يضيف طاري ،تم العثور على قاعة تزينها عناصر زخرفية يبلغ طولها حوالي 4,50م وعرضها 2,50م أما الحفريات التي قام بها بول بلا نشي سنة 1898م فقد أسفرت هي الأخرى عن اكتشاف حوالي اربع وثلاثون حجرة وحوالي 60م2 من الزخارف المختلفة العناصر .كما تركزت أعمال المهندس فوشي حول هذا المبنى غير أنها لم تدم طويلا ،ومع ذلك فقد استطاع تنحية الرمال الذي كان يغطي الغرفة (ب) كما ترك لنا مخططا أوليا لهذا المعلم يعد الوثيقة الوحيدة التي نملكها بين أيدينا .أما الباحثة مارغريت ف.برشم ونظرا لعدم وجود الوقت الكافي لها ، فقد اقتصرت على إزالة الرمال عن الغرفة (ج)فقط [1].

يأخذ المبنى مخططا نوعا ما مستطيلا ، يحيط به سور سميك مدعم بأبراج مربعة



صورة 10 : زخارف موجودة حاليا بالقصر أو المحكمة

---

[1] -لمزيد من المعلومات حول هذا المعلم انظر : Marguerite .V.Berchem,Le palais de Sedrata dans le desert saharien Studies in Islamic art and architecture in Honour of Professor K.A.C.Creswell,American university in Cairo press,1965,pp.8-29.

تغمرها في الوقت الحالي كثبان رملية . أما من الداخل فهناك مجموعة من الغرف تفتح أبوابها على فناء مكشوف يتم الدخول إليه عبر من الجهة الشرقية مرورا بمدخل ذي إطار مستطيل يتراجع قليلا عن سمت الحائط . يتكون هذا المدخل من ثلاثة عقود حدوية الشكل أكثرهم اتساعا العقد الأوسط ترتكز بدورها على على أربعة أعمدة دائرية تقوم على قواعد مربعة وتعلوها تيجان على شكل جدع هرم بترت زواياه الأربعة مشكلة بذلك مثلثات منحنية الأضلاع (ش1)محلاة بزخارف نباتية قوامها زهرتان خماسيتا الفصوص .في حين كسيت المناطق الأخرى من التاج بزخرفة قوامها نخلة ودائرة تشكل إطارا لزهرة ثلاثية الفصوص .تتوزع على جانبي الصحن كل من الغرفة (أ)بجنوب الصحن والغرفة (ب) بشماله . تبلغ مقاسات الأولى 8م×2,10م وهي بذلك تفوق طول الفناء .. في حين تقدر مقاسات الثانية 4م×2,10م ،فهي إذ ذاك أقل من سابقتها من حيث المساحة ولكن تشبهها من حيث التخطيط العام .وقد كانت هاتان الغرفتان مغطاة بأقبية مهدية الشكل تنتهي في أطرافها الصغرى بحنيات تعلوها قبية صدفية الشكل ترتكز على عمودين مجدولين .وقد كانت الغرفة (ب)تحتوي في



صورة 11 : زخارف موجودة حاليا بالقصر أو المحكمة

مجنبتيها إيوانين يرتفعان عن مستوى الأرض بحوالي 20 إلى 30سم.

يزين جدارها الشمالي زخرفة من الجص يقدر طولها 2م قوامها بوائك تضم بداخلها زهرات على هيئة قلوب (صورة 11) . وبجانب الحجرة (ب) ، يوجد غرفة صغيرة (ج) مربعة الشكل مقاساتها 2م×2م2 ومحاطة بأربعة عقود نصف دائرتي الشكل ، يحتمل أنه كان يقوم عليها قبو متقاطع . ولقد حافظت هذه الغرفة على جزء كبير من زخارفها خاصة بالجدار الشرقي ويبلغ طولها 3م



صورة 11 : زخارف موجودة حاليا بالقصر او المحكمة

وعرضها 1,60م وتتشكل هذه الزخارف من غصون ملتوية ومربعات تحيط بأوراق خماسية الفصوص ودوائر متشابكة (صورة 10) . أما الجدار الشمالي والذي اندثرت معظم زخارفه ففتحت به حنية عرضها 68سم يصعد إليها بدرجة يبلغ علوها حوالي 20سم (صورة 12) . تؤدي هذه الأخيرة أي الغرفة (ب) ومن الجهة الغربية ، مرورا بقوس عرضه 1,60م ،إلى قاعة أخرى (د) ذات تخطيط غير منتظم ولا تحتوي على منفذ يطل على وسط الدار .

اما في الجهة المقابلة للمدخل الرئيسي يوجد رواق (هـ) يؤدي إلى مجموعة من الغرف لم تكتشف بعد . ويحد هذا الرواق من الجهة الجنوبية الغربية غرفة (و) يبدو أنه كان يدخل إليها بواسطة بائكة تتكون من عقدين كما يبدو أيضا أنها كانت مغطاة باقبية متقاطعة .
ومما يلاحظ أن الغرف الثلاثة الأولى (أ- ب- ج) كانت

زخارفها غنية ومتنوعة اشتملت على الزخارف الهندسية المتمثلة على وجه الخصوص في الدوائر المتداخلة والمتماسة والبوائك المتقابلة ،والزخارف النباتية تتمثل في ورود على هيئة قلوب ومراوح وأنصاف مراوح وأشجار النخيل المستقاة من بيئة الفنان وأخيرا الزخارف الكتابية .

صورة 12 : حنية ركنية وزخارف جدارية

ب- البيت ذو التحصينات :

يقع هذا البيت على في الناحية الشرقية للمدينة وسط بقايا الغابات (مخطط 3) ، حيث يبدو جليا اثار السواقي والفقارات المنطلقة من هذا المكان والمتجهة شمالا نحو مدينة ورقلة ،وشرقا في اتجاه رويسات ،وجنوب شرق في اتجاه قارة كريمة[1] . ولقد كانت محل اهتمام الباحثة مارغريت ف.برشم خلال سنتي 1951- 1952م حيث أجريت بها حفرتين ،دامت الأولى حوالي خمسة عشر يوما أما الثانية فبلغت مدتها حوالي شهرين . ولقد أسفرت هذه الأعمال على اكتشاف جزء معتبر من مكونات هذا البيت ،بالإضافة إلى كمية هائلة من القطع الجص المزخرفة والفخارية تزينها زخارف بسيطة وجرتين مختلفتي الأحجام ،صنعت إحداهما من الطين المحروق ويقدر ارتفاعها ب:1,70م وتحتوي على أربعة مقابض وغطاء . تحتوي بداخلها على بقايا عظام وقطع زجاجية . أما الثانية فكانت ذات لون تركوازي تنتهي في مؤخرة عنقها بظفيرة ، وهي ذات مقبضين ينتهيان ببروز معقوف .كما تم العثور على حلية من الفضة وأحجار لعقد امراة وقنوات لتصريف أو جلب المياه[2] .

---

[1] -انظر الصورة رقم 53 ، 54 ، 55 و56 من ملحق الصور .

[2] لمزيد من المعلومات حول هذا البيت انظر Marguerite.V.Berchem.Sedrata Un chapitre nouveau de l'histoire de l'art musulman.Campagnes de 1951et1952,Ars orientalis,t6,1954,pp.162 et sq.

كان البيت الشرقي جد فسيحا مقارنة بما اكتشف داخل المدينة ، حيث يبلغ طوله حوالي 50م [1]. يحيط به سور من الحجارة الضخمة غير المنتظمة ،يتراوح علوه ما بين 4م و5 م . يشغل الزاوية الجنوبية -الشرقية منه برج مربع الشكل (أ – من الجزء الأول)يتكون من غرف عديدة يصعد إليها بواسطة سلالم (أ1 وأ2 أ3 وأ4). تحتوي إحداهما على مطامير تقدر مقاساتها ب : 77سم ×70سم ،أما ارتفاعها فيقدر ب :53سم وسمك حوافها 12سم ،كانت مخصصة لحفظ الحبوب وهي في حالة جيدة . ووجد بالغرف الباقية آثار لقطع جصية وقطع فخارية وآثار الحرق وأفران للفخار وفك ضخم لحيوان يعتقد أنه لأسد

أما خارج السور فيوجد رواق (د)ترتفع أرضيته عن مستوى أرضية الداخل ،فتحت به غرف مستطيلة ومربعة الشكل (ب)تتصل فيما بينها بباب يعلوه قوس مخموس . عثر بها على مجموعة كبيرة من القطع الجصية المزخرفة وقطع فخارية ذات لون أخضر وأسود تزينها زخارف هندسية بسيطة وحنيات و مطامير لا تزال فتحاتها السفلية وسلمها في حالة جيدة آنذاك .

وعلى مسافة غير بعيدة تم الكشف على أحواض مائية ذات مقاسات مختلفة (ج)، وبقايا أقواس وأعمدة وأحجار طينية مفصصة وذات

[illegible] Deux campagnes de fouilles à Sedrata (1951-1952),Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes,t10,Alger,1953,pp.132 et sq.

[1] أنظر اللوحة رقم 9.

أسنان كأسنان المشط تشبه تلك الأداة التي تستغل إلى وقتنا هذا في تصريف المياه للفقارات. وبيسار الرواق يتم الدخول إلى ساحة فسيحة (هـ)تحيط بها غرف لم يتم التحفر بها. أما في الجهة الشمالية الغربية للسور فقد تم الكشف عن بيت متسع يضم غرف متنوعة ومتعددة، يبدو عليها آثار الترميم (الجزء الثاني من المخطط) يدخل إلى هذا البيت عبر مدخل منكسر تتقدمه سقيفة .فتح بيا في الجدار الشمالي الشرقي مدخل. غطى بقبو ويؤدي إلى غرفة مربعة (أ).وتحتوي هذه الأخيرة على حنية عميقة في جدارها الجنوبي، كما عثر بها على هيكل عظمي طوله 1,80م متجه إلى القبلة. ويقابل هذه الغرفة من الجهة الجنوبية قاعة ذات شكل غير منتظم (ب)وليس بها أي منفذ يؤدي إليها .وما يلاحظ على هاتين الغرفتين أنهما تعرضتا إلى عدة تغييرات تدل عليها القطع الجصية المعاد استعمالها بطريقة معكوسة واثار الأبواب المسدودة في وقت لاحق.

ويفضي المدخل المنكسر إلى صحن فسيح (د)،تشغل زاويته الجنوبية الشرقية غرفة صغيرة مربعة (ج) مقاساتها 1,14م×1,30م ،ويمكن الدخول إليها عبر بابين فتحتا في الجدار الشمالي والجدار الغربي تكتنفهما دعامتين صغيرتين. وما يلفت الانتباه في هذه القاعة هو العثور على محراب متجه إلى القبلة ،يبلغ ارتفاعه حوالي 1,40م وعرضه 51سم من القاعدة إلى بدية العقد ،ومن بدايته إلى نهاية

القوس 30سم . يمتاز المحراب بوجود رف من الحجارة يرتكز عليها عقد المحراب وتستغل في الوقت نفسه لأغراض أخرى .وبمحاذاة هذه الغرفة وبالجهة الغربية يوجد رواق لم تكتشف جميع أجزائه باستثناء بقايا دعامات مدمجة في الجدار (و).

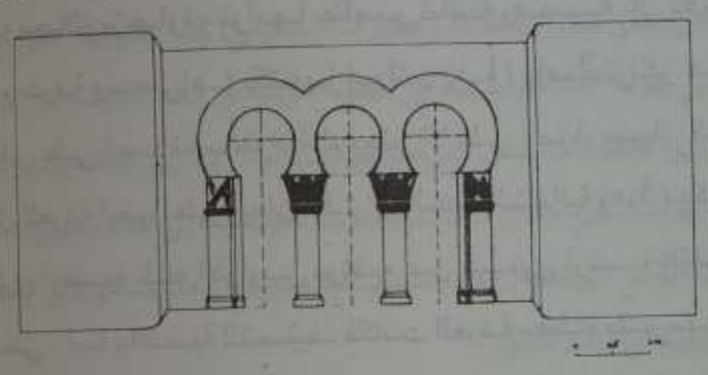
وفي الجهة الشمالية للصحن تم الكشف على غرفة كبيرة مستطيلة الشكل تبلغ مقاساتها 9م×2,10م وتطل على الصحن بباب فتح في الجدار الجنوبي للغرفة . تنقسم هذه الغرفة ،بواسطة أقواس نصف دائرية محلاة بزخارف قوامها عناصر نباتية وهندسية ،إلى ثلاثة أقسام ،غرفة وسطى(هـ) يكتنفها إيوانين (هـ1) و(هـ2 ترتكز هذه الأقواس على أعمدة أسطوانية لم يعثر إلا على أجزاء منها . كما تشتمل الغرفة أيضا على إيوان ثالث في الجهة الشمالية (هـ3) وكان مستوى أرضية تلك الأواوين مرتفع عن مستوى أرضية القاعة الوسطى . أما بالنسبة للتسقيف فكانت الغرفة مغطاة بقبو مهدي الشكل ،تحلي أركانها الأربعة مشكوات شبيهة بتلك التي عثر عليها في القصر .كما تم العثور بنفس الغرفة على زخارف كتابية يحتمل أنها كانت تشغل الجزء العلوي لجدرانها .

وما تجدر الإشارة إليه ،أن الحفريات التي أجريت بهذا البيت لم تمس إلا الجهة الشرقية منها ،ومع ذلك كانت حصيلة الزخرفة المكتشفة ،

خاصة من القاعة (هـ)وملحقاتها ،قد بلغت الثمانية صناديق تم نقلها إلى الجزائر العاصمة .

2- مواطن الزخرفة :

إن الزخارف المتنوعة التي عثر عليها خلال عمليات التنقيب كانت تكسوا تيجان الأعمدة مثلما يلاحظ في المدخل الرئيسي للقصر او المحكمة (ش1)، وتغطي جدران بيوت المعلمين . والجدير بالذكر أن هناك نماذج حية لاتزال في أماكنها الأصلية . فلقد أسفرت عمليات



ش 1 : إعادة تصور مدخل القصر أو المحكمة مأخوذة من صورة لبول بلانشي (1898)

الجسات التي قمنا بها خلال السنوات الفارطة بالمبنى المشار إليه سالفا عن تغطية الجدار الشمالي الغربي للغرفة الكبيرة والغرفة المجاورة لها بلوحات فنية في غاية من الجمال تنم عن ذوق رفيع وتدل على مقدرة الفنان السدراتي على إنجاز مثل هذه الأعمال . كما اكتشف أيضا حنيات تعلوها

أقواس مفصصة . أما بالنسبة للمعلم الثاني فإنه لم يعثر على نماذج من الزخرفة في أماكنها الاصلية بل وجدت كلها متناثرة مع أكوام الحجارة والتراب الذي كان يغطي المبنى . ولكن الملاحظ أن القطع التي عثر عليها هناك كانت هي الأخرى تكسوا جدران الحجرات والأقواس ، ومن الأمثلة على هذا الأخير اكتشفت مارغريت فان برشم عقدا محلى بزخارف هندسية ونباتية وبنفس الأسلوب والطريقة المعروفة بالمدينة .

3- <u>المميزات العامة للزخرفة :</u>

إن القطع الجصية المكتشفة بالمدينة تؤكد بطريقة أو أخرى العلاقة المتينة بين مدينة سدراته وبقية المراكز الفنية الإسلامية الأخرى ، فهي تنم عن انتمائها للعالم الإسلامي دون شك أو ريب . ويتجلى ذلك من خلال النقاط التالية:

أ- تنوع العناصر الزخرفية بتلك القطع وميلها إلى عدم محاكاة الطبيعة ، وهي ميزة انفرد بها الفن الإسلامي لكونه استمد روحه من الدين الإسلامي الحنيف .

ب- الحرص على عدم ترك مساحات شاغرة دون زخرفتها . وهو ما يلاحظ في جدران المبنى المعروف بالقصر أو المحكمة (ش2).

ج- يلاحظ أن أغلب العناصر المستعملة في فن سدراته هي عناصر مكررة في أغلب اللوحات الجصية . غير أن هذا التكرار لم يؤثر سلبا على زخارف المدينة . فقد كان الفنان يفصل في المساحة الواحدة بين

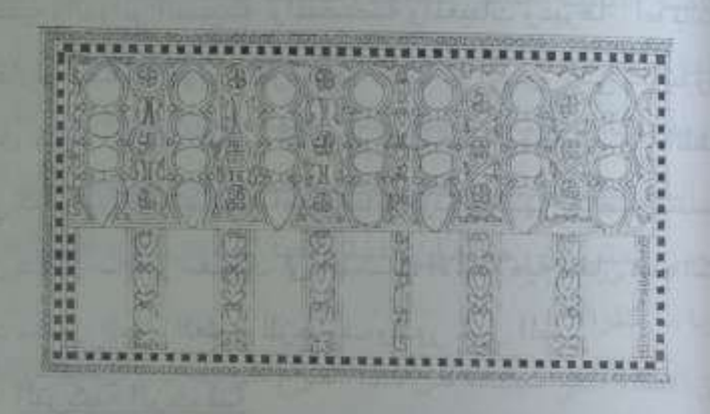
موضوع وموضوع آخر بأشرطة هندسية متنوعة وهو ما سمح له باستعمال نفس العناصر في مكان واحد دون أن يحس الناظر بهذا التكرار.

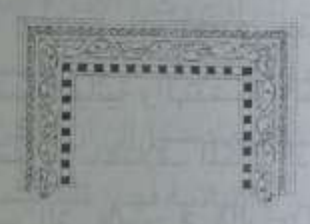
د- هي زخارف تزين جدران البيوت السكنية بالمدينة مثلما يشاهد في أغلب المدن الإسلامية، ومن جهة أخرى، فهي زخارف تدخل ضمن الإطار العام المتعارف عليه في الزخرفة الإسلامية، حيث تتكون بصفة عامة من العناصر النباتية والهندسية والكتابية وكذلك العمائرية. كما تمتاز

تمتاز زخرفة مدينة سدراته بأنها زخرفة بارزة على أرضية غائرة يبلغ عمقها حوالي ثلاثة سنتمترات، وفي بعض الأحيان تبدو العناصر الزخرفية وكأنها نفذت بطريقة القالب نظرا لجمالها وتناسقها والدقة المتناهية في أدائها. ومن الملاحظ أيضا أن الفنان السدراتي كان يلجأ إلى تغطية الجزء العلوي من الجدران الداخلية في حين يترك الجزء السفلي شاغرا تزينه أحيانا أطر الأبواب، وهو ما يعطي جوا من الراحة لعين المشاهد. كما كان يميل قدر المستطاع إلى الهروب من التكرار حتى لا يبعث الملل في نفس الناظر. فقد قسم لوحاته إلى أقسام كل واحد منهم يحتوي على عناصر تختلف عن الآخر تحدهم أشرطة ذات زخارف هندسية تشكل في نفس الوقت الإطار العام للعناصر الرئيسية. وعلى الرغم من حرص الفنان على عدم ترك

الفراغ في لوحاته فإن الملاحظ لا يدرك بأن هناك اكتظاظ بل بالعكس نحس في زخرفته تنوع وتوازن ورقة وتعبير .

يحتل كل نوع من الزخرفة المكان المخصص له حسبما هو معروف في الفن الإسلامي . فالزخارف العمائرية وإن كانت نادرة ، فهي لاتزال تقوم بدورها المعماري ، وتمثل عناصر هذه الزخرفة البوائك





ش 2: إعادة تصور لزخرفة جصية تغطي جدار أحد غرف القصر أو المحكمة وهي لا تزال في موقعها الأصلي مدفونة تحت الرمال

والحنيات والأقواس . أما العناصر النباتية فتشكل في أغلب الأحيان العناصر الرئيسية للزخرفة ونادرا ما كانت تملأ الفراغ ، حتى وإن وجدت فإنها اقتصرت على مراوح نخيلية وأنصافها . يحيط بالعناصر النباتية عنصر هندسي يختلف من مكان إلى آخر ، فلقد استخدم الفنان كل من المربعات العادية والمربعات المفصصة أو ذات الأضلع المنحنية والدوائر البسيطة والمفصصة والمعينات وغيرها . أما بالنسبة للزخارف الكتابية فهي نادرة جدا . فقد تم العثور على شريط واحد يحمل عبارة " بركة " مكررة ثلاث مرات مغطية بذلك مساحة القطعة . وهي كتابة كوفية تزينها عناصر نباتية وتحيط بها عناصر هندسية. ومن خلال ما هو معروف في المنشآت الإسلامية ، فإن هذه الكتابة كانت تشغل الجزء العلوي للزخارف وتدور حول المبنى .

4- التركيبة الزخرفية

تتكون زخرفة المدينة من العناصر المعروفة في الفن الفن الإسلامي بصفة عامة ، وهي العناصر النباتية والهندسية والكتابية والعمائرية. ولقد تعددت وتنوعت عناصرها باختلاف المكان الذي ستشغله . كما تنوع أداؤها فمنها العناصر التي ظهرت في قالب بدائي ينم عن ضعف في الأداء وعدم معرفة الفنان إلى ابسط القواعد الهندسية ؛ ومن العناصر ما ظهر في شكل جد راق يدل دلالة واضحة على مقدرة

الفنان ومهارته وحسه المرهف ، رغم البساطة الشديد التي بدا بها فن مدينة سدراته . ومن أهم الزخارف يلاحظ ما يلي :

أ- الزخرفة النباتية :

عرفت الزخرفة النباتية أوج ازدهارها في فن المدينة ، وتعتبر عناصر هذا النوع من المواضيع الرئيسية لتلك القطع الجصية . وتشغل العناصر النباتية أماكن متعددة ومختلفة حيث نجدها تملأ وسط المربعات المفصصة والدوائر وبنيقات العقود وأوجه التيجان . كما اتخذها الفنان بمثابة أشرطة ترتكز عليها بعض العناصر الأخرى . ومن النادر جدا أن نجد عنصرا نباتيا منفردا دون أن يحيط به شكل هندسي ، حتى إن وجد فإن الفنان لجأ إليه لملء الأماكن الشاغرة هروبا من الفراغ

ومن الأمثلة التي نجدها من هذا النوع الوريدات والأزهار المتعددة البتلات وأنصاف المراوح وكذا الأفرع النباتية . فبالنسبة للوريدات فلقد تنوعت تنوعا لا مثيل له فمنها البسيطة والمجردة عن الطبيعية ومنها ما أخذ شكلا هندسيا إلى أن تمكن الفنان من تشكيلها كما ينبغي . أما الأفرع النباتية فهي قليلةجدا ، ومحافظة على شكلها القديم ، أي شبيهة بما يعرف "بحرف السين اللاتيني" ، تنطلق منه مراوح نخيلية . كما استخدم الفنان عناصر أخرى مشعة تتمثل في أزهار ذات تسع بتلات وأحيانا يصل عددها إلى ما يربو الستة عشر

تنطلق من مركز واحد . كما لجأ الفنان أيضا إلى اتخاذ أشكال أخرى على هيئة قلوب بطريقة متقابلة ومتناظرة لتعطي في النهاية زهرة ثنائية البتلات . ولقد أبدع الفنان السدراتي في رسم هذه العناصر وأحسن أداءها مما يدل على مدى إدراكه بالقواعد الهندسية.

وما تجدر الإشارة إليه ، هو ذلك العنصر الجديد الذي ظهر فجأة بمدينة سدراته والمتكون من عدة بتلات وضعت على شكل مروحة تذكرنا بتموجات جريد النخيل . وتركز في وسطها على شريط بارز ومنحني السطح يوحي باستدارة جذع النخلة ، ولعل هذا ما يدل على تأثر الفنان بمحيطه الطبيعي .

ب- الزخرفة الهندسية :

يتمثل هذا النوع من الزخرفة في عناصر معينة ومعروفة كالدوائر والمعينات والمربعات المفصصة . وقد استخدمها الفنان السدراتي كما هي أو بطرق أخرى مختلفة للحصول على أشكال متنوعة ومتعددة . فبالنسبة للدوائر مثلا نجد منها الدائرة المفصصة وذات المركز الواحد أو المتعددة المراكز والمتماسة . أما المعينات فمنها ذات الأضلاع المستقيمة وهي ناتجة عن تقاطع وتوازي خطوط مستقيمة ، أو ذات الأضلاع المقعرة ، وتنتج هي الأخرى من تداخل بعض الأشكال الهندسية مثل أنصاف الدوائر .

أما بالنسبة للأشرطة ، فإن تقسيم اللوحات الزخرفية إلى عدة أقسام فرض على الفنان أن يتنوع فيها ، فاستخدم في ذلك الأشرطة الشبيهة بخلية النحل أو المكونة من دوائر صغيرة تحمل في وسطها ثقوب أو أشرطة تتكون من زخرفة أسنان المنشار .

والجدير بالملاحظة ، أن الزخرفة الهندسية تمثل في مجملها الإطار العام للزخرفة النباتية والتي تعتبر الرئيسية في زخرفة مدينة سدراته .

ج- الزخرفة الكتابية :

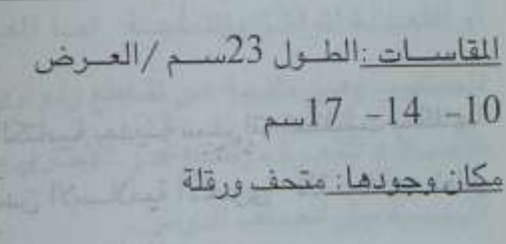
رغم وفرتها كما أشار إلى ذلك كل من هارولد طاري وبول بلانشي ، إلا أنه لم يتم الكشف خلال حفرية مارغريت فان برشم ، إلا على شريط واحد كتب عليه بخط كوفي مزوى كلمة " بركة ثلاث مرات تنطلق من بعض حروفها مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص ويحيط بها زخارف هندسية تتمثل في أشرطة ذات مكعبات وشبيهة بخلايا النحل . كما يحتفظ المتحف الوطني للآثار على قطعة صغيرة على شكل حرف التاء المربوطة .

ويلاحظ أن الزرفة الكتابية بمدينة سدراته احتفظت بمكانتها المفضل في بقية زخارف المدن الإسلامية الأخرى . فلقد كانت تعلو الزخارف النباتية والهندسية وتدور حول المبنى .

د- الزخرفة العمائرية :

باستثناء بعض القطع التي تحمل زخرفة بالبوائك فإن عناصر هذا النوع لا تزال تقوم بوظيفتها العمارية أكثر من الوظيفة الزخرفية عكس فنون الدويلات الإسلامية المغربية التي تأثرت بالفن الأندلسي تتمثل هذه العناصر في كل من المشكاوات والعقود والتيجان .

2- وصف بعض القطع الجصية



اللوحة رقم : 1

التسمية :قطعة جصية

المصدر : من المحتمل جدا انهـا جلبـت مـن البيـت المحصن ، الواقـع بالجهـة الشرقية للمدينة .

المادة:جص

المقاسـات :الطـول 23سـم /العـرض 10 -14 -17سم

مكان وجودها: متحف ورقلة



ش3: تحليل هندسي للزهرة المتعددة البتلات

الوصف:

تتكون زخرفة هذه القطعة من زخارف نباتية وهي الزخرفة الرئيسية باللوحة وزخارف هندسية متنوعة نوعا ما . تتمثل الزخرفة الرئيسية في زهرة كبيرة ذات ست عشرة بتلة يبلغ طول الواحدة منها 8سم وعرضها 3سم ، تتوسطها أخاديد يتراوح عمقها حوالي 1سم . يشغل مركز هذا العنصر زهرة ثانية أقل حجما من الأولى ، وهي تتكون من حوالي ثمان بتلات طول الواحدة منها حوالي 3سم و1,5سم عرضا ، يتوسط مركزها ثقب صغير . أما الزخارف الهندسية والتي تشكل الإطار العام للزخرفة الرئيسية فهي ممثلة في دوائر مفصصة يزينها أخدود . تتداخل فصوص الدائرتين فيما بينها بطريقة عكسية ، بحيث يشكل الجزء العلوي للبتلات قاعدة الفصوص المعكوسة للدائرة السفلية بينما تشكل العلوية الإطار العام الذي يحيط بالزخرفة النباتية والدائرة ذات الفصوص المقلوبة . يتراوح قطر هاذين الدائرتين ما بين 4,5سم و5سم ، في حين يقدر سمكهما بحوالي 1سم . يتخلل الفراغ الناتج عند تلاقي فصوص الدائرة السفلية وبتلات الزهرة مكعبات ذات ثقب غائر . تنتهي اللوحة في جزئها العلوي بشريط يشبه خلايا النحل يعلوه خطان متوازيان يبلغ سمكه 1سم وشريط يشبه أسنان المنشار ثم شريط أخر يتكون من حبيبات مكعبة الشكل .

اللوحة رقم :2

التسمية : جزء من قطعة جصية

المصدر:البيت المحصن الشرقي للمدينة

المادة: جص

المقاسات :الطول 1م15سم /العرض 46سم

مكان وجودها : متحف ورقلة

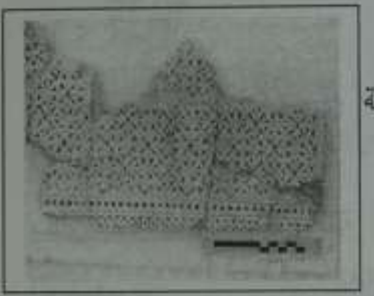


الوصف :

تتكون زخرفة القطعة من مجموعة من العقود المنكسرة الواحد تلو الآخر يبلغ قطر كل عقد حوالي 7،5سم ، مشكلة بائكة ترتكز على أخاديد غائرة وخطوط بارزة سمكها 0,5سم . يكسو المساحات الشاغرة المحصورة بين الأشرطة ووسط العقود مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص وضعت بطريقة أفقية ، الواحدة فوق الأخرى ، وينطلق من قاعدتها أغصان تلتف حولها . يشغل الفراغ الناتج عن الفصوص مكعبـــــــــــــــــــــــــــات ذات

ثقب ، ويعلو جميع الزخرفة شريط زخرفي لم يبق من آثاره إلا الشيء القليل .

اللوحة رقم :3



التسمية :جزء من قطعة جصية .

المصدر: البيت المحصن الشرقي للمدينة

المادة: جص.

المقاسات :طولها يتراوح ما بين 64 و71سم وعرضها 32,5سم .

مكان وجودها: متحف ورقلة

الوصف :يغطي مساحة اللوحة زخرفة هندسية ونباتية تبدو للرائي من بعيد وكأنها خطوط مائلة متداخلة فيما بينها بحيث ينتج عنها معينات يحدها أشرطة من الحبيبات الدائرية ومكعبات يفصل بينها شريطين متوازيين . قوام الزخرفة النباتية مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص ، ذات قواعد مشتركة . تتميز هذه المراوح بعدم محاكاتها للطبيعة .

اللوحة رقم: 4

التسمية: جزء من عقد

المصدر: البيت المحصن الشرقي للمدينة

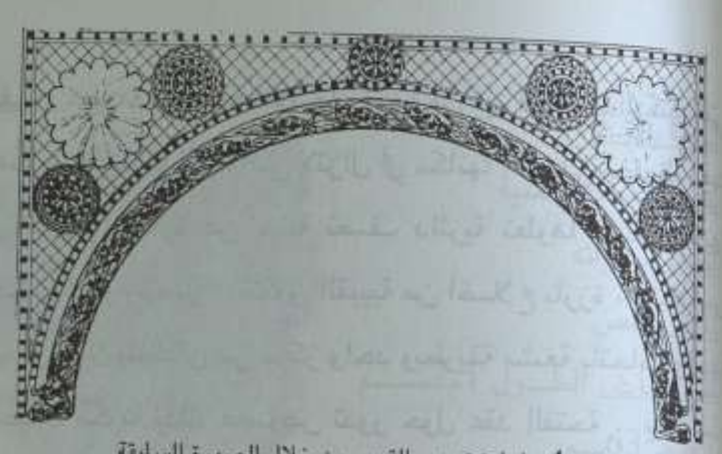
المادة: جص

المقاسات: الطول 78سم /العرض 7,5سم

مكان وجودها: متحف ورقلة

الوصف:

تمثل هذه القطعة ، في أغلب الظن ، جزءا من القوس الذي كان يزين أحد إيواني غرفة البيت الشرقي المحصن . وقد كانت تشكل الجانب السفلي منه . تكسو مساحة اللوحة عناصر زخرفة ، قوامها فرع نباتي يشبه حرف السين اللاتيني ينتهي في رؤوسه بمروحة نخيلية ذات فصين غير متناسقين . بينما تشغل انحناءاته مروحتين يبلغ طولها 5سم وتمتاز باستطالة فصها العلوي ، حتى لا يلاحظ فراغ في المساحة المخصصة لهذا الغرض .



ش 4 : إعادة تصور القوس من خلال الصورة السابقة



ش 5: إعادة تصور لحنية ركنية

اللوحة رقم :5

التسمية :حنية ركنية

المصدر:

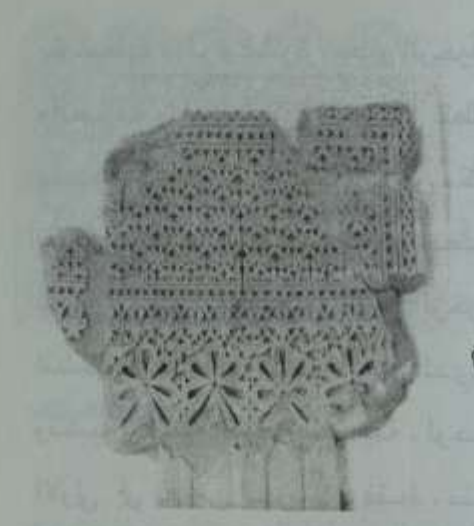
المادة: الجص

المقاسات :ارتفاع 77سم /العرض 73سم /العمق 41سم

مكان وجودها :مخزن المتحف الوطني للآثار

الوصف : تعد هذه الحنية نموذجا واحدا من بين الحنيات الركنية التي اكتشفت بمدينة سدراته أوالتي لاتزال في مكانها الأصلي محفوظة تحت الرمال ، وهي عبارة عن حنية نصف دائرية تعلوها قبيبة وتحليها زخارف نباتية وهندسية . تتكون القبيبة من أضلاع بارزة ، مشكلة من خطين متوازيين ينطلقان من مركز واحد وبطريقة مشعة باتجاه الواجهة الخارجية ، مكونة بذلك فصوص تدور حول عقد الفتحة . يعلو هذه الزخرفة شريط هندسي يتكون من عقد متلاصقة فيما بينها ، الواحدة تلو الأخرى ، ويلتف حول فتحة الحنية بما فيها الجزء السفلي . ويحيط بهذا العنصر إطار مستطيل الشكل نفذ بطريقة بسيطة ، أي عبارة عن خطين متوازين يفصل بينهما أخدود . وقد نتج عن كلا الشريطين فراغ يشبه بنيقات العقد ، تمت زخرفته بزهرة صغيرة محاطة بدائرتين ملتصقتين بواسطة مكعبات ، ومن الجزء العلوي والسفلي لتلك الدائرتين تبرز مروحتين نخيليتين ثلاثية الفصوص ، ينطلق من قاعدة إحداهما على هيئة غصن ثم يلتف حولها ليشكل لها الإطار العام .

شكلت هاتين المروحتين بطريقة متعاكسة بحيث يبدو وكأنهما ملتصقتي القاعدة . يدور حول هذه الزخارف شريط يشبه خلايا النحل فشريط ثاني تملؤه مكعبات صغيرة .



اللوحة رقم :**6**

التسمية :قطعة جصية

المصدر:سدراته

المادة: الجص

المقاسات : الطول 1م2سم

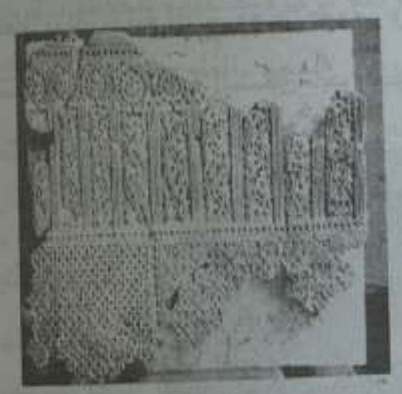
/العرض63سم

مكان وجودها:متحف روقلة .

الوصف :

تتكون زخرفة القطعة من أربعة أقسام بدءا من الجزء السفلي الذي بقي شاغرا ويبلغ عرضه حوالي 12سم . يعلوه شريط من المكعبات معلنا بذلك بداية الزخرفة من جهة ، ويشكل قاعدة ترتكز عليها أشرطة منحنية وبارزة قلمية الشكل ، من جهة ثانية . تنطلق من رأسها زهرة مشعة تشبه المروحة (Eventail) . يتكون هذا العنصر من سبع بتلات مختلفة المقاسات 7،5سم (9،5سم و و5،5سم)

يتوسطها دائرة غائرة . يعلو الزخرفة السالفة الذكر مراوح نخيلية وأنصاف مراوح محاطة بأغصان تنطلق من قاعدتها ثم تلتف حولها . يحد هذه الزخرفة شريط مكون من مكعبات يعلوه القسم الرابع ، حيث تكسوه زخرفة نباتية متمثلة في أنصاف مراوح وضعت بطريقة تبدو للناظر وكأنها معينات . وتنتهي الزخرفة كالعادة بشريط من المكعبات لتشكل في الأخير الإطار العام الذي يحيط بكافة المساحة المزخرفة . وتشبه زخرفة اللوحة السابقة ، لوحة أخرى ، غير أنها تختلف عن الأولى في بعض الجزيئات فقط ، مثل المراوح النخيلية التي تعلوا العنصر المشع . وميزة التنوع تعد من ميزات الفن الإسلامي بصفة عامة .



اللوحة رقم :7

التسمية :قطعة جصية

المصدر:

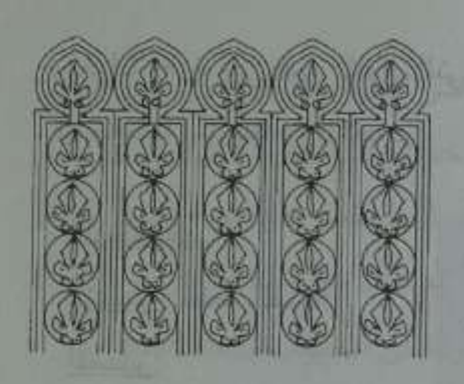
المادة:جص

المقاسات :؟

مكان وجودها:

الوصف : تنقسم زخرفة القطعة إلى ثلاثة أقسام ، كل قسم يحتوي على عناصر تختلف عن الأخرى ، يفصل بينها أشرطة من المكعبات ، مما

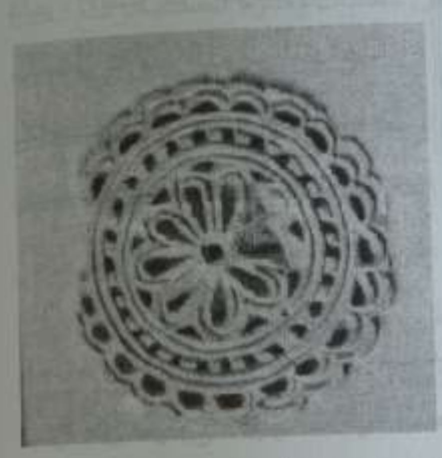
يسمح للفنان من الانتقال من زخرفة إلى أخرى بكل حرية . فالجزء الأيسر من اللوحة يتشكل من مجموعة من الدوائر المتداخلة فيما بينها بطريقة جد منتظمة يبدو وكأنها نفذت بطريقة القالب .



ش6: زخرفة بالبوائك

يشغل مركز كل دائرة مكعب ذو ثقب غائر . أما الجزء الأيمن فزخارفه عبارة عن مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص وذات قاعدة مشكلة من دائرتين . صممت هذه العناصر بطريقة متناظرة وفي جميع الاتجاهات وملتصقتين مع بعضها البعض بواسطة قاعدة عبارة عن دائرتين يزينها ثقب في وسطها . يحيط بكل أربعة مراوح معين ذو أضلاع نوعا ما غير مستقيمة الشكل . أما بالنسبة للجزء العلوي فهو يتكون من مجموعة من العقود المدببة الواحد تلو الآخر وذات فتحات تكاد تكون مغلقة ، مما يخيل للرائي وكأنه شريط من الدوائر . يشغل وسط هذا العنصر دائرة تحليها مراوح نخيلية فصها العلوي مفلطح وزهرة مكونة من أربعة عناصر على هيئة قلوب . ينطلق من قاعدة العقود أشرطة ملساء متوازية ، مكونة بذلك مستطيلات تكسوها مراوح نخيلية وأغصان

وأحيانا زهرة على نفس المنوال التي شكلت به من قبل . تنتهي الزخرف في مجملها بشريط من المكعبات .



اللوحة رقم :8

التسمية :قطعة جصية

المصدر:

المادة:جص

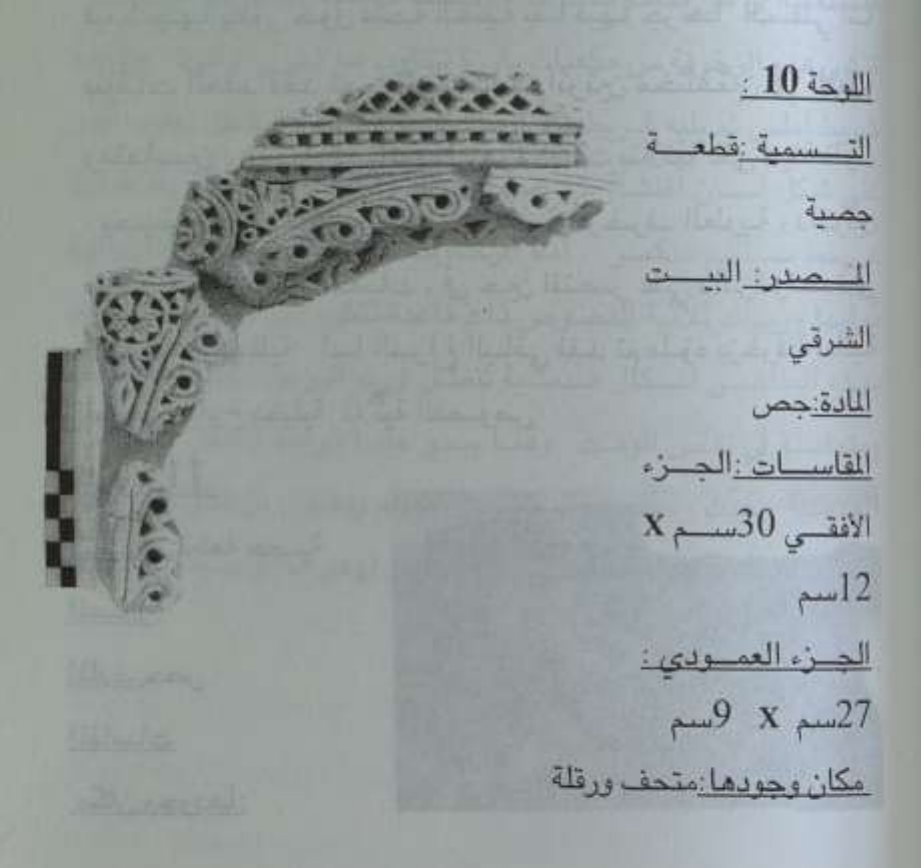
المقاسات :القطر 33سم

مكـــان وجودهـــا :المتحـــف الوطني للآثار

الوصف :نعتقد أن هذه اللوحة كانت تزين بنيقات أحد العقود ، او انها تعد عنصرا رئيسيا لزخرفة كانت تكسو جدران غرفة من غرف البيت المحصن . تتكون زخرفتها الرئيسية من زهرة ذات تسع بتلات غائرة ، يتراوح طول كل منها ما بين 6و7سم ، وتنطلق من مركز واحد يتمثل في دائرة مفرغة ذات قطر يبلغ 2سم . يحيط بالزهرة دائرة ذات فصوص غير منتظمة

ش 7: التحليل الهندسي للزهرة التساعية البتلات

يحتضن كل فص الجزء العلوي من البتلة . يلتف حول العنصرين السالفي الذكر دائرة يبلغ قطرها حوالي 23سم وسمكها 3سم . ثم يحيط بهذه الزخرفة دائرة مفصصة ذات قطر يقدر ب 31سم ويبلغ عدد فصوصها حوالي 22فصا . يفصل بين هذه الدائرة والدائرة الأخرى فراغ ذو 2سم تشغله مجموعة من الحبيبات مكعبة الشكل .



اللوحة **10** :

التسمية :قطعة جصية

المصدر: البيت الشرقي

المادة:جص

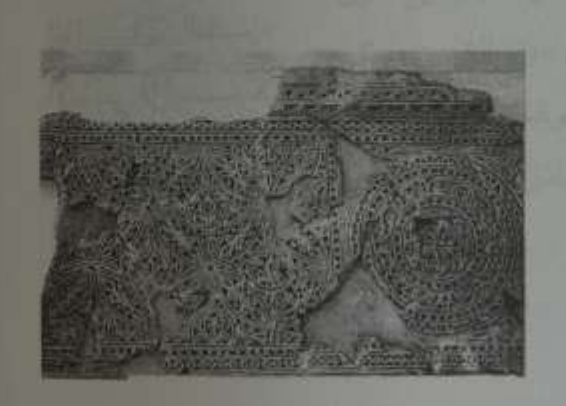
المقاسات :الجزء الأفقي 30سم **x** 12سم

الجزء العمودي: 27سم **x** 9سم

مكان وجودها:متحف ورقلة

الوصف : حسب ملاحظاتنا فإن هذه القطعة هي جزء من حنية ركنية شبيه بتلك التي سبق وصفها (لوحة 5) مع اختلاف طفيف في بعض العناصر الزخرفية . يبدو أن الحنية كانت هي الأخرى عبارة عن حنية نصف دائرية تعلوها قبيبة تتكون من أضلاع بارزة تنتهي بفصوص تدور حول عقد الفتحة ، ويبدو آثار الفصوص واضحة على الصورة . يعلو هذه الزخرفة شريط هندسي يتكون من عقد متلاصقة فيما بينها يدور حول فتحة الحنية بما فيها جزءها السفلي اما بنيقات العقد فقد تمت زخرفته بدائرتين مختلفتين في القطر ومتماسين ، تشغل وسطيهما زهرة شكلت بتلاتها على هيئة قلوب . يحيط بهذا العنصر النباتي ، خاصة الزخرف العلوية ، دائرتين ملتصقتين بواسطة مكعبات ، في حين اقتصر على دائرة واحدة في الزخرفة السفلية . اما الفراغ الباقي فقد تم ملؤه بزخرفة نباتية قوامها مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص .

اللوحة 11:



التسمية :قطعة جصية

المصدر:

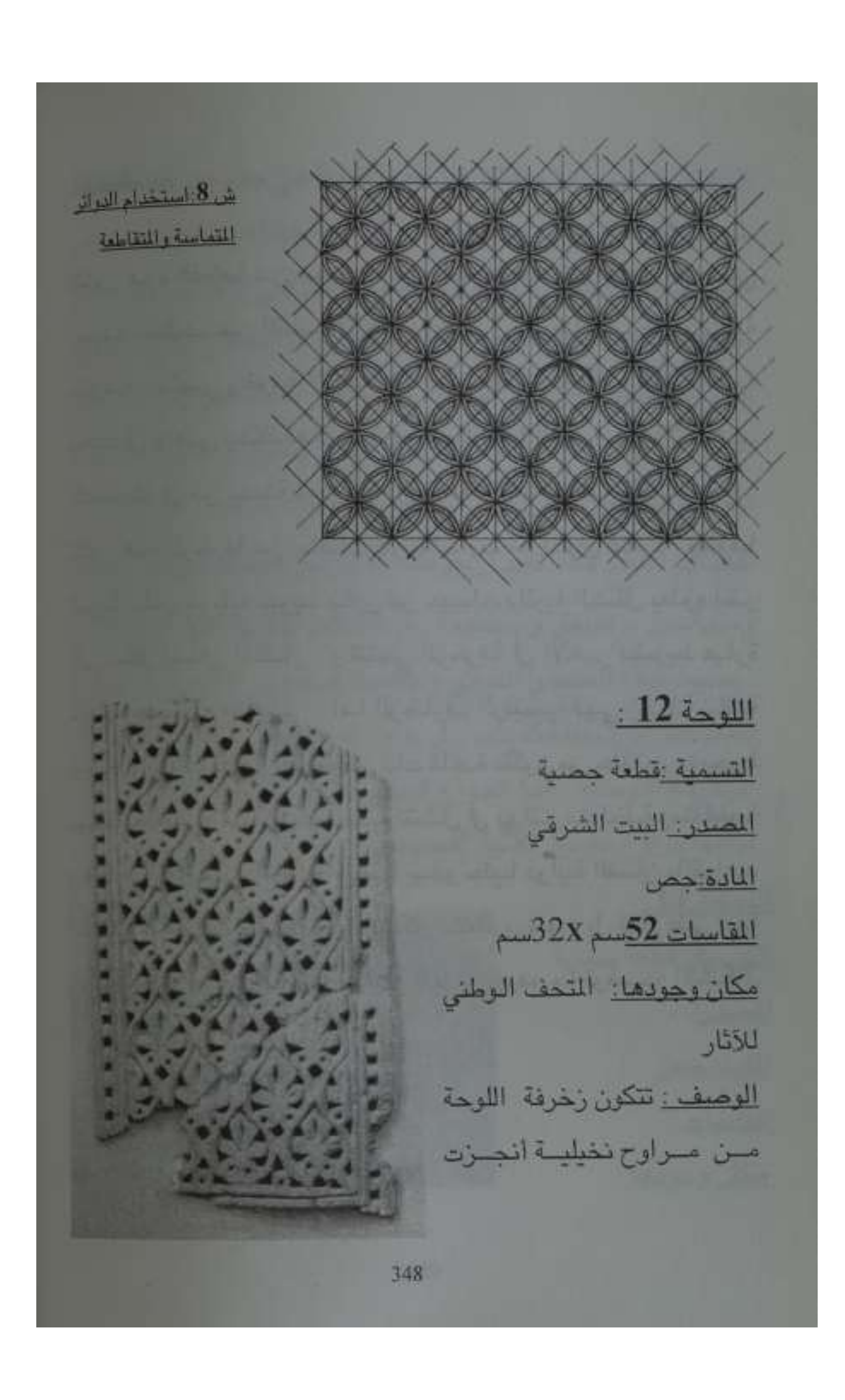
المادة: جص

المقاسات

مكان وجودها:

الوصف :

تتكون هذه القطعة من مجموعة من الأقسام يشتمل كل واحد على زخرفة تختلف عن القسم الآخر ، ويفصل بينهما أشرطة هندسية متنوعة . تنتهي زخرفة اللوحة في الجهة العلوية بأشرطة هندسية متعددة ،و هي بذلك تعد نموذجا حيا لهذا التنوع من الزخارف المستعملة في فن مدينة سدراته ، وبصفة خاصة الأشرطة الهندسية . تتكون هذه الزخرفة من مكعبات بارزة تتناوب مع أخرى غائرة ، يعلوها شريط أملس ثم يليه شريط مكون من حبيبات دائرية الشكل يعلوه آخر على شكل أسنان المنشار ، و تنتهي الزخرفة في الأخير بشريط عبارة عن خط مستقيم منكسر . أما الزخارف الرئيسية فهي زخرفة نباتية قوامها وريدات ثلاثية الفصوص ذات قاعدة تتكون من حلقتين . ويحيط بهذه العناصر اشكال هندسية تتمثل في دوائر متداخلة ومتقاطعة ومتماسة في نفس الوقت . وهنا يبدو جليا دراية الفنان بالقواعد الهندسية ، حيث رسمت دوائره بشكل منتظم ودقيق ، بل تدل على أنها رسمت بأداة صنعت خصيصا لهذا الغرض (وهو ما توضحه الأشكال المبينة أسفله .



ش 8: استخدام الدوائر المتماسة والمتقاطعة

اللوحة 12 :

التسمية :قطعة جصية

المصدر: البيت الشرقي

المادة:جص

المقاسات **52**سم x32سم

مكان وجودها: المتحف الوطني للآثار

الوصف : تتكون زخرفة اللوحة من مراوح نخيلية أنجزت

بطريقة تكاد تكون أشكالا هندسية أكثر منها نباتية . وهي عبارة عن مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص تقوم على قاعدة مشكلة من حلقتين يتوسطهما ثقب غائر وينطلق منهما أفرع نباتية تشكل الإطار العام الذي يحيط بالزخرفة النباتية ثم تتصل فيما بينها عند قمة المروحة السفلية لتلتصق بقاعدة المروحة الموالية ، وهذا دواليك إلى نهاية القطعة . يحد الزخرفة من الجانبين شريط هندسي يتكون من حبيبات مكعبة الشكل ، مثلما يلاحظ في أغلب اللوحات السابقة الذكر .

أما الفراغ الناتج من تموجات الأفرع ، فقد تم ملؤه بأنصاف مراوح . يحيط بالزخرفة السالفة الذكر شريط يتكون من مكعبات بارزة وغائرة .

اللوحة 13 :

التسمية : قطعة جصية

المصدر: البيت الشرقي

المادة: جص

المقاسات: 52سم X 42سم

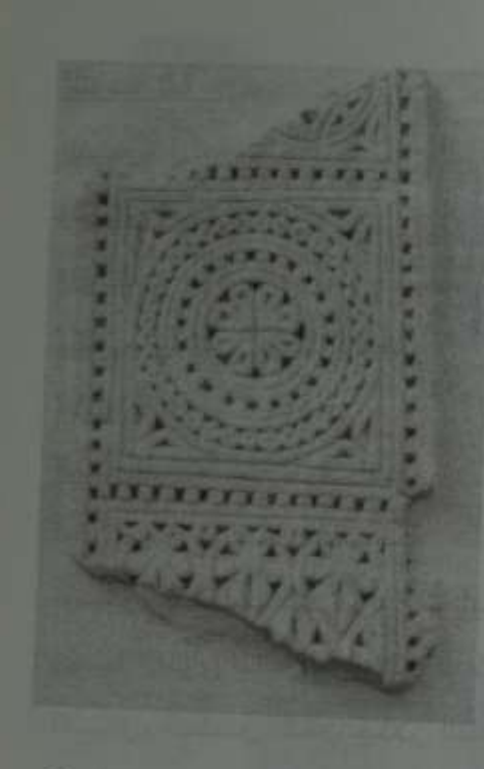
مكان وجودها: المتحف المحلي بورقلة

الوصف: تغطي مساحة هذه القطعة زخرفة نباتية قوامها أنصاف مراوح تلتصق مع بعضها البعض مكونة ما يشبه المعينات ، ويشكل

هذا العنصر في نفس الوقت الإطار العام للعناصر الرئيسية ، والمتمثلة في مراوح نخيلية ثلاثية الفصوص يبلغ طولها 6سم ، وتقوم على قاعدة متكونة من حلقتين مثلما هو سائد في كافة زخرفة المدينة . وتعد زخرفة هذه اللوحة من أجمل الزخارف وأدقها في فن سدراته . فهنا يبدو وكأن الفنان قبل البدء في تنفيذ زخارفه اعتمد في تقسيم لوحته على أداة هندسية حيث جاءت المعينات المشكلة من أنصاف المراوح مستقيمة إلى أبعد حد مثلما هو موضح في الشكل أسفله . كما امتازت عناصره النباتية بنوع من الحرية المطلقة وقربها من الطبيعة عكس ما يلاحظ في بقية اللوحات ، وهو ما يشاهد في الفص العلوي للمروحة ، فلقد بدت وكأنها تنطلق إلى الأعلى بشكل انسيابي رائع . وكالعادة شكلت الأشرطة الهندسية المعتادة الإطار العام للزخرفة .



ش9: الرسم الهندسي للزخرفة



اللوحة 14 :

التسمية :قطعة جصية

المصدر:

المادة: جص

المقاسات

مكـــان وجودهـــا : المتحـــف الوطني للآثار

الوصـــف : تتكـــون زخرفـــة القطعة من عنصر نباتي يشكل الزخرفـــة الرئيـــسية . وهـــي عبارة عن زهرة ثمانية البتلات ، تم الحصول عليها بواسطة عناصر على هيئة قلوب وضعت بطريقة متناظرة ومتدابرة لتشكل في النهاية العنصر المراد تحقيقه . يتوسط العنصر السالف الكر دوائر متداخلة تفصل بينها أشرطة هندسية متنوعة مثل الحبيبات والمكعبات . ويحيط بالزخرفة كلها مربع يبلغ طول ضلعه والي 26سم ، شغلت زواياه أنصاف مراوح مجردة .

اللوحة 15 :

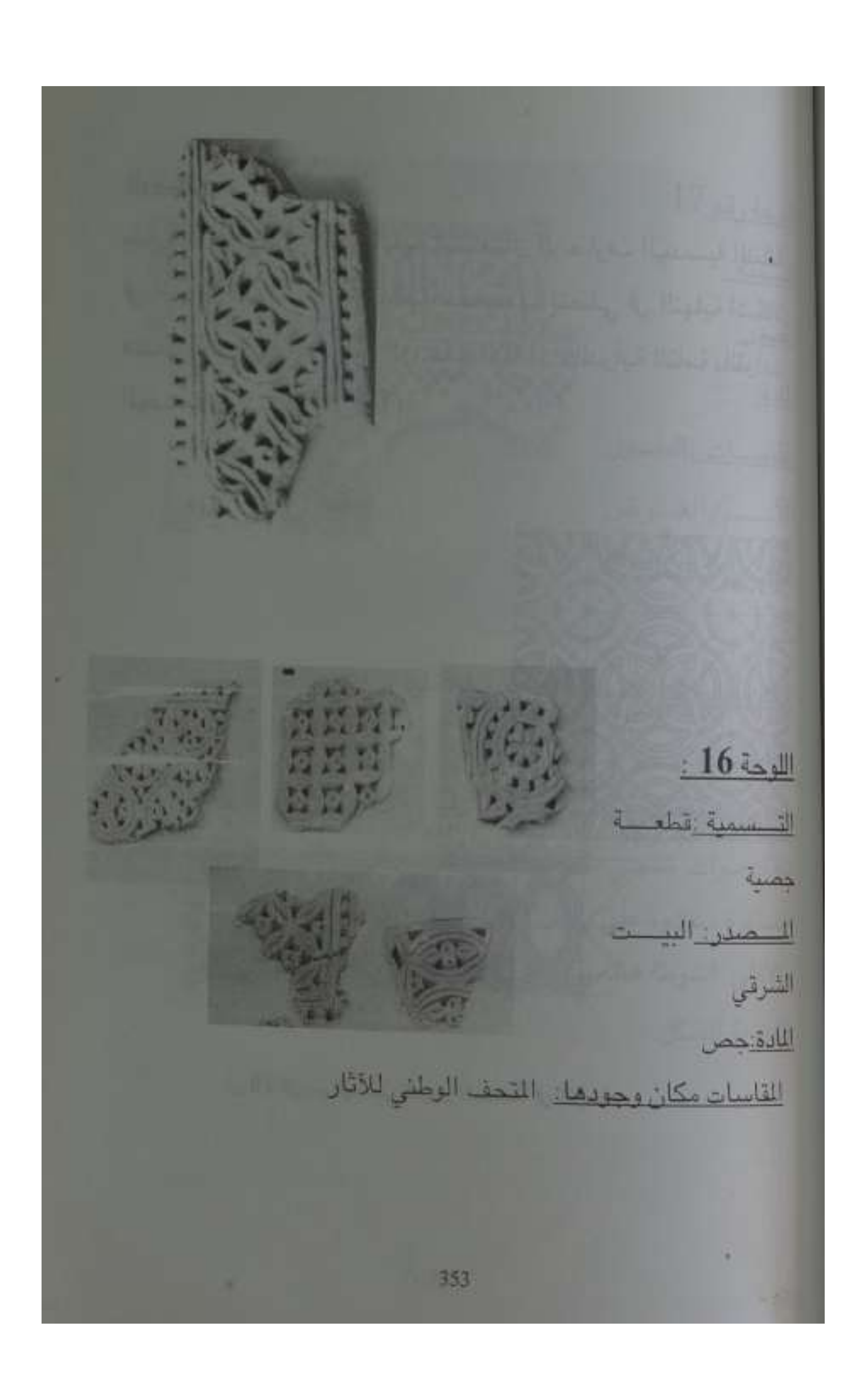
التسمية :قطعة جصية

المصدر المادة:جص

المقاسات

مكان وجودها: المتحف الوطني للآثار

الوصف: تتكون زخرفة هذا الجزء من مربعات مفصصة ،وتحتوي بداخلها على مراوح نخيلية مجردة، يبدو جليا من خلال فصها العلوي المنحني ليتماشى و انحناء فص المربع ، وتلتصق في الأسفل بالحلقتين اللتين يمثلان القاعدة التي تقوم عليها المروحة ، بينما استغني عن الفصين الأوسطين لضيق المساحة المتاحة للتحلية . أما الفراغ الناتج من تماس الأشكال الهندسية فقد شغر بمراوح نخيلية تنطلق من قاعدتها أنصاف مراوح ممتدة على طولها لتغطية الفراغ الملاحظ.كما تم العثور على نفس النوع من الزخرفة مع اختلاف طفيف في الزخرفة الرئيسيية و هو ما يمكن ملاحظته في الشكل الموجود أسفله . فقد حلت هنا عناصر هندسية محل العناصر النباتية المشار إليها آنفا .



اللوحة **16** :

التسمية :قطعة جصية

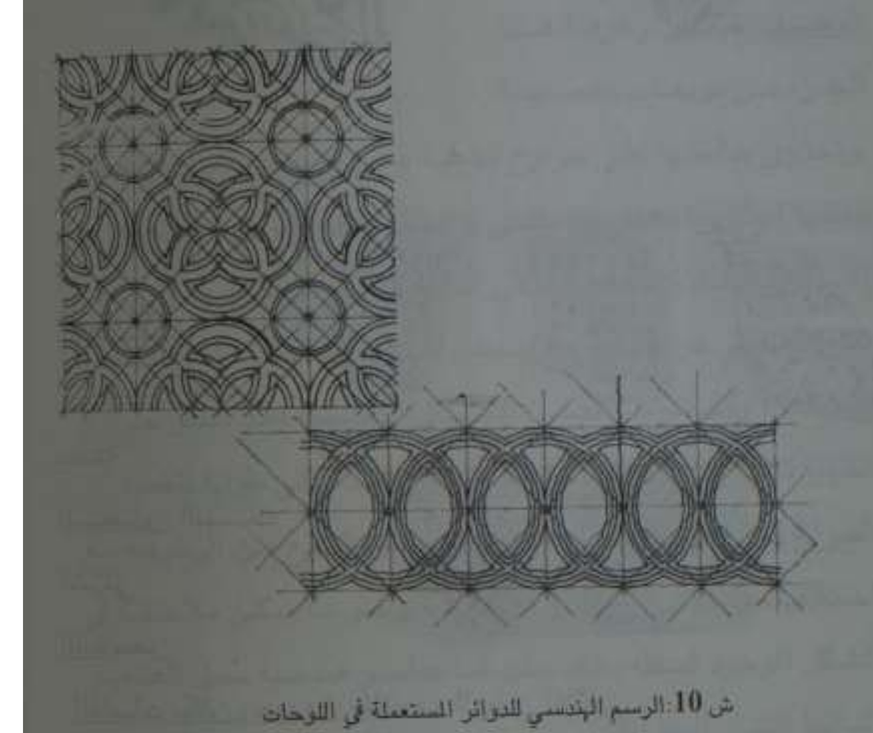
المصدر: البيت الشرقي

المادة:جص

المقاسات مكان وجودها: المتحف الوطني للآثار

الوصف:

يتبين لنا من خلال القطعة كيفية استعمال الزخارف الهندسية المتمثلة في الدوائر متماسة او متقاطعة فيما بينها لتعطي في النهاية أشكالا هندسية أخرى في غاية من الروعة و الإتقان والدراية التامة بالقواعد الهندسية في شكلها (ش 10) .



ش 10: الرسم الهندسي للدوائر المستعملة في اللوحات



اللوحة رقم 17

التسمية :

المصدر:

المادة:

القاسـات :الطـول 50سـم/ العـرض 28سـم/ السمك55 سم

مكان وجودها: المتحف الوطني للآثار

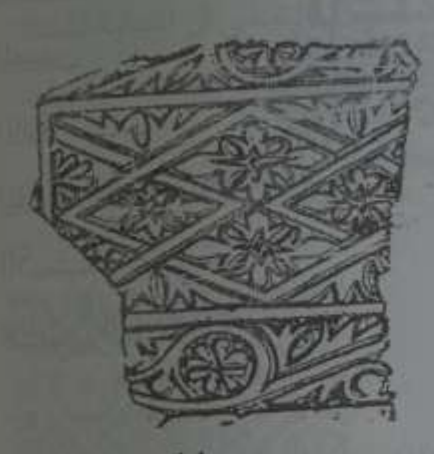
الوصف :

تحتوي اللوحة على كتابة تذكارية كوفية مكونة من كلمة " بركة " مكررة ثلاث مرات .تنتهي بعض الأحرف بمراوح نخيلية تشغل الأماكن الشاغرة ، علاوة على بعض الدوائر الصغيرة . يحد الكتابة من الأسفل والأعلى أشرطة هندسية تتكون من مكعبات وخلايا النحل والحبيبات الدائرية الشكل .

خامسا : الدراسة التحليلية للعناصر الزخرفية :

1- الزخارف النباتية :

لقد سبق وأن أشرنا إلى أن الزخرفة النباتية تعتبر المحور الأساسي لزخرفة المدينة وعليها تقوم معظم الزخارف . فلقد شكلت عناصرها المواضيع الرئيسية لأغلب اللوحات الجصية المكتشفة .



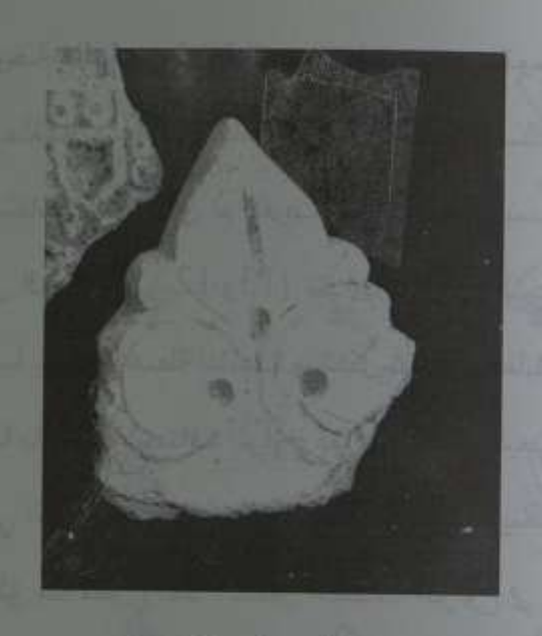
ش11: زخرفة قبطية

كما اتخذها الفنان لملء الفراغات . ويبدو من خلال الدراسة الوصفية لنماذج من تلك القطع أن العناصر النباتية والهندسية والعمائرية لديها ما يشابهها في بقية الفنون الإسلامية أو غيرها وهو ما نود الإشارة إليه ، من خلال الدراسة التحليلية للعناصر .

ب- نماذج من العناصر النباتية :

ب/1- المراوح النخيلية وأنصاف المراوح :

وهي من العناصر الأكثر رواجا في زخارف سدراته حيث لا تكاد تخلو لوحة من اللوحات من مثل هذا العنصر . تشغل المراوح النخيلية عدة أماكن ، فأحيانا



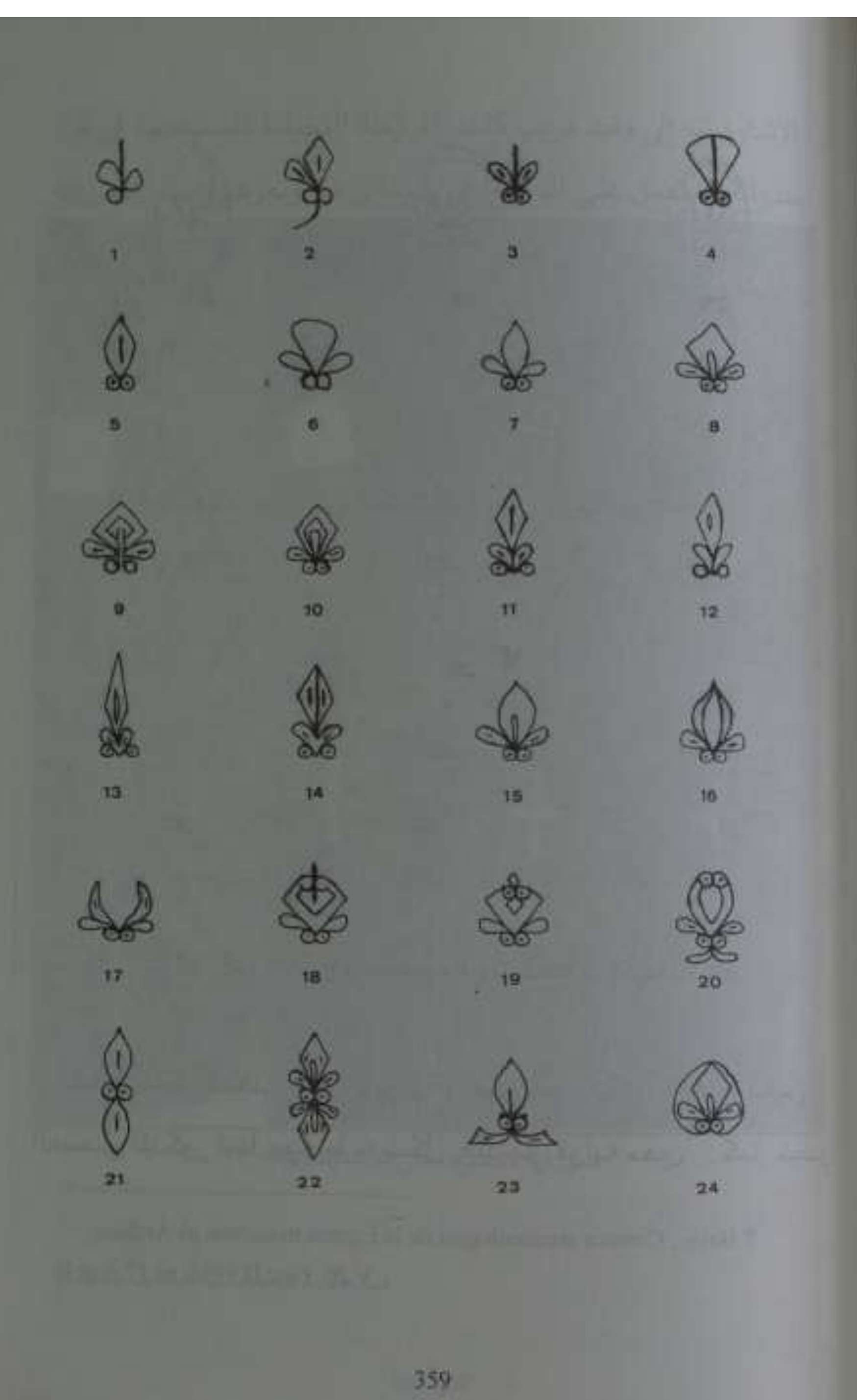
صورة 13: مروحة نخيلية ثلاثية
الفصوص من قلعة بني حماد

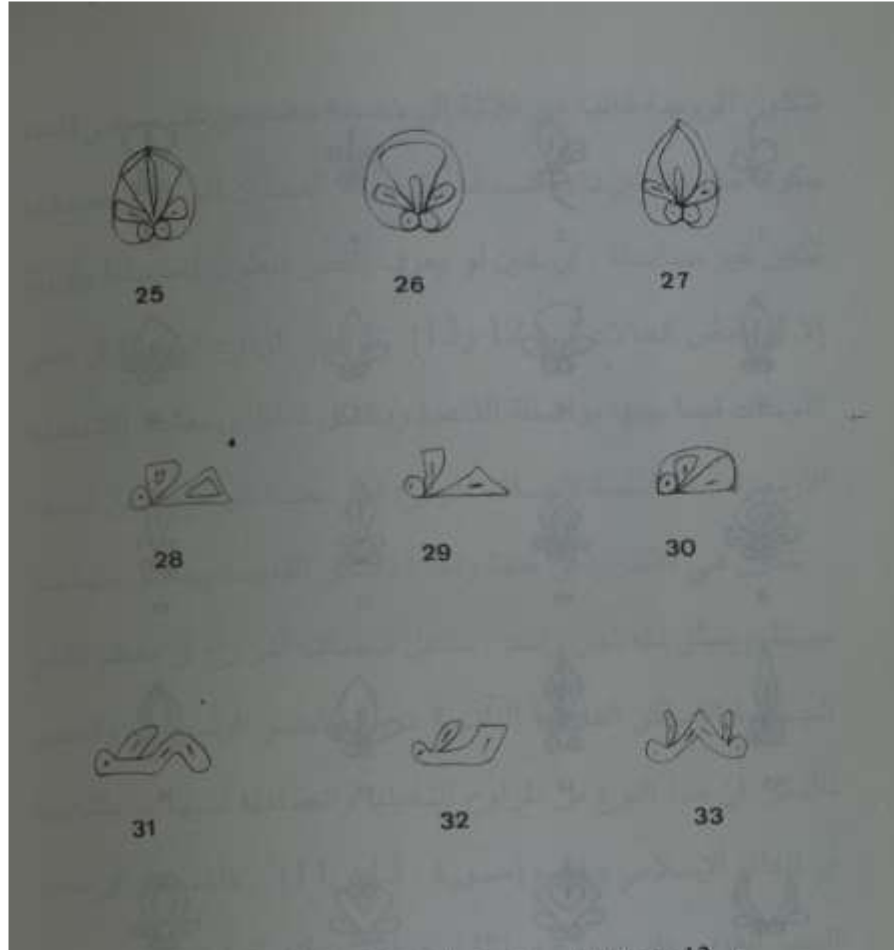
تشكل الموضوع الرئيسي للزخرفة إذ يحيط بها أشكال هندسية مختلفة ومتنوعة ، أو تكسوا مساحة قطعة بكاملها أو تملأ الأماكن الشاغرة وأحيانا توجد على شكل شريط تعلو الواحدة الأخرى لتكون إطار يحيط بالزخرفة الرئيسية . أما من حيث تصميمها فقد شكلت بطريقة تكاد تكون موحدة ، ولا يمكن أحيانا التمييز بين مروحة وأخرى خاصة من ناحية الحركية إلا في القليل النادر .

تتكون المروحة غالبا من ثلاثة إلى خمسة فصوص تقوم على قاعدة مكونة من حلقتين ذات ثقب غائرة . أما الفصين السفليين فعادة ما تكون غير متناسقة ، في حين لم يعرف الفص العلوي انسجاما وتوازنا إلا في بعض الحالات (ش 12 و13). تتداخل المراوح النخيلية في بعض اللوحات فيما بينها بواسطة القاعدة وبشكل تناظري مقابلة الاتجاهات الأربع ، أما بالنسبة لأنصاف المراوح فهي بعيدة كل البعد عن الطبيعة . تتكون هي الأخرى من حلقة واحدة تشكل القاعدة وينطلق منها خط مستقيم ينبثق منه فص واحد . تشغل أنصاف المراوح في معظم القطع الجصية الأماكن الفارغة الناتجة عن العناصر الرئيسية . والجدير بالذكر أن هذا النوع من المراوح النخيلية وأنصافها لديها ما يشابهها في العالم الإسلامي وغيره (صورة ، 13ش11)[1] . فلقد عثر في قصر الحير الغربي على نموذج مماثلة لزخرفة سدراته. كما زين

---

[1] -لمزيد من الاطلاع يراجع : Fouilles à Baout , Géographie , Planches , Mémoires , t13,
كذلك : Gayet, Les monuments coptes de Boulaq, t3, Paris 1889, Pl, 6, 25, et 71. Pl.51 et 81 Fig.39 bis et44.


1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24



ش 12 : انواع المراوح وانصاف المراوح المستعملة في زخرفة سدراته

أحد أعمدة مسجد دمغان بإيران (القرن 2- 3هـ/8- 9م) بنفس العنصر المذكور آنفا ، يحيط به شكل هندسي قوامه معين[1] . كما تجدر

---

1 - T.Balas . Cronica arcqueologica de la Espana musulma, al-Andalus , V.20, Fasc,II 1955: pl 17 A et B

الإشارة انه إلى وقت قريب كانت المروحة النخيلية المستخدمة في فن سدراته تستعمل على النسيج في مدينة ورقلة وتعرف باسم "سدراته



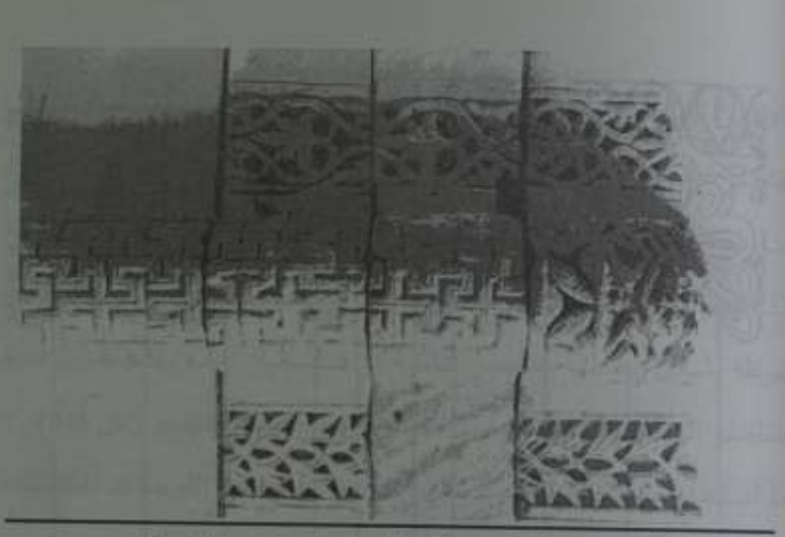
صورة 14: نسيج محلي من مدينة ورقلة

2- الزهرة :

سمحت القطع الزخرفية بالتعرف على أنواع الزهرات المستعملة في فن المدينة . فلقد تمكن الفنان من الحصول على زهرات متعددة البتلات ، التساعية منها او ما يفوقها ، وذلك بواسطة الدوائر وتقاطعها وهي طريقة قديمة عرفها الفنان منذ القديم فزين بها واجهات تيجانه وفسيفسائه . كما تمكن من الحصول على زهرة ثمانية البتلات عن طريق استخدام عناصر على هيئة قلوب بشكل متناظر ومنسجم .

ب/3- الأفرع النباتية :

لم تستخدم الأفرع النباتية بكثرة في فن مدينة سدراته ، كما انها لم تظهر بشكل يجلب الانتباه . فلقد ظهرت بطريقتها التقليدية ، حيث جاءت على شكل خطوط منحنية متموجة تنطلق من قواعد بعض المراوح ، وبتموجاتها تترك فراغا يحصر بداخله مروحة أو نصف مروحة . ويبدو الفرع النباتي أحيانا بطريقته القديمة حيث ينتهي بانحناءات في كلتا طرفيه (صورة 15).

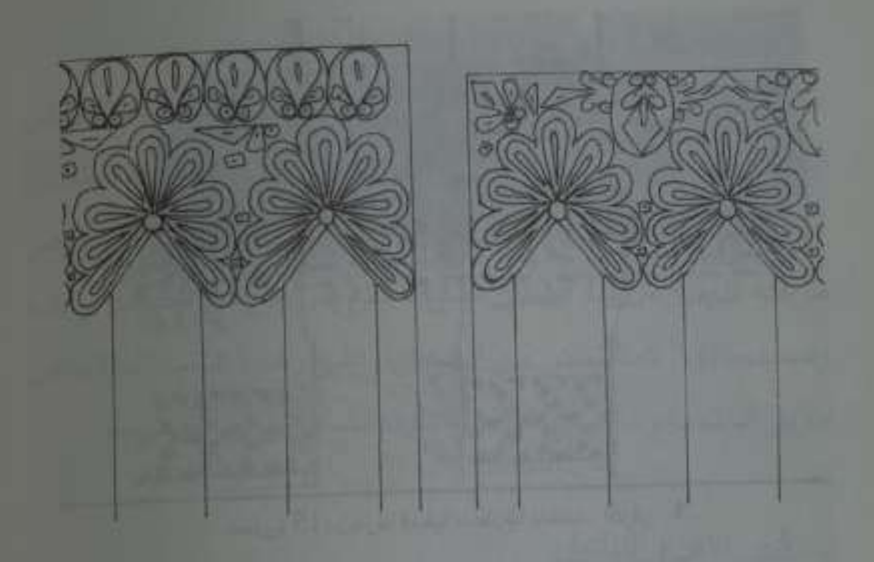


صورة 15: زخرفة قبطية محفوظة بمتحف اللوفر ٩

ب/4- العنصر المشع:

ظهر في فن المدينة عنصر جديد لم يسبق له مثيلا في بقية الفنون الأخرى . ويتمثل في عنصر مشع يتكون من بتلات على هيئة مروحة وترتكز على شريط سميك قلمي الشكل . ولقد شبهته م.فان برشم بزهرة الأقحوان ، غير أننا نرى عكس ذلك ، فهو يشبه إلى حد بعيد شجر النخيل أكثر من أي شيء آخر (ش13)، خاصة وأن الفنان ابن بيئته فكيف لا يتأثر الفنان السدراتي بمحيطه الخصب آنذاك . وحسب المعلومات المتوفرة لدينا فإن هذا العنصر ليس لديه ما يشابهه في العالم الإسلامي [1].

[1] لإجراء دراسة مقارنة بين هذا العنصر وشجرة النخيل المستعملة في الفن الإسلامي راجع : GOL VIN, L *"Le*



ش 13: العنصر المشع الشبيه بالنخلة

II- الزخرفة الهندسية :

ب- نماذج من العناصر الهندسية

ب/1- الدوائر والمعينات والمربعات المفصصة :

استخدم الفنان السدراتي الدائرة بشكل ملفت للانتباه . فهناك الدوائر البسيطة والمفصصة والمتقاطعة والمتداخلة فيما بينها ، وهو ما نتج عن ذلك أشكالا هندسية أخرى . كانت الدائرة على اختلاف أنواعها وأحجامها تشكل الإطار العام للزخرفة الرئيسية . أما المعينات فتتكون

palmier dans le decor musulman d'Occident , Hespéris Tamuda. V.2. Rabat. 1961. pp.145-159.

عادة من تقاطع خطوط متوازية تاركة بينها مساحات منتظمة تشغل بعناصر نباتية في أغلب الأحيان . ومن الأمثلة على هذا النوع ، معينات ذات أضلاع منحنية وذات الأضلاع المقعرة . أما المربعات المفصصة فقد استخدمها فنان سدراته كأطر للزخارف الرئيسية ، على شكل أشرطة يشغل وسطها عناصر نباتية أو هندسية . وما يلاحظ أن هذه العناصر الزخرفية استخدمها الفنان في العصر القديم (ش 14)[1]، كما استخدمها الفنان المسلم مثلما يتجلى في بعض اللوحات المكتشفة بمدينة سامرا .



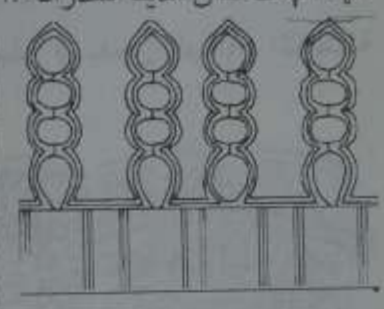
ش 14 : زخارف هندسية من الفن القبطي والفن المسيحي بإسبانيا

ب/2- البوائك :

لا تزال بعض القطع الجصية في أماكنها الأصلية محلاة بزخارف قوامها بوائك ، تتكون من مجموعة من الفصوص ، شكلت بطريقة أفقية

1- RICARD, P., "Notes au sujet de mosaïques à décor géométrique de l'antiquité". Hespéris. Paris. 1947. pp.267-279.

وعمودية (ش15). كما وجدت بوائك أخرى أقل تعقيدا من السابقة ، فهي تتكون من عقود مدببة صممت بطريقة أفقية وترتكز على أشرطة ملساء تحتوي بداخلها على زخارف نباتية (ش2ب). وتشبه هذه الزخرفة ما تم العثور عليه في مدينة سامرا العباسية (صورة 16)[1]، وإن كانت في هذه الأخيرة قد أنجزت على شكل حنيات فعلى الأرجح أنها ألهمت فنان مدينة سدراته..



ش15 : الزخرفة بالبوائك من سدراته



صورة 16 : زخرفة بالبوائك من سامرا

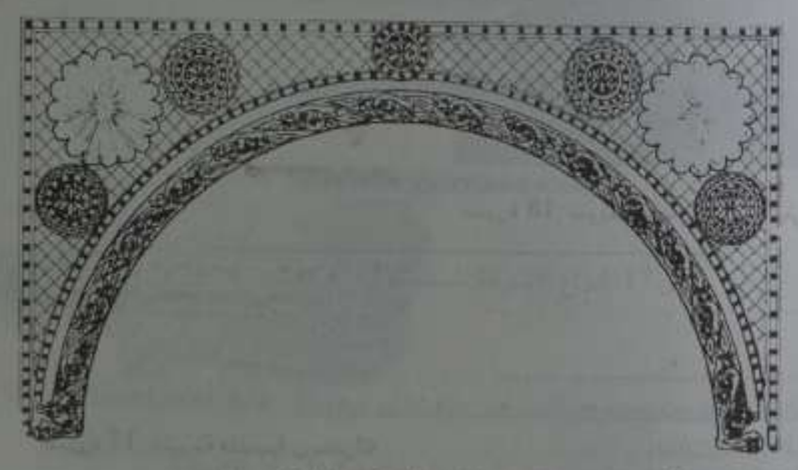
ب/3 - العقود والأعمدة والتيجان:

استعملت العقود في زخارف مدينة سدراته بنسبة قليلة ، فقد تم العثور بالبيت الشرقي المحصن على عقد تغطي معظم أجزائه عناصر

---

1 - DIMAND, M.S., "Studies in islamic ornament, the origin of the2nd style ofSammarra decoration", Archaeologica Orientalia in memoriam E. Herzfeld New York, 1952, pp.62-68.

نباتية وهندسية، تمثلت على وجه الخصوص في الأزهار والمراوح النخيلية والأشرطة المتنوعة (ش16). أما العقود المفصصة فقد استخدمت في الحنايا الركنية حيث تنتهي الأخاديد التي تحلي القبيبة بأقواس مفصصة ترتكز على أعمدة صغيرة مظفورة. وبالنسبة للتيجان، وباستثناء الموجودة بمدخل القصر أو المحكمة والتي أشار إليها بول بلانشي ، فإنه لم يعثر على نماذج أخرى من مثل هذا العنصر. كانت التيجان المشار إليه آنفا مخروطية الشكل تملأ واجهاتها عناصر زخرفية قوامها عناصر نباتية وهندسية، تتمثل النباتية منها في مراوح نخيلية محاطة بدائرة تكتنفها أنصاف مراوح وأشرطة هندسية .



ش16 : قوس مزخرف من البيت الشرقي (إعادة تصور)

ب/4- الأشرطة:

- تعددت الأشرطة وتنوعت في فن المدينة ، فمنها ما يشبه خلايا النحل ، ومنها أشرطة تتكون من حبيبات دائرية الشكل بها ثقب في وسطها ، أو أشرطة من المكعبات (صورة 17 ش17) . وتعتبر هذه العناصر ذات أهمية في زخرفة سدراته ، فهي تعد الحد الفاصل بين موضوع زخرفي وآخر ،فهي تسمح للفنان بالانتقال بكل حرية من عنصر زخرفي إلى اخر دون أن يلفت نظر الرائي ودون أن ينتج اي تداخل قد يخل بالمنظومة الزخرفية العامة .



صورة 18: شريط هندسي من قلعة بني حماد



صورة 17: أشرطة هندسية ن سدراته

ولقد عرف العالم الإسلامي نماذج من هذه الأشرطة . فلقد استخدم الشريط المتكون من الدوائر ذات ثقب في زخارف خربة المفجر الأموية [1] وفي فن مدينة الرقة العباسية [2]، وجامع ابن طولون وضريح أم كلثوم (516هـ- 1122م [3] . انتقل بعدها إلى أفريقيا حيث وجد في اطلال صبرة منصورية القرن 4هـ- 10م وقلعة بني حماد (صورة 18).



ش 17: أنواع الأشرطة المستعملة في زخرفة سدراته

[1] - HAMILTON, R.W., <u>*Khirbat al Mafjar, an arabian mansion in the Jordan valley*</u>, Oxford, 1959.

[2] - SALIBI, N., *Hufriyat ar-Raqqa", les fouilles de Raqqa*, <u>Annales archéologiques de Syrie</u>, T.6, Damas, 1956, *p.*25

[3] - K.A.C.Creswell, Early muslim architecture of Egypt, t1, Oxford, 1952, Pl.77 et 82.

الزخرفة الكتابية :

تتميز الكتابة المكتشفة في مدينة سدراته بانها كتابة تخلو من الإعجام ونقشت على خلفية عميقة . يقسم خط القاعدة ،إحدى دلائل قدم هذا النوع من الكتابة[1] ، الشريط إلى قسمين غير متساويين . فالقسم العلوي بقي شاغرا تعلوه أبدان الحروف الدابلة والتي كانت مشطوفة في اغلب الحالات ، تنطلق منها بعض المراوح البسيطة وهي زخرفة ظهرت في الكتابات العربية بمصر منذ القرن 3ه/9م [2] . بينما يشغل الجزء السفلي أبدان الحروف . بعض الإنحناءات جاءت لتخفف من حدة خط القاعدة وتملأ الفراغ الناجم عن طبيعة الكتابه في حد ذاتها

حرف الباء : حرف الباء جاء طويلا حتى بلغ نهاية اللوحة ، وبذلك فهو يختلف عما هو متداول في كتابته هذا الحرف .

حرف الراء : عوض أن ينزل إلى الأسفل ، فقد اتبع خط القاعدة ثم يصعد إلى الأعلى مشكلا قوسا نصف دائريا ثم يمتد يسارا وينتهي بشكل مشطوف .

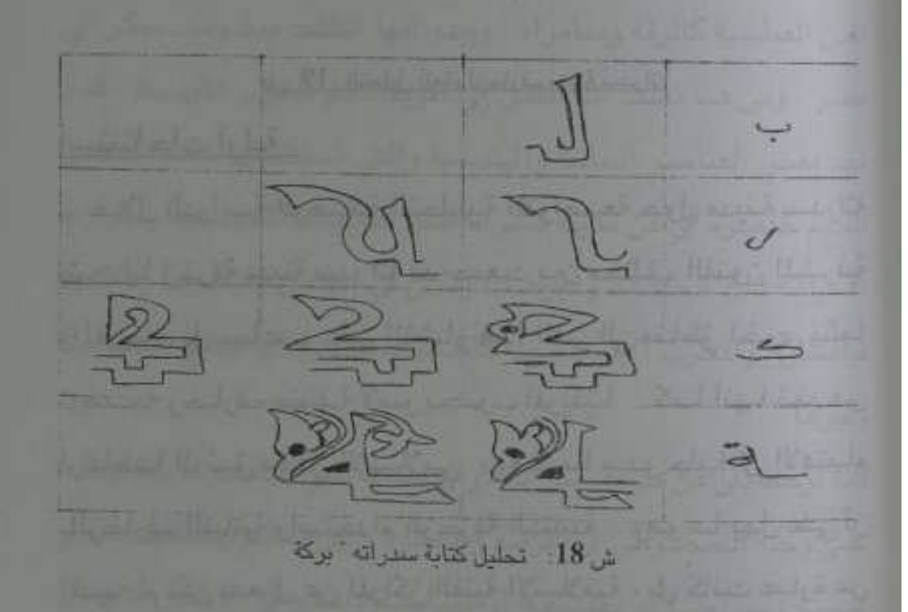
---

[1] - J.T.Sourdel, « Les monuments ayyoubides de Damas, épitaphes coufiques de Bab Saghir », Institut français de Damas , Liv4, Paris 1950, p.148
L.Golvin , Recherches archéologiques à la Qla des Banu Hammad , Paris 1965,p.p.151.Inscription n°4

[2] - H.Hawary et H.Rached, Catalogue du musée arabe du Caire , 1932, Pl.37 et 38.

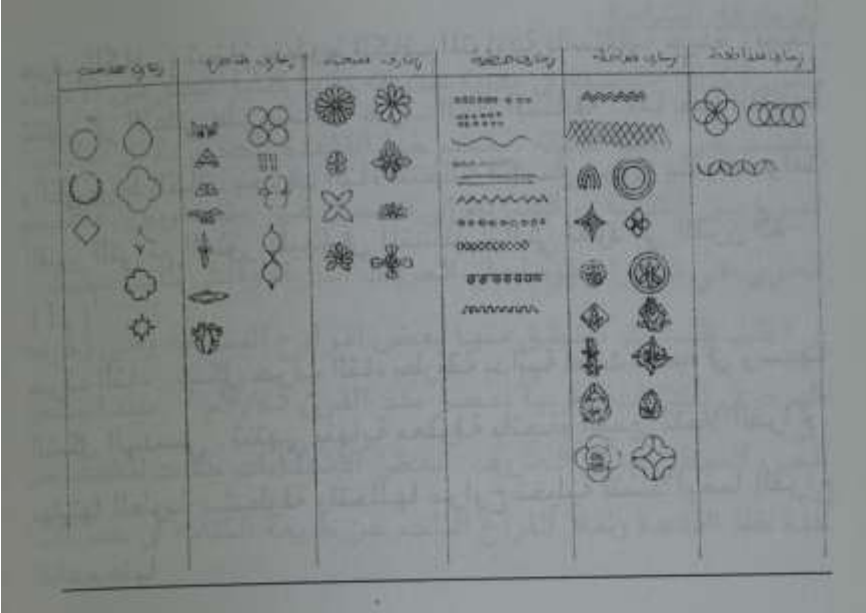
حرف الكاف : تمتاز خطوط الكاف المتوازية باستقامة جيدة ، بينما تنتهي في الأعلى على شاكلة حرف الراء السابقة . أما خط القاعدة والذي يربط الكاف بحرف التاء فتتخلله انكسار مزوى يشبه شواهد القبور التي تم العثور عليها في المنستير والتي تعود إلى القرن 5هـ-11م)[1].

حرف التاء : شكل حرف التاء بطريقة بدائية حيث تشبه في رسمها الشكل الهندسي . تنتهي بنهاية معقوفة باتجاه اليمين لتملأ الفراغ . نهايتها العلوية مشطوفة وتتخللها مراوح نخيلية لتسد أيضا الفراغ الناجم عنها



ش 18: تحليل كتابة سدراته " بركة

[1] S.M.Zbiss, Inscription de Monastir , Tunis 1960, Pl.IX-40 et Pl.X-45.-



ش 19 التحليل العام لزخارف مدينة سدراته

استنتاجات أولية :

من خلال الدراسة الوصفية التحليلية المتواضعة حول مدينة سدراته يتبين لنا زخرفة مدينة سدراته قد جمعت بين مختلف الفنون المشرقية والمغربية ، بل ساعدت على انتشار هذا الفن إلى مناطق أخرى مثلما توضحه زخارف منطقة لامو بجنوب أفريقيا . كما أنها تنم عن ارتباطها الوثيق بالفن الإسلامي ، وهو ما يبدو جليا في الاهتمام بالزخارف النباتية واستخدام الزخرفة الكتابية . وهو ما يدل على أن المدينة لم تكن بمعزل عن المراكز الفنية الإسلامية ، بل كانت عبارة عن

مفترق طرق تعبره القوافل القادمة من الشمال باتجاه الجنوب والعكس صحيح ، وهو ما تؤكده كتب الرحالة ، وبالتالي فإنه لا ريب في أنه استمد أصوله من بقية الفنون الإسلامية الأخرى المعروفة آنذاك

إن الدراسة المقارنة وإن كانت تبدو في مرحلتها الأولى ، إلا أنها أمدتنا بالعديد من الملاحظات ، نذكر منها على سبيل المثال في أن هناك عناصر زخرفية لديها ما يماثلها في المدن الإسلامية المنتشرة في العالم الإسلامي . فزخارف الأشرطة ذات الحبيبات على سبيل المثال كانت موجودة في الفن الأموي والعباسي على السواء ، حيث وجدت بأنقاض المدن العباسية كالرقة وسامراء . ويبدو أنها انتقلت منذ وقت مبكر إلى مصر ، ومن هنا نعتقد أنه انتقل إلى أفريقيا ثم المغرب الأوسط . كما نجد بعض العناصر النباتية والهندسية والتي استخدمها فنانو العصر القديم حاضرة في فن مدينة سدراته مثل المربعات المفصصة والمراوح النخيلية ذات الحلقات وغيرها ، ولكن في المقابل هناك ما يماثلها فبالمشرق والمغرب الإسلاميين كالمنشآت الأغلبية والمباني الحمادية وغيرها .

كما لوحظ بأن فن مدينة سدراته لازال يعتمد على عناصر قليلة تمثلت على وجه الخصوص في المربع والدائرة وغيرها ثم يشكلها بطرق عديدة ، متداخلة أو متقاطعة أو متماسة لاينتج في الأخير أشكال

زخرفية تبدو للناظر وكأنها عناصر جديدة . وفي النهاية فلقد مكنتنا هذه الدراسة من معرفة العلاقات التي كانت سائدة خلال فترة من الفترات بين بلدان العالم الإسلامي مشرقه ومغربه ، وإلى اي حد وصل إسهام كل منها في بناء صرح الحضارة الإسلامية . وهنا يمكن القول أن مدينة سدراته تعد بحق أحد الدعائم التي ساعدت في نشر الفن الإسلامي ، وبالتالي في توطيد الحضارة الإسلامية ونشرها بين ربوع هذه المنطقة

أولا : المصادر والمراجع باللغة العربية

1- المصادر

- ابن حماد (الصنهاجي) : اخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، مطبعة جول كربول ، الجزائر 1927

- - ابن خلدون(عبد الرحمن):
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ،(المقدمة) ، الطبعة الثانية ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر ، بيروت 1961 . والجزء الرابع والسادس والسابع ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1959

- العياشي (أبو سليم عبد الله بن محمد) :
ماء الموائد ، مخطوط عائلة زرقي ببني سيسين ، ورقلة

- ابن الصغير :
اخبار الائمة الرستميين ، تحقيق وتعليق ، محمد ناصر وإبراهيم بحاز ، المطبوعات الجميلة ، الجزائر 1986

ابو زكرياء(يحيى بن أبي بكر):
كتاب سير الائمة وأخبارهم ، تحقيق إسماعيل العربي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984.

- الدرجيني(أبو العباس أحمد):
طبقات المشائخ بالمغرب ،حققه وقام بطبعه إبراهيم طلاي، ج 1 ،مطبعة البعث،قسنطينة،ب.ت.
الإدريسي(أبو عبد الله محمد):
المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق محمد حاج صادق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983.
- ابن عذاري(المراكشي):
البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج 1، دار الثقافة، بيروت 1980
- الإدريسي(أبو عبد الله محمد):
المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق محمد حاج صادق ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983.
- الأغواطي(الحاج ابن الدين) :
"رحلة الأغواطي" تقديم أبي القاسم سعد الله ، مجلة التاريخ ، المركز الوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر 1982 ،ص 37- 81.
- ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) :
كتاب صورة الأرض القسم الأول ، الطبعة الثانية ، مطبعة بريل ، ليدن 1967

- ابن سعيد المغربي(أبو الحسن علي):

كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، الطبعة الثانية ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر 1982.

- البكري (أبو عبيد الله) :

المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، تحقيق ، ماك قوكان دو سلاين ، باريس 1965 ، (النص العربي)

2- المراجع :

- بحاز (إبراهيم بكير):

الدولة الرستمية ، 160هـ- 296هـ/777م- 909م ، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ، الطبعة الثانية ، نشر جمعية التراث ، القرارة 1993 .

- جودت (عبد الكريم يوسف) :

العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، المؤسسة الوطنية للكتاب 1984

- جودت (عبد الكريم يوسف):

- مزهودي (مسعود) :

الإباضية في المغرب الأوسط ، جمعية التراث ، القرارة 1996

- العربي (إسماعيل) :

الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983

- العربي(إسماعيل) :

دولة الأدارسة ، ملوك تلمسان وفاس وقرطبة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 .

3 – مقالات وتقارير ودراســـات تقنية :

حملاوي.ع، العناصر الزخرفية بمدينة سدراته ، ملتقى حول الآثار المنعقد بأدرار سنة 1994

حملاوي.ع ، إشكاليات الفن بمدينة سدراته ، سدراته : الأيام الدراسية الأولى حول سدراته ، مديرية الثقافة لولاية ورقلة بمشاركة جمعية سدراته وجمعية الوفاق ، دار الثقافة ، من 23 إلى 26 أفريل 1997 ، ص.34- 40.

حملاوي.ع مواقع ومعالم أثرية من الجنوب الشرقي الجزائري (منطقتا ورقلة ووادي ريغ)" ، مجلة بحوث ، جامعة الجزائر ، العدد 5، 1998،ص 57- 84..

بوراس يحيى ، قرى وأسماء مواضع في إقليم وارجلان من خلال ثلاثة مصادر تاريخية ، حوليات المتحف الوطني للآثار ، العدد 10، 2001، ص.90- 115

ثانيا : المراجع باللغة الأجنبية

1- مراجع بيبليوغرافية

-*Abstracta Islamica,* publiée par la Revue des Etudes Islamiques. Paris, Geuthner, depuis 1927.

-*Bibliographie saharienne,* publiée par les Travaux de l'Institut des Recherches Sahariennes. T.20, Alger 1961, pp.255-279.

-CRESWELL, (K.A.C), *A bibliography ofmuslim architecture in north Africa* (excluding Egypt), Paris, 1954.

-CRESSWELL, (K.A.C), *Bibliography of the architecture, arts and crafts gf Islam.* Le Caire 1961 et son supplement, Le Caire 1973.

-Gouvernement Général de l'Algérie, *Les Territoires du Sud de l'Algérie.* 1 ére partie, Alger, 1930.

-PEARSON, (J.D), *Index Islamicus.* 1906-1955, Cambridge, 1958, et ses suppléments.

2- مراجع تاريخية وجغرافية (كتب ومقالات)

ALMAND (v.), *L'Oasis de Ouargla.* Besançon, 1889.

ANONYME, *"Notes pour servir à l'historique de Ouargla, 1885".* Revue Africaine. T.64, Alger 1923, pp.381-442.

ARMAGNAC, (D'), *Le Sahara, Carrefour des races.* Alger, 1934.

Aumassip, G. *Néolithique sans poterie de la région de l'Oued Mya, (Bas Sahara),* SNED

Aumassip , G. et autres, " *Aperçu sur l'évolution du paysage quaternaire et le peuplement de la région de Ouargla,*

Libyca. '.. Libyca. ", t20, 1972,

- BAJOLLE, (Cne) . *Le Sahara de Ouargla. de l'Oued Mva. d 'Oued ar*, Paris. 1887.

BASSET.(R.): *"Les Manuscrits arabes des bibliothèques des Zaouzas de Ain Madhi et de Temacin, de Ouagla et de Adjadja'* " Bulletin de Correspondance africaine. 1885. pp.211-2 .

BASSET.(R.): " *Etude sur la Zenatia du Mzab, de Ouargla et de l'OuedRir',Paris.* 1892.

BASSET.(R.); *"Les sanctuaires du Djebel Nefoussa"*. Journal Asiatique. MaiJuin 1899. pp.423-470. et Juilllet-Aout 1899. pp 88-120.

BASSET. R.. *"Notes de voyage au Mzab et à Ouargla"*. Mélanges Africains et Orientaux. Paris. 1915. p.148.

BEKRI, (Ch.). *"Le Kharijisme berbère"*. Annales de l'Institut d'Etudes orientales. T.15. Alger 1957. pp.55-108.

BEL, (A). *Les Benou Ghanva*. Paris. 1903.

BERTHELOT, (A). *L'Afrique saharienne et soudanaise. ce qu'on connu les anciens*. Paris. 1927.

BROCKELMAN. CC"). *Geschichte der arabischen litteratur,Zweiter* .supplement band II. Leiden. 1938.

CARETTE. (E.). *Etude des routes suivies par les Arabes*. Explorations scientifiques de l'Algérie. III. Paris. 1853.

CARETTE. (E.). *Origines et migrations de l'Afrique septentrionale.Explorations* scientifiques de l'Algérie. III. Paris. 1853.

DESPORTES. Ed.. *"Ouargla"*. Algeria et l'Afrique du Nord illustrée. No.44.1955. pp.17-24.

DOURNON. R.. *"Ouargla sous les palmiers"*. Algeria et l'Afrique du Nord illustrée. No.58. 1958. pp.2-3.

DUVEYRIER, H., *"Voyage dans le pays des Beni-Mzab"*, Tour du Monde.
1861. pp.178-192.*en.* Paris, 1886.
DEVISSE, (J), *"La question d'Audagust"*, Tegdaoust, recherchres sur Aoudaghost. T.I.Paris. 1970. pp.109-156.
DUBIEF, (J), *Le Climat du Sahara*. TI. Alger 1959
Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, art. *Adjabiya., al Dargini, Hammadides ,al Ibadiya, Kharidjites, abu Zakaria al-Wardjalani.*
FAGNAN,(M.), *"L'Afrique septentrionale au 12° siècle de notre ère d'après le Kitab al Istibçar*, Recueil des Notices et Mémoires de la société archéologique de la province de Constantine. Alger-Paris. 1900. pp.I-229.
FERAUD, (Ch.L), *"Kitab al Adwani, ou le Sahara de Constantine et de Tunis"*, Recueil des Notices et Mémoires de la société archéologique de la province de Constantine. V.12. Alger-Paris. 1868. pp.1-208.
' , *Les Ben Djellab.sultans de Touggourt"*, Revue afiicaine No.178. Alger 1886. pp.259-274 et 367-391.
GAUTIER, (E.F), *Le passé obscur de l'Afrique du Nord*. Paris, 1964. GOLVIN, (L.), *Le Maghreb central à l'époque des Zirides.* Paris, 1957. GSELL, (S.), *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T.I, Paris, 1913-1928. HUGUET, (J.), *Origines et migrations des tribus berbères et particulièrement des Beni-Mzab'*, Revue de l'Ecole d'Anthropologie de Paris. T.16. Paris. 12QQ...
pp.377-387.
IDRISS, (H.R.), *"Problématique de l'épopée sanhadjienne en berbérie orientale (Xe-ne siècle)"*, Annales de l'Institut d'Etudes orientales. T17. Alger. 1959.

pp.243-255.
IDRISS. *(H.R.),La Berbérie orientale sous les Zirides Xe-XIIe siecles,TI* et 2,Paris 1962.
JULIEN. (Ch.A). Histoire de l'Afrique du Nord. T2,Paris,1975.
KADDACHE, (M.), *L'Algérie médiévale.* Alger, 1982.
LARGEAU, V., *Le pays de Rirha Ouargla voyage à Rhadames.* Paris, 1879. ROCHE, M.J., *"La mission d'exploration transharienne".* Revue scientifique de la France et de l'Etranger. No.22. 27 No vembre 1880. pp.506 et sq. ROLLAND, M.G. , *"La région de Ouargla"* , Revue Scientifique de la France et de l'Etranger. No.5. 1983. pp.5-14.

LESCHI, (L .), *Rome e t les nomades du Sahara central'* ,Travaux de l'Institut des recherches sahariennes. T.I. Alger. 1942. pp.47-60. LETHIELLEUX, *(J.),Ouargla, cité saharienne des origines au début du no siècle.* Paris, 1983.
LEVI-PROVENCAL, (E.), *Histoire de l'Espagne musulmane.* T.1. Paris, 1950.
LEWICKI, (T.), *"Une chronique ibâdite" Kitab as siyar d'as Sammahi , avec quelques remarques sur l'origine et l'histoire de sa famille.* Extrait de la Revue des Etudes islamique. 8, 134, pp.59-78'.
LEWICKI (T.), *"Notice sur la chronique ibadite d'ad-Dargini".* Rocznik Orientalishyczny. T.Il, Warszawa, 1936, pp.146-172.
LEWICKI (T.)" *"La répartition géographique des groupements ib'âdites dans l'Afrique du Nord au Moyen Age".* Rocznik Orientalistyczny. T.2l, Warzawa,

1957, pp.30 1-343.

LEWICKI (T.). *"Quelques extraits inédits relatifs aux voyages des commerçants et des missionnaires ibâdites nord-africains au pays du Soudan occidental au moyen-âge"* ,Folia Orientalia. T.2, 1960, pp.I-27.

LEWICKI (T.), *"Les historiens, biographes et traditionnistes Ibadites de l'Afrique du Nord du VIIèau XVIèo* siècle,Folia Orientalia. T.3, 1961, pp.I-134.

LEWICKI (T.), *"L'Etat nord-africain de Tahert et ses relations avec le Soudan occidental à la fin du 8° et 9°siècles* ",Cahiers d'Etudes Africaines. V.2, 1962,pp.513-535.

LEWICKI (T.). *"Traits d'histoire du commerce saharien - marchands et missionnaires ibadites au Soudan occidental et centre au cours des VIII è-XII è* siècles",Etnografia polska, 8. 1964, pp.291-311.

LEWICKI (T.). *Arabie external sources for the history of Africa to the South of Sahara.* Warzawa, 1969.

Lewicki(T).Les *liaisons maghrébines, sahariennes et soudanaises de la ville de Ouargla au moyen age* , *Etudes maghrébines et soudanaises.* , éditions scientifiques de Pologne" Varsovie., 1976,

Lewicki(T), *Le Sahara orientale et septentrional dans le haut moyen age* , *Etudes maghrébines et soudanaises,*. éditions scientifiques de Pologne" Varsovie, 1983 .

MARCAIS, (G.), *"La Berbérie au IXo siècle d'après el Yakubi",* Revue Africaine, T.85, Alger, 1941, pp.40-61.

MARCAIS, (G.)" *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen-Age.* Paris, 1946.

MASQUERAY E. *Chronique d'Abou-Zakaria,* Alger, 1879

MASQUERA Y E. *Formation des cités chez les populations sédentaires de l 'Algérie.* Nouvelle Edition, Paris 1983.

MERCIER(E.). *"Révoltes et dévastations en Afrique du Nord. Les ibn R'ania* , Recueil qes Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la province de Constantine. Alger-Paris. 1872. pp.381-406.

MOTYLINSKI, (A. de C.), "Bibliographie du Mzab, les livres de la secte ibadite", Bulletin de Correspondance Africaine. T.3. Alger. 1885. pp.15-72. MOTYLINSKI, (A. de C.)" *"Chronique d'Ibn Saghir sur les imams rostemides de Tahert".* Actes qu 14° Congrès International des Orienlistes. Alger. 1905. Paris. 1906-1907. pp.3-132.

NEGRE. (A.). *"A propos de rapports entre le Maghreb central et extrêmes et l'Espagne musulmane au Moyen-Age".* Annales de lUniversité d'Abidlan. 1979. pp.139-145.

PERES. *{H.}."Relations entre la Tafilet et le Soudan à Travers Sahara du XIIè au XIVè siècle".* Mélanges de géographie et d'orientalisme offerts à E.F. Gauthier. Tours. 1937. ppA09-414.

Pillet .(D), *Repères pour l 'histoire de Ouargla* -1872-1992. HÏwarcomJ995. POTTIER. (R.R). *Histoire du Sahara.* Paris. 1947.

REICHLEM, (A.M). *Contribution à l'étude de la vie sociale et économique de la communauté ibadite du Mzab Algérie. "La poterie comme expression technique et culturelle".* Thèse de 3ème Cycle en sociologie. Paris. 1980. RUBINACCI, (R.). *"Kitâb al Gawahir di al-Barradi".* Annali Istituto Universitario Orientale di Napoli. NoA. Napoli. 1952. pp.95-110.

SCHAHT, J., *"Bibliothèques et manuscrits arabes".* Revue Africaine. T.100. Alger. 1956. pp.375-398.

SCHAHT, J., *"Notes Mozabites"*, Al-Andalus. V.22. Fasc.I. 1957. pp.1-20.

SCHIRMER. (H.). *Le Sahara.* Paris. 1893.

TERRASSE, (H.), *"Un tournant de l'histoire musulmane, le XIème siècle /ivre en Berbérie*, d'après un récent" , Hesperis. 1947, pp.305-338.

LE TOURNEAU (R.), *"La révolte d'Abu-Yazid au Xe siècle"*, Cahiers de Tunisie. T.1, 1953, pp.l03-125.

LE TOURNEAU (R.), et IDRISS, (H.R) , *"Chronique d'Abu-Zakariyya al Wargalani"*, Revue Africaine. T.104, 1960, pp.99-176 323-390 ; T.105, 1961, pp.117-176 et 323-374; T.106, 1962, pp.118-162.

VILLE, M., *Voyage d'exploration dans les bassins du Hodna et du Sahara.* Paris, 1868

ZAMBAUR, (L.D), *Manuel de généalogie et de chronologie pour l 'histoire de l'Islam.* Bad Pynnond, 1955.

3- مراجع أثرية وفنية (كتب ومقالات)

ABDUSSAID, A, *"Early islamic monuments at Ajdabiyah"*, Libya-antiqua. V.I.

1964. pp.115-119.

ALLEN, J. de V., *"Swahili ornament, a study of the decoration of the the 18th century plastework and carved doors in Lamu region"*, Art and Archeology Research Papers. No.3. London. June 1973. pp.1-14:

ALLEN, J. de V., *"A further note on swahili omament "* , Art and Archeology, Research PaDers. NoA. London. December. 1973. pp.87-92.

BALBASS, T., *"Precedents de la décoration murale hispao-*

musulmane". Al
Andalus. V.20. Fasc.IL 1955. ppA07-435.
BERQUE, J., *"Remarques sur le tapis maghrébin, études maghrebines"*
Mélanges Ch.A. Julien. Paris. 1964. Dp. 3-24.
BONETTE, y et Y, *"Contribution à l'étude de l'habitat au Mzab"*, Cahiers de: Arts et Techniques d'AtTique du NJllih Toulouse. 1959. pp.37-46.
BOUROUIBA, R., *Cités disparues. Tahert. Sedrata. Achir. Kalaa des Beni Hammad.* Alger, 1979.
BRIGOL, M., *"L'Habitat des nomades sédentarisés à Ouargla"*, Travaux d(l'Institut des Recherches Saharienes. T.16. Alger 1957. pD .181-197.
BRIGOL, R., *"Ouargla, oasis algériens"*, Etudes des photos-interprétations.
No.6. Paris. 1973 BRIGOL, R., *"Ouargla, oasis algériens"*, Etudes des photos interprétations. No.6. Paris. 1973. pp.33 e

CADENAT, P., *"Vestiges paléo-chrétiens dans la région de Tiaret"*, Libyca.

T.5. Alger. 1957. pp.77-100.
COMBES, J.L., *"L'Habitation Djerbienne, Tunisie"*, Cahiers des Arts et Techniques. T.5. Toulouse. 1959. Dp.52-64.
CRESSWELL, K.A.C, *Earlv muslim architecture.* T.2, Oxford, 1940.
CRESSWELL, K.A.C, *Earlv muslim architecture ofEf!:Vpt.* T.1,

Oxford, 1952.

CRESSWELL, K.A.C, *A short account of early muslim architecture.* Beirut, 1968.

DE BEYLIE, G, *"L'Architecture des Abbasides au 9° siècle"*, Revue Archéologique. T.10. Paris. 1907.pp.1-18.

DIMAND, M.S., *"Studies in islamic omam en t, the origin of the2nd style of Sammarra decoration"*. Archaeologica Orientalia in memoriam E. Herzfekh New York. 1952. pp.62-68.

DONNADIEU, C. et P., DIDILLON, H. et J.M., *Habiter le désert. Les maisons mozabites.* Bruxelles, 1977.

DU PUIGAUDEAU, O., *"Contribution à l'étude du symbolisme dans le décor mural et l'artisanat de Walata"*, Bulletin de l'Institut Français d'AtTique Noire.

T.19. Série B. Dakar. 1957. pp.137-183.

ECHALLIER J.C., *"Sur quelques détails d'architecture du Sahara septentrional, le Mzab, Ouargla, Touggourt, le Souf'*, Le Saharien. NoA6. Paris. 1967. pp.12-27.

ECHALLIER J.C, *Essai sur l'habitat sédentaire traditionnel au Sahara algérien,* Paris, 1968

Encyclopédie de l'Islam, 2° édition. *Art, Architecture, Bàb, Dar.*

FETOUI, 'Abdel Hafid *"La maison arabe du Souj"*, Cahiers des Arts et Techniques d'AtTique du Nm:Q. T.5. Toulouse. 1959. ppA7-51.

FLURY S.," *Bandeaux ornementés à inscriptions arabes"*, Syria. 1920.

pp.235-49. 38-28 et 1921. pp.54-62.

Fouilles à Baou:t. géographie. planches. mémoires. T.3. (non datées:

FREND, W.H.C, *"The revival ofberber art"*, Antiquity. 16. 1942. pp.343-352. GABRIEL, A., *Les fouilles d'al Foustat et les origines de la maison arabe en Egypte.* Paris, 1921.

GAST, M. , *"Les coffres kabyles"* .: ABC Décor. No.40. Paris. Février. 1968. P.40

GAYET, Al., *Les monuments coptes au musée de Boulaq.* mémoires publiés par les membres de la mission archéologique française au caire. T.3, Paris. 1889. GINESTOUS. P., *"Particularités architecturales de l'habitation gafsienne"*, Cahiers des Arts et Techniques d'Afrique du Nord. T.5. Toulouse. 1959. pp.8190.

GOL VIN, L., *"Notes sur les entrées en avant-corps et en chicane dans l'architecture musulmane de l'Afrique du Nord'*, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. T.l6. Alger. 1958. pp.221-245.

GOL VIN, L *"Le palmier dans le décor musulman d'Occident"*, Hespéris Tamuda. V.2. Rabat. 1961. pp.145-159.

GOL VIN, L.. *Recherches archéologiques à la Qal'a des banu-Hammad.* Paris, 1965.

GOLVIN, L *"Le palais de Ziri à Achir (Xè siècle)*, Ars orientalis. V.6. 1966. pp.47-76.

Gouvernement général de l'Iraq. *Excavations at Samarra - 1936-1939.* Part L architecture and mural decoration. Baghdad, 1! 9(1 O.

GSELL, S., *Musée de l'Algérie et de la Tunisie. musée de Tebessa.* Paris, 1902. GSELL, *S.Atlas archéologique.* Alger, 1911.

HAMILTON, R.W., *Khirbat al Mafjar. an arabian mansion in the*

Jordan valley. Oxford, 1959.
. Catalogue du musée arabe du Caire , 1932, Pl.37 et 38.
H.Hawary et H.Rached. *Catalogue général du musée arabe du Caire. Stèles funéraires.* T.1, Le Caire, 1932.
HASSAN, H., *"Une maison de l'époque Toulounide"*, Bulletin de l'Institut d'Egypte. T.15. Le Caire. 1933. pp.79-87.
HERZFELD, E., *Der wandschmuck der bauten von Samarra und seine Ornamentik.* Berlin, 1923.
KUBIAK, W. et SCANLAN, G.T., *"Fustat, redating Bahgat's house and the aqueduct"*, Art and Archeology Research Papers. 4 Decembre 1973. pp.138-148. LAMBERT, E. , *Art musulman et art chrétien dans la péninsule ibérique.* Paris, 1958.
LAMBERT, E. *L'art musulman d'Occident.* Paris, 1966.
LEHURAUX, L., *"LaTente et la maison du Sud"*, Algeria et l'Afrique du Nord illustrée. No.68. 1938. pp.19-21.
LEZINE, A., *Mahdiya. recherche d'archéologie islamique.* Paris, 1965. LEZINE, A, *Architecture de l'Ifriqiya. recherches sur les monuments aglabides.* Paris, 1966.
LEZINE, A., *"Notes d'archéologie ifriqiyenne"*,.:. Revue des Etudes islamqiues. Paris. 1967. pp.53-102
LEZINE, A., *"La salle d'audience du palais d 'Achir"* , Revue des Etudes Islamiques. 37. Paris. 1969. pp.203-218
LEZINE, A., *Deux villes d'Ifriqiya. études d'archéologie. d'urbanisme de démographie.* Sousse. Tunis. Paris. 1971.
-LEZINE, A." *"La protection contre la chaleur dans l'architecture musulmane d'Egypte"*, Bulletin d'Etudes Orientales. T.24. Damas. 1971. pp.7-17.
LEZINE, A., *" Sur deux châteaux musulmans d'Ifriqiya'* Revue des Etudes islamqiues. paris 1971 pp. 87-102

MARCAIS, G. , *"Revue de l'art musulman en Berbérie, Moyen-Age"* ,Revue afucaine, T50;Alger-I906,pp.403-427.

MARCAIS, G. *Art musulman. album de pierre et bois sculptés.* Fasc. 1, Alger, 1909.

MARCAIS, G. *"Sur l'art musulman du 9° siècle en Tunisie"*, Actes du Congrès dHistoire de l'Art. 26 Sept.. Paris. 1923. pp.277-287.

MARCAIS, G., *"L'art musulman du XIe siècle en Tunisie"* , Revue de l'Art Ancien et Moderne. T. 44. Paris. 1923. pp.161173.

MARCAIS, G. *"Notes sur un coffre kabyle"*, Revue Afucaine. Alger, 1927. pp.92-98.

MARCAIS, G. *"Les échanges artistiques entre l'Egypte et les pays musulmans,* Hespéris. T.19. Paris. 1934. pp.95-109.

MARCAIS, G. *"Sur la transmission d'une forme décorative musulmane à l'art gothique"* ,Résumé Congrès de Bâle. 14° Congrès International d1futoire d_ l'Art. 1936. pp.27-28.

MARCAIS, G. *"La conception des villes dans l'islam"*, Revue d'Alger. T.2. Alger. 1945. pp.517-533.

MARCAIS, G. et Lamarre (D.), *"Recherches d'archéologie musulmane, Tihert - Tagdemt* 1945-46. pp.24-57. Revue Afucaine. T.89-90 Alger.

MARCAIS, G. et Lamarre *(D.)"Sousse et l'architecture musulmane du 9°*
siècle", Extrait des Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. T.7. Alger. 1948. pp.54-66.

MARCAIS, G. et Lamarre *(D.)"Art chrétien et art berbère"* , Annali Instituto universitario orientale di Napoli. Seritti in onore di Francesco Beguinot. V.3. Napoli. 1949. pp.63-75.

MARCAIS, G. et Lamarre (D.)" *Salles antisalles, recherches sur l'évolution d'un thème de l'architecture domestique en pays*

d'Islam". Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. T.1a. Alger. 1952. pp.274-3al.

MARCAIS. G. et Lamarre (D.). *L'art des Berbères.* Alger. 1954-1955. MARCAIS. G., *L'architecture musulmane d'Occident. Algérie. Tunisie. Maroc.* Paris ,1954.

MARCAIS. G. et Lamarre *(D.)"Sur les mosaïques de la grande mosquée de Cordoue"* , Studies in islamic art and architecture in honour of prof essor X.A.

Creswell. Le Caire. 1965. PP.147-156.

MERCIER. M. *"Notes sur une architecture berbère saharienne"*. Hes peris. T.8. Paris. 1928. pp.413-429.

MERCIER. M., *La civilisation urbaine* du *Mzab: Ghardaia la mystérieuse.* Alger, 1932.

MEUNIE. J. et TERASSE. H. , *Nouvelles recherches archéologiques à Marrakech.* Paris, 1957.

PAUTY. Ed., *"L'architecture musulmane* en *Algérie"*. L'Architecture. V.43. Paris. 1930. pp.149-161.

PAUTY. Ed., *Les palais et les maisons d'époque musulmane au Caire.* Le Caire, 1932.

REV AUL T. J., *Palais et demeures de Tunis (XVIè et XVIIè siècles).* Paris, 1967.

RICARD. P., *"Notes au sujet de mosaïques à décor géométrique de l'antiquité"*, Hespéris. Paris. 1947. pp.267-279.

RICHE. R., *"L'Artisanat dans le département de Constantine et les territoires de Touggoust et des oasis"*, Documents algériens. série économique No.l02 - 22 Juillet 1953.

SALADIN. *H.Manuel d'art musulman.* T.l, Paris, 1907.

SALAMA. P. *Recherches sur la sculpture géométrique traditionnelle'*. El Diezair. No.l6.p 20-45.

SALIBI. N. , *Hufriyat ar-Raqqa"* , *les fouilles de Raqqa.* Annales

archéologiques de Syrie. T.6. Damas. 1956. *p.25.*

SAUV AGET, J., *"Esquisse d'une histoire de la ville de* Damas". Revue des Etudes Islamiques. Paris. 1934. pp.421-480.

SAUV AGET, J., *"Les ruines omeyyades de Djebel Seis"*, Syria. T.20J939. pp.239-256.

SCHACHT, J., *Sur la diffusion des formes d'architecture religieuse musulmane à travers le Sahara".* Travaux de l'Institut des Recherches sahariennes. T .11. Alger. 1954. pp.l127.

SIMON, H., *"Notes sur le mausolée de Sidi Oqba"*, Revue Africaine. T.53. 1909. pp.26-45.

SOURDEL, J.T., *"Les monuments ayyoubides de Damas, épitaphes coufiques de Bâb Saghir* , Institut français de Damas. Livraison IV. Paris. 1950. pp.l40238."

SOURDEL, J.T ,Les *décors de stuc dans l'art* iranien".*24ème* Congrès international des Orientalistes. Munchen. 1957. Weisbaden. 1959. pp.342-344. SOURDEL (D. et J.T), *La civilisation de l'islam classique.* Paris, 1976. TERRASSE, H., *Les arts décoratifs au Maroc:J.* Paris, 1925.

BERBRUGGER, Ao, *"Observations archéologiques sur les oasis méridionales du Sahara algérien"*, Revue Africaine. IL Alger. 1857-1858. pp.295-300. BLANCHE T, Po, *"Rapport sur les travaux exécutés à la Kalaa des beni Hammad".* Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la province de Constantine. T.32. 1898. pp.100-115.

BLANCHET, Po, *"Excursions archéologiques dans le Hodna et le Sahara,* Recueil des Notices et Mémoires de la Société Archéologique de la province de Constantine. T.33. Paris. 1899. pp.285-293.

SALIBI. No., "*Rapport préliminaire sur la 2° campagne de fouille à Raqqa. Automne* 1952", Annales archéologiques de Sy rie. TA. Damas. 1954-1955. pp.203-213.
SCANLON. GoT., "*Fustat expedition preliminary report, back to Fustat, A. , 1973*" Annales Islamologiques. 17. 1981., ppAO7-436.
S.M.Zbiss, Inscription de Monastir , Tunis 1960. PI.IX-40 et PI.X-4

4- مراجع خاصة بمدينة سدراته

Aberole .Cl. *L'art des Kharidjites de Sedrata* ,Mémoire secondaire pour le diplôme d'Etudes supérieures, Université d'Alger 1956.
DUVEYRIER. Ho, "*Isedrateh et le schisme ibadite*". Revue d'Ethnographie. T.2. Paris. 1883. pp.203-212.
Art et Archéologie
BLANCHE T, P. *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres.* 4° série. Paris. 1898. pp.46-61. 509 et 520.
BLANCHET, P "*Les villes mortes du Sahara*" , Supplément de le Tour du Monde. 25 Juin 1898. pp.201-204.
BLANCHE T, P, "*L'oasis et le pays de Ouargla*". Annales de Géogra phie. T.9. Paris. 1900. pp.141-158.
BOUROUIBA, R., "*Sedrata, ville enfouie sous les sables*". Algérie Actualité. . No.506. Semaine du 29 Juin au 5 Juillet. 1975.
DUSSAUD. R., "*Les fouilles de Sedrata (Algérie)*". Syrie. 28. 1951. pp.360361.
Hamlaoui.A , "*Les Stucs de Sedrata*". L'Algérie en héritage. Institut du monde arabe 2003"pp.301-304
TARRY. H., *Excursion archéologique dans la vallée de l'Oued Mya*". Revue d'Ethnographie. T.2. Paris. 1883. pp.21-34.

TARRY, Ho, *"Les villes berbères de la vallée de l'Oued Mya"*, Revue d'Ethnographie. T.3, Paris. 1884. pp.1-44.

VAN BERCHEM, M., *"La découverte de Sedrata, Ouargla Sahara algérien"* La Nouvelle Clio. Nos. 1-2. Bruxelles. 1951. pp.389-396.

VAN BERCHEM, M., *"A la recherche de Sedrata"*, Archaeologica Orientalia in memoriam Ernst Herzfeld. New York. 1952. pp.22-31.

VAN BERCHEM, M., *"Deux campagnes de fouilles à Sedrata en Algérie"*, Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris. 1952. pp.242-6.

VAN BERCHEM, Mo, *"A la recherche de Sedrata"*, Algéria et l'Afiique du Nord illustrée. No.33. Alger. Juillet-Octobre 1953. pp.123-138.

VAN BERCHEM, M., *"Deux campagnes de fouilles à Sedrata 1951-52"* ,Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes. T.10, Alger. 1953. pp.123-138. VAN BERCHEM, M., *"Sedrata, une ville au moyen âge ensevelie dans les sables du Sahara algérien"*, Documents algériens. série monographie. No.1 1. Alger. 1953.

VAN BERCHEM, M., *"Sedrata, un chapitre nouveau de l'histoire de l'art musulman; campagnes de 1951 et 1952"*, Ars Orientalis. 1954. pp.157-172. VAN BERGHEM, M. , *"La découverte de Sedrata "* , Proceeding of the 22nd Congress ofOrientalist. IstanbuL 1951. Leiden. 1957. pp.631-637.

VAN BERCHEM, Mo, *"Sedrata et les anciennes villes berbères du Sahara algérien dans les récits des explorateurs du XIXè siècle"* , Bulletin de l'Institut français d'Archéologie orientale. T.59. 1960. pp.289-308.

VAN BERCHEM, M., *"Palmettes, rosaces et bordures dans les*

décors de Sedrata",Eretz Israël in memoriam L.A. Mayer. V.7. Jerusalemn. 1964. pp.6-16. VAN BERCHEM, Mo, *"Le palais de Sedrata dans le désert saharien"* , Studies in islamic art and architecture in honour ofpfofessof K.A.C. Creswell. Le Caire. 1965. pp.8-28.

المحتوى